عصر الانبعاث

(القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين)

« يبتدئ بدخول نابوليون مصر »
« ويزدهر في اواخر القرن التاسع عشر »
« ولا يزال مطرّد الازدهار »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية

مواطن الادب . النصارى والعربية . لبنان والانبعاث . مصر والانبعاث . الغرب والانبعاث . ميزة العصر .

الشعراء المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة الشعر . اغراضه ومعانيه . منزلة الشاعر المحدث . شوقي : حياته وشعره .

الكتاب المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة النثر . الترسل . الشيخ ابراهيم اليازجي . التصنيف والمصنفون . الصحافيون . ولي الدين يكن . المنفلوطي . علوم اللغة . العلوم الدخيلة . الادب والادباء . سليمان البستاني .

لمحة تاريخية

مواطن الادب

تنقل الشعر في القبائل والامصار .

اراد الله ان يكون للغة العربية مواطن عدة، تتفيأ ظلالها، وتعتز باكنافها، حتى اذا رزئت بواحد تعهدها الآخر بحمايته، فما تذهب بذهاب هذا الموطن، ولا تطوى في كفنه . فقد كانت في البادية لا تتنفس ابعد من الفرات او بردى، وكاد شعرها يقتصر على البدو دون الحضر . ولكنه لم يضق بعطنه، ولا تبرم بسكنه، بل كان يستأنف نشاطه بتنقله في القبائل، فما غيض ماؤه في قبيلة او جف المرعى، الا تلقفته اخرى، بصدور حافلة، ومخيلات ثرّة، فكان له عهد في ربيعة، وعهد في قيس، وعهد في تميم . وكادت نجد تستأثر به في الجاهلية، وتستبد بفحوله، حتى جاء الاسلام فتحول في قرى الحجاز، بين شعراء قريش وشعراء الانصار . ثم اعتزت دولته في الشآم ببني امية . فلما ادال الله بني العباس، انفردت به العراق، فتألق فيها كوكبه الدريّ زمناً ولا كالازمان . ثم عاد الى الشآم بعد ان تقطع جسم الدولة العباسية، فزها حيناً، وصار من بعد الى مصر طوال خلافة الفاطميين وملك الايوبيين، غير ان الاندلس كانت تجاذبها الشق الاكبر منه .

فلما تأذّن الله بعصر الانحطاط، وجعل الملك في يد الاتراك، واخرج العرب من الاندلس، لبثت مصر والشآم موئل العربية المشترك حتى دكه العثمانيون فابيح عرض اللغة، فمكثت ردحاً لا يعصمها معقل، ولا ينصرها ناصر . ولكن الله تعالى ابى إلّا ان يهيّ لها موطناً جديداً تنبعث منه حياة فتية، فسخّر لها لبنان . فكيف

تم لهذا الموطن الجديد، ان يحمل عبء النهضة، ويرفع مشعل الأدب العربي في الخافقين بعد انطفائه ؟ وهو بلد سرياني اللغة، ليس له سابق عهد بلسان العرب ؟ هذا ما نحاول ايضاحه في الابحاث التالية ان شاء الله .

النصارى والعربية

أثرهم في العلم والادب . انصرافهم عن الادب ورجوعهم اليه .

لم ينقطع النصارى يوما عن خدمة العربية وتعهد آدابها وعلومها . فقد كان لهم في الجاهلية شعراء وخطباء مبرّزون، اوقدوا جذوة النهضة، واترعوا البادية بتنهل قرائحهم . وكان ملوكهم في الحيرة والشآم يعززون الشعر، ويرفعون قدر اصحابه، ويجيزونهم احسن جزاء .

ولما ظهر الاسلام، واستولى بنو امية على الخلافة، كانت العصبية العربية لم تزل في عهد قوتها، والناس منقسمون قبائل واحزاباً، والشعراء يناصرون قبائلهم واحزابهم على اختلاف الاديان والملل . وكان للنصارى شعراء متقدمون كالاخطل والقُطامي، يتحاماهم فحول الشعر، ويقرّ لهم الادباء المسلمون بالزعامة، ولا يرون حرجاً في تفضيلهم على نوابغ شعرائهم . فقد كان يونس بن حبيب، وعمرو بن العلاء، وحمّاد، وابو عبيدة يقدمون الاخطل تقدمة شديدة، ويجعلونه اشعر الناس، لا يبالون ان يكون الفاضل نصرانياً والمفضول من المسلمين . لانهم انما كانوا ينظرون الى الشعر واللغة، والاخطل عندهم شاعر خنذيذ، صحيح العروبة، صحيح اللغة . وفهم الاخطل روح عصره فقال: « ان العالم بالشعر لا يبالي، وحقّ الصليب، اذا مر به البيت السائر الجيد، أمسلمٌ قاله ام نصراني . »

على ان هذه الحال تبدلت غيرها في العصر العباسي، اذ ضعفت الاحزاب، وضعفت العصبية العربية، ونفذت الاعجام، وغلبت الصبغة الدينية على الخلافة . فكان الخليفة يجلس للمظالم ويقضي بالشرع معتزّاً بالإمامة والبيت النبوي معاً . واصطبغت اللغة وآدابها صبغة دينية مقدسة وتسمّت بلغة القرآن . فهذه الظواهر الجديدة في العنصر العربي، ولغته، وادبه ومجتمعه، جعلت قصور الخلفاء والامراء لا تحفل بغير

الشعراء المسلمين، وجعلت الشعراء النصارى يخملون فلا يذكر منهم الا من أسلم كابي تمام[1] وابن الرومي .

ومعلوم ان الشعر عند العرب عدة التكسب، وطريق الحظوة والشهرة، فلما اصبح النصارى لا يجدون فيه ما يجده المسلمون جفوه، وانصرفوا عنه الى شيء آخر اجدى لهم وانفع . ولم يُسمع لمن اتبعه منهم، ذكر يذكر بين الفحول من المسلمين .

وصدوف النصارى عن الشعر والادب اورث لغتهم ضعفاً، وبيانهم اسفافاً . ذلك بان اللغة العامية كانت قد تفشت في الجيل العباسي، لتغلب العنصر الاعجمية، واصبح لسان العربي لا يستقيم الا بالتعلم . والعلم يومئذ يكاد ينحصر في المساجد فلا يحظى به غير المسلمين . ولو اتيح للنصارى لما انتفعوا به، والمسلمون كتابهم وشعراؤهم قد احتكروا الادب احتكاراً، وطبعوه بطابع الاسلام .

ولئن فات النصارى في العباسيين ان يرفعوا شأن اللغة بشعرهم ونثرهم، لم يفتهم ان يرفعوا شأنها بعلومهم . فقد كانت مدارس السريان والروم تخرج منهم الفلاسفة والاطباء والرياضيين يوم لم يكن للعرب شيء من هذه العلوم، فلم يجد خلفاء بني العباس بدًّا من الاعتماد عليهم في بناء حضارتهم، فقربوهم، ورفعوا قدرهم، وفتحوا لهم دور الترجمة، فنقلوا الى العربية علوم اليونان والسريان، فحفلت الخزائن بمصنفاتهم، واطلع عليها المسلمون فاستفادوا منها . وبيّن انه لولا العلوم المنقولة لما ازدهرت حضارة بني العباس .

وضعف اللغة في النصارى جعل المسلمين على كرور الايام، وهم مستأثرون بالآداب، يعتقدون ان النصرانية والبيان العربي لا يجتمعان، وقال قائلهم : العربية لا تتنصر . حتى اذا ضرب الدهر من ضربه، وعاد النصارى في القرن التاسع عشر الى اللغة والادب، وأنسوا بالشعر بعد هجرانه، صعب على ادباء المسلمين تغيير عقيدتهم فيهم، لما لها من الرسوخ في نفوسهم، وأبوا ان ينسبوهم الى الفصاحة .

ومن اجل هذه العقيدة رفض الشيخ صالح التميمي الشاعر المسلم ان يعارض

---

(١) هذا على رواية من يزعم ان والده نصراني من جاسم .

خالية المعلم بطرس كرامة[١]، فاعتذر الى داود باشا صاحب العراق عن الردّ عليها بقوله :

عَهِدْنَاكَ تَعْفُو عَنْ مُسِيءٍ تَعَذَّرَا ... أَلَا فَاعْفُنَا مِنْ رَدِّ شِعْرٍ تَنَصَّرَا[٢]

على ان هذه العقيدة ما لبثت ان زالت من نفوس المسلمين او من نفوس اكثرهم فصاروا يعترفون للنصارى بالفضل، ويُطرون بلاءهم في النهضة، ولا بدع فالفضل يعرفه ذووه[٣] .

---

(١) الخالية قصيدة جميع قوافيها على لفظ الخال، وكل لفظ له معنى يختلف عن الآخر . واولها :

أمِن خدِّها الورديِّ أفتنكَ الخالُ، ... فسحّ من الأجفانِ مدمَعُكَ الخالُ (١)

(١) افتنك : اعجبك، وولهك . وانكرها الاصمعي بالالف . الخال الاول : الشامة . الخال الثاني : سحاب لا يخلف مطره .

(٢) تعذّر : اعتذر عن فعله . اعفُنا : اتركنا . وقوله : ردّ شعر اي الرد على شعر، ولو قال نقض شعر، لاصاب . (٣) قال محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق في كتابه خطط الشام (ج ٤ ص ٧٩) : « . . . وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالافول والاندراس، والمسلمون او الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من اهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية والادارية والعسكرية ، كان اخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة، جعلت تدريس العربية وادابها، واللغات الحية، اول بند من منهاج الدراسة فيها . فجاء من ابنائهم ومن اخذ العلم عنهم من سائر الطوائف، جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب، واخاض المجتمع . ومنهم افراد نزحوا الى مصر واميركا وتولوا الاعمال الكبرى، واظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم، ولاسيما في القرن التالي (القرن الرابع عشر للهجرة) . وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى، وغناء اليهود، فاصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقاة، ومن اليهود مغنون ومغنيات، بمعنى ان الزمن ابطل ذاك الزعم . » اه

لبنان والانبعاث

دخول العربية لبنان . اهزام السريانية . العصبية العربية .
بدء الحركة العلمية . المدارس . بلاط الامير بشير .

بدأت النصرانية تنبسط بلبنان في القرن الرابع للمسيح، مجاهدة اهل الشرك، حتى قيض لها النجاح على ايدي الرهبان والمتعبدين، وتمت لها السيادة المطلقة، فانهزمت امامها الوثنية الجافية .

وكانت السريانية لغة اللبنانيين يستعملونها في طقوسهم، ومخاطباتهم، وكتابتهم . ولم يصر لهم عهد بالعربية الا يوم اقتحم معاوية لبنان يريده، فلم ينل غير سواحله فأتبعها دمشق ، وامتنعت عنه الجبال لوعورة مسالكها فارتد عنها . واضطر بعده عبد الملك بن مروان الى ان يصالح المرّدة او الجراجمة[1] على الف دينار يؤديها اليهم في كل جمعة ، ليدفع معرّاتهم عن المسلمين في السواحل . ومما لا شك فيه ان ارتباط الساحل الفينيقي بدمشق الاموية مهّد طريق الفتح للغة العربية . ولم يصعب عليها ان تتوغل الجبل لما بينه وبين الساحل من الاتصال[2]، ثم لما بينها وبين السريانية من التشابه والقربى . ولكنها لبثت فيه بطيئة الانتشار، ولاسيما مواطن الموارنة فقد ظلت بها السيادة للسريانية حتى القرن السادس عشر . ولم ترفع لغة الضاد رأسها الا بعد ان تقاطرت الاسر العربية الى لبنان واستوطنت فيه، وعادت اليها احكام

---

(١) اختلف في اصل المردة او الجراجمة، والراجح انهم قوم من الجرجومة في جبل اللكّام، بعثهم قسطنطين اللحياني ملك الروم الى الشام للدفاع عنه . فاعتصموا بلبنان وقاتلوا العرب وانحنوا فيهم . ولما تصالح ملك الروم وعبد الملك بن مروان ارجعهم الى بلادهم وكان عددهم اثني عشر الفاً . (٢) ذكر ابن جبير ان المسلمين المتعبدين اذا ارادوا التنسك قصدوا شعاف لبنان وانقطعوا بها الى الله ، فيقبل عليهم النصارى، ويأتونهم بالقوت ، ويحسنون معاملتهم .

اقطاعاته، واخصها بنو معن[١] وبنو شهاب[٢]. فان الامير المعني فخر الدين الثاني[٣] بسط سلطانه على جميع لبنان، وعرف بالتساهل واخذب على النصارى لنشأته فيهم[٤]. فانتشرت الاسر المارونية على عهده في جميع لبنان، وأهل بها الشوف خصوصاً، بعد ان كادت تنحصر في الشمال. فكان امتزاج الاسر العربية وغير العربية، واختلاطها بالسكنى والزواج سبباً قوياً لانهزام السريانية، وانتصار لسان العرب، وهو لغة الحكام واكثر اصحاب الاقطاعات. وازدادت العربية قوة ومناعة في ولاية الشهابيين بعد تنصرهم، وتنصر الامراء اللمعيين معهم[٥]. فكان منهم في الموارنة اسر خطيرة الشأن، عربية النجار، لا عهد لها بالسريانية قط. ولم تكن الأسر العربية كلها مسلمة، وانما كان منها نصارى لجأوا الى لبنان فراراً من الاضطهاد والعسف فأثّروا في تعريب مسيحييه.

ومما اذكى الروح العربي في نفوس اللبنانيين، على اختلاف الملل والنحل، تفشي سياسة الاحزاب فيهم. فان المعنيين والشهابيين كانوا على رأس القيسية العدنانية. وكان بنو سَيفا[٦] وبنو علم الدين[٧] على رأس اليمانية القحطانية. فانقسم اهل لبنان

---

(١) بنو معن: قبيلة عربية من ايوب بن ربيعة بن نزار جاءت لبنان في القرن الثاني عشر للمسيح. ونزلت الشوف متحصنة فيه، تريد مجاهدة الصليبيين. ولبثت تنمو ويعظم شأنها حتى القرن السابع عشر. (٢) بنو شهاب: قبيلة عربية من مخزوم ثم من قريش، جاؤوا حوران في صدر الدولة الاموية ثم انتقلوا الى وادي التيم وكانت بينهم وبين المعنيين مودة ومصاهرة. وانتقل اليهم الحكم في لبنان بعد بني معن سنة ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) وانتهى سنة ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ). (٣) كانت ولاية فخر الدين الثاني من سنة ١٥٩٨ م (١٠٠٧ هـ) الى سنة ١٦٣٣ م (١٠٤٣ هـ) وقتل في الاستانة سنة ١٦٣٥م (١٠٤٥ هـ) وانبسط سلطانه على لبنان وبيروت وطرابلس وصيدا وصفد وبانياس وغيرها. وكان سريره في دير القمر. (٤) نشأ الامير فخر الدين في بني الخازن بغريبة بشونة بالقرب من عجلتون. وبنو الخازن اسرة مارونية معروفة. (٥) بنو اللمع: قبيلة عربية من بني الغوارس ثم من تنوخ، كانوا دروزاً فتنصروا مفتدين بالشهابيين. (٦) بنو سَيفا: اكراد مستعربون، زعيمهم يوسف باشا سيفا، استولى على اقطاعة المسافيين الترك الممتدة من طرابلس الى البترون الى كسروان في سنة ١٥٩٣ م (١٠٠٢ هـ) بعد ان اغتال اميرهم محمد منصور عساف. وكان بنو سيفا يتعصبون لليمانية. فجرت بينهم وبين المعنيين حروب كثيرة، حتى اخضع الامير فخر الدين الثاني يوسف باشا وازال سلطانه. (٧) بنو علم الدين قبيلة يمانية درزية من اصحاب الاقطاعات.

قسمين كبيرين، وكانت بينهم فتن وحروب اعادوا بها عهد العصبية العربية القديمة .

وهكذا استعرب لبنان في مجموعه، وتضاءلت السريانية متوارية عن افواه موارنته، محتزئة بكتب الدين . ولما آذن الله بنهضة الاداب العربية بعد انحطاطها كان للموارنة السهم الاكبر في بعثها واحيائها .

والحركة العلمية قديمة في لبنان، بدأت منذ عهد الصليبيين بفتح المدارس، كما يحدثنا الدويهي في اخبار سنة ١١١٢ م (٥٠٦ هـ) . وفي تواريخ الصليبيين ذكر لمدارس منظمة بنوها في ممالكهم، وجعلوا فيها اساتذة وطنيين، فكان بدء اختلاط اللبنانيين بالفرنجة حافزاً لهم على طلب العلم . ولكن اثر هذا الاختلاط كان اوضح وابين، بعد ان حملت فرنسة نفسها على حماية نصارى الشرق، ولاسيما الموارنة في لبنان . فان لويس الرابع عشر جعلهم في عهده، وشملهم برعايته، وتبرع بتعليم نفر من غلمانهم في المدرسة اليسوعية بباريس .

وكان من مساعي سفراء فرنسة في الاستانة ان عقدت معاهدات تجارية بين ملوك الفرنسيين وسلاطين بني عثمان . واجيز للرهبان الغربيين ان يسكنوا لبنان والولايات . ثم عقدت معاهدات بين الدولة العثمانية ودول غربية اخرى، فراج التبادل التجاري، واشتد اختلاط الشرقيين بالغربيين، ووفدت البعثات الدينية من الغرب تبني اديارها ومدارسها في الشرق، وكان حظ لبنان منها الاطيب[1]

وعني البابا غريغوريوس الثالث عشر بكهنة الموارنة عناية تذكر، فانه انشأ لهم المدرسة المارونية برومة في اواخر القرن السادس عشر، فاخرجت طائفة مختارة من العلماء كالبطريرك الدويهي، والسماعنة، والحصروني، والحاقلاني وسواهم . وانتشر جماعة من تلاميذها في قواعد اوربة[2] يعلمون، ويصنفون، وينقلون علوم المشارقة الى

(١) انشأ اليسوعيون سنة ١٧٣٤م (١١٤٧ هـ) مدرسة في عينطورة كسروان، واخرى سنة ١٧٣٥ م (١١٤٨ هـ) في زغرتة من اعمال طرابلس وكانتا على شيء من الرقي .

(٢) من الذين لبثوا في اوربة السماعنة المشهورون، وكسرجيوس الرزي، ومرهج ابن يرون الباني، اقاموا في رومة يخدمون الكرسي الرسولي . واقام في باريس ابراهيم الحاقلاني، وجبرائيل الصهيوني، ويوحنا الحصروني . واتصل بامراء فلورنسة بطرس مبارك المارووني اليسوعي . واشتهر في مدريد ميخائيل الغزيري . وعلم في فينا انطون عريضة الطرابلسي .

الغربيين، فحببوا الى الاوربيين دراسة آداب الشرق وعلومه . وحمل جماعة منهم الى مسيحيي الشرق[١] ولاسيما ابناء ملتهم بلبنان، علوم الغربيين وآدابهم، وانشأوا لهم المدارس، فايقظوا فيهم حياة فكرية جديدة كان لها اثر محمود فيما بعد .

وفي القرن الثامن عشر نُظّمت الرهبانيات المارونية، فكان لها يد في النهضة لانها جعلت تعليم الاحداث وتهذيبهم في قوانينهـا؛ ونشطت الى فتح المدارس مجاناً وانشاء المطابع وتسهيل اسباب العلم .

هذا، وللامير الشهابي بشير الكبير[٢] تأثير حسن في الحركة الادبية، فانـه قرب الشعراء والكتاب، واجازهم . وكانت المناظرات بينهم تجري في حضرته، فتستحث قرائحهم للنظم والنثر . ومن شعرائه بطرس كرامة، ونقولا الترك، والشيخ ناصيف اليازجي . وكان بينه وبين محمد علي صاحب مصر من الصداقة ما مكنه من ايفاد بعثة لبنانية الى قصر العيني لدراسة الطب .

على ان النهضة الحقيقية لم تلمس الا بعد نصف القرن التاسع عشر حين ظهرت المدارس الراقية، وانتشرت الطباعة والصحافة .

---

(١) من الذين رجعوا الى وطنهم البطاركة جرجس عميرة ، واسطفان الدويهي، ويعقوب وسمعان عواد، ويوسف اسطفان، ويوسف تيّان . والمطارنة يوحنا الحوشبي، واسحق الشدراوي، وميخائيل الحصروني، وارميا نجيم . والكهنة اسطفان ورد، واندراوس اسكندر، وميخائيل فاضل البيروتي، وبطرس الثولثوي . وله تلمذ المطران جرمانوس فرحات في حلب .

(٢) حكم من سنة ١٧٩٠ ـ ١٨٤٠ (١٢٠٥ ـ ١٢٥٦ هـ .) وجعل سريره في بيت الدين من اعمال دير القمر .

مصر والانبعاث

حالة مصر قبل الانبعاث . نابوليون في مصر . انشاءاته .
محمد علي . مآثره . البعثات العلمية . المدارس . الطباعة .
عهد اسماعيل . النهضة المحسوسة .

كانت مصر قبل القرن التاسع عشر في شبه عزلة عن الاوربيين، لا تكاد تعرف شيئاً عن حضارتهم وعلومهم، مع انها لا تخلو يوماً من قناصل وتجار اجانب. الا ان المصريين كانوا ينفرون منهم ولا يرون خيراً في الاتصال بهم. ولطالما اعتدوا عليهم وساموهم الخسف، فتحتج دولهم عند الباب العالي فما يستطيع عملاً، لان القطر المصري كان على اسوأ حالة من الخمول والفوضى والاضطراب. فالجهل مخيم على جميع الطبقات، ضارب باستاره المظلمة على الاذهان، لا تستوضح في ذلك الظلام الدامس غير نور ضئيل منبعث من الازهر، ينسج من خيوطه الدقيقة للدين علماء، وللغة نحاة وتصريفيين. والمماليك بيدهم ازمة الامور يتولون مشيخة البلد، ويردون اليها الادارة والاحكام. والوالي التركي الذي تبعثه الدولة العثمانية آلة بيدهم، لا يبدي ولا يعيد الا عن امرهم. وهم يثقلون الشعب بالضرائب ويختلسون اكثرها، ويقتتلون على السيادة، فيبطش بعضهم ببعض. فما يقوم شيخ البلد منهم الا وله خصوم تناوئه، وتعمل على اسقاطه، وما يطول الامر حتى يفتكوا به وينصبوا غيره.

ولم يكف مصر ما دهاها من عسف المماليك، ومذابحهم وفتنهم؛ حتى سُلّط عليها الطاعون، فجاحها غير مرة، فكانت الجنازات تحمل بالجملة، وربما اوفت على الاربعين، وتدفن بلا صلاة. ونقص سكان القطر نقصاناً محزناً، فكانوا لا يجاوزون ثلاثة ملايين عندما غزاهم نابوليون الاول.

دخل نابوليون مصر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) وهي على هذه الحال من الجهل والفوضى، فازال عنها سلطة المماليك، فاعتصموا منه بالصعيد. وكان القائد الفرنسي

يرمي من افتتاح مصر الى قطع طريق الهند عن انكلترة، واقامة قيصرية شرقية ممتدة الجوانب . فاتخذ الاصلاح الاجتماعي والتثقيف الفكري، طريقاً لاكتساب ثقة المصريين، والوصول الى غايته . وكان قد استصحب معه جماعة من العلماء والصناع المتخصصين باللغات والآثار والجغرافية والهندسة والبناء والكيمياء، والطبيعي والرسم والتصوير وغير ذلك . فاقاموا المعامل والمصانع والمراصد والمستشفيات والحدائق والملاهي، واستعملوا العربات . وانشأوا مدرستين لتعليم الفرنسيين المولودين في مصر، ومجمعاً علمياً مصرياً، ومكتبة جامعة اباحوا النظر فيها ؛ ومطبعة حروفها عربية، ولاتينية، ويونانية، سميت المطبعة الاهلية، ادارها المستشرق يوحنا يوسف مرسال . واصدروا جريدتين فرنسيتين احداهما العُشاري[1] المصري (La Décade Egyptienne) والاخرى بريد مصر، (Le Courrier d'Egypte) وجريدة عربية اسمها التنبيه، تولى انشاءها اديب عصره اسماعيل الخشّاب . وكانت تنشر ما يجري من الاحكام في ديوان القضايا الوطنية . فشده المصريون مما رأوا من حضارة الفرنسيين، ولعبت باذهانهم اشياء لا عهد لهم بمثلها، فتنبهوا او كادوا يتنبهون لما هم عليه من جهل وخمول .

ولم يطل لبث الفرنسيين في مصر فقد اضطروا الى الانزعاج عنها سنة ١٨٠١م (١٢١٦ هـ) فتركوها يتقاتل فيها الجنود العثمانية والمماليك .

وكان محمد علي في الحملة البحرية التي بعثها العثمانيون لمحاربة الفرنسيين، واجلائهم عن مصر . فما زال يتقدم بجده، ونشاطه، وحسن سياسته حتى بايعه المصريون بالولاية سنة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) ورضي الباب العالي باستعماله .

وعلم محمد علي ان لا راحة لدولته الا بزوال دولة المماليك؛ فما انفك يتربص بهم حتى اغتالهم في القلعة سنة ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) . ولم ينج الا اثنان من اربع مائة . وكانت نفسه الكبيرة تسمو الى مطمع عظيم الا وهو الاستقلال بالبلاد . ولطالما كان هذا المطمع حليف نفوس الولاة في مصر، وهي بما فيها من خصب وثروة ورجال

---

(١) يقال : ثوب عُشاري طوله عشرة اذرع ، والمراد هنا عشرة ايام . وكانت هذه الجريدة تصدر اسبوعياً . وكان الاسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي عشرة ايام .

كانت وما برحت جديرة بان تستقل . والاستقلال يحتاج الى جيش منظم، وادارة صالحة . ولم يفت محمد علي فساد نظام الجيش في مصر، وفساد ادارتها، فصرف همته الى تطهيرهما واصلاحهما . وكان قد رأى حسن تنظيم الجيوش الاوربية في تحارب الانكليز والفرنسيين من اجل مصر . وشاهد ما احدثت حملة نابوليون من اصلاح وعمران . فعقد نيته على استعانة الفرنج في اعماله الاصلاحية، فاوفد البعثات العلمية الى اوربة[1] وجاء منها باساتذة متخصصين يديرون مدارس الجيش والطب والصناعات والفنون[2]؛ فاصبحت مصر على اتصال وثيق بالغرب بعد ان كانت على شبه انقطاع عنه . واحدث مدرسة مصرية في باريس تعدّ الطلاب للتعليم العالي[3] . وما زال يستكثر

---

(١) اوفد بعثة من احداث المماليك الى ايطالية سنة ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ .) لدرس الفنون العسكرية والهندسة والطباعة . وبعثة اخرى الى انكلترة سنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ .) لدرس الخيَل (الميكانيك) وتوامس السوائل . وبعثة ثالثة الى فرنسة سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ .) بادارة المستشرق الفرنسي جومار وهي اهم البعثات، فيها واحد واربعون فتى تعلموا العلوم المختلفة وعادوا الى مصر يعلّمون ويديرون الدواوين، ويؤلفون ويترجمون وفيهم الفواد والاطباء . وتابع البعثات في اوقات مختلفة فأتت بالفوائد الجليلة . (٢) اول عمل باشره في اصلاح الجيش ان بعث جماعة من مماليكه الى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب على اساتذة من الفرنج . ثم انشأ مدرسة التجهيز في قصر العيني سنة ١٨٢٥ م (١٢٤١ هـ .) وضم اليها نحو خمس مائة غلام من غير المصريين فيهم الاتراك والارمن واليونان والاكراد وسواهم . وجعل اكثر اساتذتهم من الايطاليين . على انه ما لبث ان عدل عن النظام الايطالي الى النظام الفرنسي فاقام في السنة نفسها مدرسة اركان الحرب في ابي زعبل من ضواحي القاهرة، وعهد بادارتها الى اساتذة فرنسيين . وانشأ ايضاً في ابي زعبل مدرسة طبية ومستشفى سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ .) وعهد بادارتها الى الطبيب الفرنسي الدكتور كلوت بك . وكان اساتيذها افرنسيين والتلاميذ يجهلون الفرنسية، فاضطروا الى توسيط التراجم بين المعلمين والمتعلمين، فجاؤوا بهم من لبنان والمغرب ومن الارمن . (٣) كان مديرها اسطفان بك، ارمني الاصل، من طلاب البعثة الباريسية الكبرى . وكان انشاؤها لامرين احدهما حاجة مصر الى اساتذة متوفرين على تدريس العلوم العالية، والثاني فقر اللغة العربية الى الكتب العلمية الحديثة . فكان الطلاب المصريون يتعلمون الفرنسية فيها ثم ينتقلون الى العلوم العالية . وبقيت هذه المدرسة حتى سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ .) ثم اقفلت على اثر الثورة الفرنسية .

من المدارس حتى انشأ في القطر نحو خمسين مدرسة بين ابتدائية وتجهيزية، يعنى معظمها بالفنون الحربية والطبية والصناعية، اكثر مما يعنى بالعلوم والادب. ولم يخل محمد علي باللغة العربية لميله الى التركية، حتى انه حاول مدة ان يجعلها لغة التعليم والدواوين، فلم يوفق بمحاولته لرسوخ العربية في مصر. وهو وان لم يكن له فضل يذكر على لغة العرب، فان فضله في النهضة الفكرية عظيم، ولولا هو لما توثقت صلة مصر بالغرب، فاستفادت من علومه وفنونه وحضارته. ولم يغفل عن الطباعة والصحافة، فقد انشأ المطبعة الاهلية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ.) وهي مطبعة بولاق. وعهد بادارتها الى نقولا مسابكي الماروني؛ وكان قد اتقن فن الطباعة في رومة. واصدر في سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ.) جريدة الوقائع المصرية باللغة التركية. ثم بالتركية والعربية[1]. وكانت تنشر اوامر الحكومة والحوادث التي ينبغي ان يطلع عليها الجمهور. وتداولها جماعة من الكتاب المعروفين كالشيخ حسن العطار، ورفاعة بك الطهطاوي، واحمد فارس الشدياق، والشيخ محمد عبده وغيرهم.

وخرف محمد علي في آخر ايامه (سنة ١٨٤٨ م. ١٢٦٥ هـ.)[2] فولي الحكم مكانه ابنه ابراهيم، ولكنه لم يعش بل مات في السنة نفسها. فخلفه عباس الاول ابن طوسون بن محمد علي، وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ.). فتولى بعده سعيد بن محمد علي ومات في سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٩ هـ.). وفي عهد هذين الاميرين تقهقرت الاداب والعلوم في مصر لانهما لم يترسما خطة السلف الصالح في تعزيزها. فغلقت المدارس، وتعطلت المصانع، وتقاعست عوامل النهضة. وكادت مصر تفيء الى سابق خمولها لو لم يتداركها اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ.) فيدفعها الى الامام دفعة قوية، فتجري في المضمار كالفرس الكريم لا يثني او يحرز الغاية. وعهد اسماعيل هو عهد النهضة المحسوسة والاصلاح الملموس. فانه نشر العلم بعد ان لحد، وفتح المدارس المختلفة ونظمها تنظيماً حسناً، واستقدم لها مهرة الاساتذة

---

(١) صارت الوقائع المصرية تصدر اخيراً بالعربية وحدها، وقصرتها الحكومة على الشؤون الرسمية من قوانين ومراسيم. ولا تزال تصدر ثلاث مرات في الاسبوع. (٢) توفي محمد علي سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ.).

من الغرب، وانشأ نظارة المعارف[1] لتعهدها ومراقبتها . وجعل اللغة العربية اساساً للتعليم، فرفع مستواها، واعاد اليها رونقها الفائت . وجدد ارسال البعثات العلمية الى اوربة . وكان يشهد امتحانات التلاميذ، ويقف للناجحين ويقدم لهم الجوائز . وبسط كفه للادباء والمصنفين، فحثهم على العمل والانتاج، فألفوا وترجموا ونشروا الكتب القديمة . وتم مصر في ايامه جمهرة من الادباء اللبنانيين، فرأوا المجال رحباً لاقلامهم وذكائهم، فشغلوا الدواوين، وادارو الاحكام، وأثاروا تياراً ادبياً بما انشأوا من الجرائد والمجلات، وبما نقلوا وصنفوا من المؤلفات . وكذلك الاجانب الغربيون هبطوا مصر وفتحوا المدارس الخاصة، ومعظمها مدارس البعثات الدينية لمختلف مذاهب النصارى .

ويطول بنا القول اذا اردنا تعداد مآثر اسماعيل، وما احدث من الاصلاح والعمران . وما بنى من القصور والشوارع، والقناطر . وما شق من الترع، وما انشأ من المعامل والمصانع . وما اصلح من الزراعة، وما نظم من المجالس في القضاء والنيابة . فالنهضة مدينة بكثير من الاعمال الاصلاحية لاسماعيل . ولكن افراطه في السخاء والانفاق، اضطره الى الاكثار من الضرائب ليفي ما عليه من الديون للاجانب؛ ومهد الطريق لتدخل دول اوربة في شؤون الحكومة المصرية ومراقبة دخلها وخرجها حفاظاً على اموال رعاياها؛ وافضى الى خلعه عن عرش الامارة سنة ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ[2] .) وتولية ابنه توفيق . وفي ولاية توفيق حدثت الثورة العرابية[3]، واحتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢م (١٣٠٠ هـ .)

---

(١) النظارة في مصر بمعنى الوزارة . (٢) مات اسماعيل سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣هـ .) وهو اول من تلقب بالخديوي، وصارت ولاية مصر بعده ارثاً في نسله من بكر الى بكر . وكانت قبلا تنتقل في الاسرة العلوية الى من يختاره السلطان العثماني . (٣) الثورة العرابية منسوبة الى احمد عرابي، كان جندياً صغيراً ثم اعتلى الى قيادة الجيش ثم الى نظارة الحربية . ورأى من الخديوي توفيق ايثاراً للاتراك، فالب عليه الجيش . وعاونهم النواب، ورئيس النظار محمود سامي البارودي، فاضطهدوا الاتراك والشراكسة، واحتقروا الفرنجة، وغلّوا ايدي المراقبين الماليين منهم، واطرحوا سلطة الخديوي . ثم قرروا عزله واخراج اسرته من مصر وتولية محمود سامي مكانه . فاعلنت انكلترة وفرنسة حماية الخديوي والدفاع عنه، فثار

الغرب والانبعاث

اطوار الاستشراق . اعمال المستشرقين .

لم يقتصر عمل الغربيين في النهضة على نقل حضارتهم وعلومهم الى بلاد العرب، بل كانت لهم ايد مشكورة اسداها المستشرقون منهم الى العربية وآدابها .

والاستشراق قديم العهد، مرّ باطوار مختلفة حتى صار الى ما هو عليه الآن، فقد عني الغربيون بدراسة العربية منذ القرن العاشر للمسيح يوم كانوا في اشد الفقر الى العلم والادب، ويوم كانت بلاد العرب تشع بانوار العلوم والآداب ، وقواعد الاندلس مناور الغرب بمدارسها وجامعاتها . فكان الفرنجة يقدمون اليهـا من جهات مختلفة يدرسون العربية وعلومها، فنشأ الطور الاول من الاستشراق وهو طور استفادة الاوربيين من العرب . واشهرهم في هذا العهد البابا سلفستروس الثاني[1] .

وازدادت مهاجرة الاوربيين الى الاندلس في القرن الثاني عشر، وتضاعف اقبالهم على دراسة العربية، والنقل منها الى لغاتهم . واشتهر فيهم يومئذ جيرار الكريموني[2] فانه نقل الى اللاتينية نحو ستين كتاباً جليلًا للفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم .

واقدم الملوك المستشرقين فريدريك الثاني قيصر المانيا[3]، والفنس العاشر[4] ملك

عرابي بالجيش، فتقدم الاسطول الانكليزي الى الاسكندرية، وقذفها بالمدافع فهدم اكثر حصونها، ثم احتلها واحتل سائر مصر . ونفي عرابي والبارودي وغيرهما من الوطنيين الى جزيرة سرنديب (سيلان) وصودرت املاكهم . ولم يُعف عنهم الا سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ .) وصرحت انكلترة بانها لا تخرج من مصر الا ان يستتب الامن، ولا يعلم الا الله متى يستتب الامن في نظر الانكليز !

(١) مدة بابويته من سنة ٩٩٩ - ١٠٠٣م (٣٩٠ - ٣٩٤ هـ .) . (٢) جيرار الكريموني منسوب الى كريمونة بلدة من ايطالية، تعلم في طليطلة، واتقن العربية واداجها . ولد سنة ١١١٤ وتوفي سنة ١١٨٧ م (٥٠٨ - ٥٨٣ هـ) . (٣) فريدريك الثاني نودي به قيصرًا على المانيا سنة ١٢١٢م (٦٠٩ هـ .) وقاد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٩م (٦٢٧ هـ .) وتوفي سنة ١٢٥٠م (٦٤٨ هـ .) . (٤) الفنس العاشر الملقب بالحكيم امتاز بالشعر والعلوم ولاسيما علم الفلك،

لاون وقشتالة فقد كان لها فضل عظيم في نشر علوم العربية وآدابها في اوربة .

واصطبغ الاستشراق بعد الحروب الصليبية صبغة دينيـة ظاهرة، لاهتمام رومة باخراج الدعاة الى الشرق . فكان الاحبار الاعظمون يحضون الكليات والمدارس على دراسة العربية، فالبابا اونوريوس الرابع[1] تقدم بفتح مدرسة للغة العربية في باريس . والبابا يوحنا الثاني والعشرون[2] امر قاصده بباريس ان يراقب الدروس العربية في كليتها . والبابا يوليوس الثاني[3] اول من طبع كتاباً عربياً . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر اجاز الحبر الاعظم للرهبانية اليسوعية انشاء مدرسة ومطبعة في رومة للعربية والعبرانية . ثم انشئت المدرسة المارونية، فاغنى تلاميذها الجماعـة مكتبة الفاتيكان بالمصنفات العربية .

وترسم ملوك فرنسة احبار رومة في العناية بتدريس العربية، فان فرنسيس الاول استقدم اغوسطينوس جوستنياني اسقف نابيو من اعمال كورسكة، وعهد اليه بتعليم العربية والعبرانية في رمس سنة ١٥١٩، واحدث فيها المطابع العربيـة . ثم عم الاستشراق سائر اوربة، واكب الغربيون على العربية يجنون من ثمارها اليانعة، فكان لهم منها نعم الزاد في إبان نهضتهم .

وما اكتهل القرن السابع عشر حتى خرج الاستشراق من طور الاستفـادة الى طور العلم بالشيء، ولكنه لم يخلص من العاطفة الدينيـة وانما اضاف اليها المآرب السياسية . واقدم مستشرقي هذا العهد : ادورد بوكوك[4] (Pocock) الانكليزي،

قيل انه اذ باشهر علماء عصره من مسلمين ونصارى ويهود، واثرلهم في قصر جميل بطليطلة فاقاموا اربع سنوات يبحثون في المسائل الفلكية . ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٣ / ٦٢٤ هـ .) ومات سنة ١٢٥٢ م (٦٥٠ هـ .) وتوفي سنة ١٢٨٤م (٦٨٣هـ .) .

(١) مدة بابويته من سنة ١٢٨٥ ـ ١٢٨٧ م (٦٨٤ ـ ٦٨٦ هـ) . (٢) مدة بابويته من سنة ١٣١٦ـ ١٣٣٤ م (٧١٦ ـ ٧٣٥ هـ) . (٣) مدة بابويته من سنة ١٥٠٣ ـ ١٥١٣ م (٩٠٩ ـ ٩١٩ هـ) . (٤) رحل الى الشرق وسكن حلب ثم علم في اكسفورد . من اثاره نشر مختصر الدول لابن العبري . ولد سنة ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ .) وتوفي سنة ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ .) .

ثم دربلو[1] (d'Herbelot) الفرنسي . ثم جان جاك ريسكي[2] (Reiske) الالماني.

ونهض الاستشراق في القرن التاسع عشر نهضة عظيمة، وتكاثر المستشرقون، وانشئت في قواعد اوربة المدارس، والجمعيات، والمجلات الآسيوية تعنى جميعها بعلوم الشرق، وتدعم سياسة الاستعمار والتوسع التجاري . وكان الفرنسيون اسبق الناس اليها فانهم انشأوا في باريس مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٧٩٥ م (١٢١٠ هـ) . واليها يرجع الفضل في اخراج طائفة جليلة من علماء المشرقيات على اختلاف اجناسهم . وعلى مثالها انشأت الدول الاوربية المدارس الشرقية في حواضرها . وانشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) واصدروا سنة ١٨٢٢م (١٢٣٨ هـ) مجلة لها تنشر اعمالها . واقتفى الانكليز اثرهم، فنظموا الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٨٢٣م (١٢٣٩ هـ) ثم انشأوا مجلة باسمها . وكذلك صنع الالمانيون سنة ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) .

وفضل المستشرقين في النهضة قائم على ما يطبعون وينشرون من المخطوطات القديمة، وما يصححون منها بمقابلة نسخ الاصول بعضها ببعض، وما يضعون لها من الفهارس الشاملة، والحواشي والمقدمات المفيدة . وهم في التحقيقات التاريخية، سادة الحلبة لا يضطلع بهذا العبء احد مثلهم . ولطالما كابدوا الاسفار الشاقة والنفقات الباهظة ليظفروا بنسخ مخطوطة نادرة، ولا حافز لهم الا الشغف الخالص بالتحقيق العلمي .

ومن محامدهم عقد المؤتمرات الشرقية في مدائن اوربة، يأتون اليها على شحط الديار، واختلاف الامصار، وربما دعوا اليها علماء العرب . واقدم هذه المؤتمرات عقد في باريس سنة ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) ثم تعاقبت المؤتمرات بعده في شتى الحواضر والعواصم .

---

(١) عاش في اواخر القرن السابع عشر، وله في اللغة العربية معجم في تاريخ الشرق وآدابه اشبه شيء بدائرة المعارف . (٢) نشر طائفة جليلة من كتب العرب، ونقلها الى اللاتينية، وحشّاها، كمقامات الحريري، وتاريخ ابي الفداء، ومعلقة طرفة . ولد سنة ١٧١٦م (١١٢٩ هـ) وتوفي سنة ١٧٧٤م (١١٨٨ هـ) .

وللمستشرقين ابحاث ادبية في الشعر والشعراء، والكتابة والكتاب، ولكنها غير دقيقة في الجملة، لعجمتهم، وضعف الروح العربي فيهم، وقلة خبرتهم بمذاهب الكلام عند العرب . وليس لهم براعة في الانشاء ولا انقـاد لهم سحر البيان فيكون لما كتبوه في العربية منزلة ادبية مذكورة . غير انهم اعتمدوا في الاغلب على لغاتهم، فافادوا من حيث تأتت لهم الافادة .

ميزة العصر

الاحوال السياسية . الفتن في لبنان . عهد المتصرفين . مهاجرة اللبنانيين . عهد الانتداب الفرنسي . حالة مصر والبلاد العربية . امتزاج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية . المدارس . الطباعة . الصحافة . الجمعيات العلمية . الاحزاب السياسية . النقابات . المكاتب . النهضة النسائية . النهضة القومية . تفشي الخلاعة .

يصطبغ هذا العصر بالوان شتى من الحوادث والسياسيات والاخلاق والعادات، كما يصطبغ بالوان شتى من العلوم والفنون والحضارة والعمران . فقد مرت احوال كانت فيها البلاد تضطرب بين الفتن والمذابح والثورات والحروب . ومرت احوال كانت فيها البلاد راتعة في رغد من العيش، وراحة وطمأنينة وامن . فعهد الامير بشير كان غاصًا بالقلاقل والفتن والحروب . ثم جاء بعد الشهابيين عهد غاص فيه لبنان بالدم المراق في المجازر الطائفية، يؤرث نارها عمال الاتراك لاضعاف الشعب العربي وتفريقه، وتستغلها الدول الاوربية فتنفرد كل دولة منها بطائفة تبني عليها نفوذها وسياستها .

ثم كان عهد المتصرفين فخفت به القلاقل، وسادت الطمأنينة لبنان أن تكافلت على حمايته وتعهد طوائفه دول سبع . ولكن ضيق العيش في بقعته الجلمودية حمل ابناءه على الارتحال عنه، فانحدر منهم فريق الى بيروت، وهاجر فريق الى مصر، وآخر الى اوربة . ثم ولّت جماعتهم وجهها امير كة، فاحدثوا في كل بلد حلوه حركة علمية ادبية، بدت آثارها في صحفهم ومدارسهم وجمعياتهم ومصنفاتهم .

ثم كان الانتداب الفرنسي، واصبحت بيروت عاصمة لبنان، فهبطها اللبنانيون قضهم وقضيضهم، واستأثرت على الاخص بجماعة المثقفين منهم، فجعلوها عكاظ القرن العشرين، ولم يخل لبنان في عهد الانتداب من فتن وقلاقل، وضيق اقتصادي .

ولم يكن حظ سورية في زمن العثمانيين احسن من حظ لبنان، فقد لقيت شيئاً

عسيراً من استبداد الولاة، واضطهادهم للاحرار، ولم يرفه عنها عهد الانتداب، وما استقامت لها سياسة فيه، ولا سلمت من الثورات والفتن .

وكذلك مصر لم يهدأ لها هادئ من حرب المماليك والفرنسيين، الى حروب محمد علي وابنه ابراهيم، الى الثورة العرابية، الى الاحتلال الانكليزي، وما حدث في ظله من فتن حتى نالت مصر دستورها سنة ١٩٢٢ م (١٣٤١ هـ .) .

والبلاد العربية على الاجمال تداولتها الاحداث والغير، فكانت تضطرب بين الشدة واللين، والضيق والرخاء . ومع هذا، فالنهضة كانت تسير سيراً حثيثاً في طريق الكمال، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع عشر حيث توافرت لها الاسباب والعوامل، فمن امتزاج قوي بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، الى مدارس راقية وطنية[1]

---

(١) المدارس الوطنية قديمة في لبنان انشأها الرهبان اللبنانيون وكثرت منذ القرن الثامن عشر، ولكنها لم تكن منظمة، اشهرها يومئذ عين ورقة، وكانت ديراً فاحيلت مدرسة سنة ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ .)، ولم تنتظم شؤونها وينهض عليها الا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . وفتحت في القرن التاسع عشر مدارس جديدة كبار عبدا كفرقرا انشأها الرهبان الموارنة بين كسروان والفتوح سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ .) والبلمند انشأها الارشمندريت اثناسيوس قصير قرب طرابلس لاحداث الطائفة الارثوذكسية . واول مدرسة بينة الرقي المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، انشأها في بيروت سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ .) ثم المدرسة البطريركية للروم الملكيين، ومدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ .) ثم المدرسة الوطنية الاسرائيلية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) فمدرسة الحكمة المارونية سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ .) وتعددت المدارس الوطنية في القرن العشرين ومنها مدارس الاناث . ونظمت الحكومة اللبنانية معارفها بعد الحرب العامة، وفتحت المدارس في المدن والقرى ومنها دار المعلمين، ودار المعلمات في بيروت . ولم تقتصر المدارس على لبنان وحده بل كان لسورية منها حظ حسن، وتاج مدارسها الجامعة السورية في دمشق انشئت سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ .) وفيها المجمع العلمي العربي، وكليات الطب والحقوق والاداب . وكذلك مدارس العراق اخذت تنهض منذ عهد الملك فيصل . اما مصر فقد اتينا على ذكر مدارسها الوطنية في زمن محمد علي وحفيده اسماعيل، وارقى المدارس التي انشأها اسماعيل دار العلوم، وفيها كان للعربية شأن كبير . وفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) انشئت الجامعة المصرية وهي من ارقى الجامعات، وللاداب العربية فيها منزلة سامية . وكانت مدرسة الطب في مصر تعتمد على اللغة العربية، فجعل التعليم فيها بالانكليزية منذ سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ .) وللازهر يد على النهضة فان طلابه هم الذين كانوا يرسلون في البعثات العلمية الى اوربة .

واجنبية[١] . الى طباعة[٢] انتشرت وعمت وتقدم فنها، ولا تزال تطرد السير بنجاح،

(١) المدارس الاجنبية ظهر رقيها ببنان في مدرسة عينطورة سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ .) عندما انتقلت من يد الآباء اليسوعيين الى يد الآباء الغازاريين، وصارت تعلم الاداب العربية . ثم بدأت تظهر في بيروت واجمل مدارس المرسلين الاميركيين، وتزاحمها في الوقت نفسه مدارس الرهبان اليسوعيين ، وتم عملهم العظيم بانشاء كليتين راقيتين هما مفخرة بيروت في العالم المتمدن . وتسميان اليوم جامعتين . فالكلية الاميركية انشئت سنة ١٨٦٦م (١٢٨٣ هـ .) وبدأت تمنح تلاميذها الاجازات العلمية سنة ١٨٧٠ م (١٢٨٧ هـ .) ثم صارت في طريق الكمال، وانقسمت الى فروع منها العلمي والطبي والادبي والتجاري والاستعدادي، وفيها المرصد الفلكي . وانشئت الكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) وفروعها الهندسة والطب والحقوق والفلسفة وعلم الكلام، والاداب الشرقية . وفي اواخر القرن التاسع عشر انتشرت المدارس الاجنبية في بيروت ولبنان للصبيان والبنات ولاسيما مدارس اخوة المدارس المسيحية، واخوة مريم، والراهبات . وكذلك كان انتشارها في سورية، واقدمها مدرسة الرهبانية الفرنسيسية التي جاءت حلب في اواخر القرن السادس عشر، ولم تلبث ان فتحت مدرسة بلغت من الرقي ان صارت تعلم عدة لغات بينها العربية، وطرقاً صالحاً من العلوم والفنون . وانتشرت في مصر المدارس الاجنبية من عهد اسماعيل، واكثرها للفرنسيين ثم للانكليز . (٢) اقدم مطبعة ظهرت في لبنان مطبعة قزحيا انشأها الرهبان الموارنة سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ .) وكانت سريانية . واول مطبعة عربية في لبنان مطبعة مار يوحنا الصابغ في الشوير للروم الملكيين انشئت سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ .) ثم مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس انشئت في بيروت سنة ١٧٥٣ م (١١٦٧ هـ .) وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة واكثرها دينية . حتى كانت سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ .) فنهضت المطابع العربية في بيروت بظهور المطبعة الاميركية ثم المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨م (١٢٦٥ هـ .) والمطبعة اللبنانية انشأها داود باشا متصرف لبنان سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ .) وكانت بدير القمر . ومطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ (١٢٨٤ هـ .) للمعلم بطرس البستاني وخليل سركيس . والمطبعة الادبية سنة ١٨٧٤م (١٢٩١ هـ .) لخليل سركيس . واقدم مطبعة عربية في الشرق انشئت بحلب سنة ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ .) انشأها البطريرك أثناسيوس الرابع، وهو بطريرك من اسرة الدباس تقلب مرارًا بين الارثوذكسية والكاثوليكية الملكية (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] ص ٣٥٧، حاشية ٣) . وقد اتينا على تاريخ الطباعة في مصر، وكان انتشارها منذ عهد اسماعيل بانتشار الصحف . واول مطبعة اهلية المطبعة القبطية انشأها الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الاقباط سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ .) ثم مطبعة وادي النيل سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ .) وزاد انتشار المطابع في القرن العشرين ولاسيما بعد الحرب الكبرى، فكان منه فيض في بيروت والقاهرة . وانتشر في سورية والعراق وفلسطين .

وخصوصاً في القاهرة وبيروت . الى صحافة نمت نمواً سريعاً بفضل المتوفرين على انشائها . الى جمعيات علمية وخيرية[1]، واحزاب سياسية، ونقابات . الى مكاتب في حواضر الشرق والغرب حافلة بطوائف الكتب والمخطوطات العربية . الى نهضة نسائية محمودة اخرجت فتيات حسنت ثقافتهن، فكان منهن صحافيات ومؤلفات ومعلمات ومحاميات وقوابل وطبيبات . وكان مسيحيو لبنان وسورية، ولاسيما الموارنة، اسبق الناس الى إضاءة مشعل النهضة، لرقي مدارسهم وتقدم عهدهم، ثم لسهولة امتزاجهم بالغربيين . فساروا بها شوطاً بعيداً منفردين، حتى تنبه المسلمون في اواخر القرن التاسع عشر . وكان المصريون اسرعهم الى اطراح الغفلة لغرة دواعي النهضة عندهم، وخصوصاً في زمن اسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فانشأوا المدارس[2]، واقبلوا بأولادهم الى معاهد النصارى، يثقفونهم ثقافة حديثة راقية . وصدفوا عن المدارس الاميرية[3] وقد رأوا انها لا تنشئ الا رجالاً مستترکين في بيانهم، رجال سيف وادارة، لا رجال علم وثقافة .

---

(١) اول جمعية علمية في بيروت سعى لانشائها المرسلون الاميركيون، فظهرت سنة ١٨٤٧م (١٢٦٤ هـ .) وغايتها نشر العلوم وتنشيط الفنون، اعضاؤها منهم وطنيون كالمعلم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي، ومنهم اميركيون كالدكتور عالي سميث، والدكتور فنديك . واول مجمع علمي في مصر انشأه نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ .) وسبقت حكومة دمشق الى انشاء المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ .) وتلتها حكومة لبنان فانشأت المجمع العلمي اللبناني سنة ١٩٢٨ م (١٣٤٧ هـ .) وكان عمره قصيراً . واما حكومة مصر فلم تنشئ مجمعها اللغوي الا سنة ١٩٣٤ م (١٣٥٣ هـ .) .

(٢) انشأت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ .) وفتحت المدارس للصبيان والبنات، ونهضت بها نهضة حسنة في الثلث الاول من القرن العشرين . وانشأ الشيخ احمد عباس الازهري المدرسة العثمانية سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ .) وعرفت بعد الحرب الكونية بالكلية الاسلامية . وانشئت في دمشق جمعية المقاصد الخيرية سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ ١٢٩٦ هـ .) وسعت في تأسيس المدارس . وكذلك فتحت المدارس في حلب وسواها من المدن السورية . (٣) فتحت الحكومة العثمانية المكتب الاعدادي للمسلمين في بيروت سنة ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ .) ثم انشأت المدرسة الرشيدية العسكرية . واول مدرسة اميرية في حلب، المنصورية انشئت سنة ١٨٦١ م (١٢٧٨ هـ .) وفتح مدحت باشا في دمشق سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ .) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث، ودار صنائع .

ومن آثار النهضة في الامم العربية نزوعهم القوي الى الاستقلال، وطلب المجد المفقود، ونقمتهم على الظلم والاستعباد. فكانت لهم من اجل ذلك ثورات بالسيوف دامية، وثورات بالاقلام حاميـــة. فلقوا من الضغط والتنكيل شيئاً كثيراً، فنفروا ينشدون الحرية في اوربة واميركة. ونشروا صحفهم للدفاع عن حقوقهم، ودفع الظلم والظالمين، فأنفوا بالاغتراب انطلاقاً من القيود الثقيلة التي كُبلت بها حرية التفكير. وكانت مصر بعد الاحتلال الانكليزي ارحب سماء للانعتاق الفكري، فقصد اليها جماعات الكتاب والادباء من لبنانيين وسوريين وعراقيين، فوجدوا فيها مجالاً واسعاً لآرائهم وانتقاداتهم. فحملوا على اسواء الحكم الحميدي[1] ونادوا باصلاحه، وشدوا بابم الدستور، حتى أعطوه سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) فنعشت حرية القول والعمل مدة، ثم خاصمها الاتحاديون، واجهز عليها جمال السفاح في الحرب العامة، فلم ينبض لها عرق الا بعد ان تقلص ظل الترك عن البلاد العربية، وخيم ظل الانتداب الاوربي. وهي عند الفرنجة على علّاتهم، اقرب منالاً منها عند بني عثمان.

على انه، وان تكن الحرية السياسية لم تعط بعد الحرب الا بمقدار، لقد اعطيت الحرية الخلقية جزافاً، فشاعت الخلاعة، واصبح الجهار بها ضرباً من المدنية الحديثة. وساعدها على الانتشار دور السينما، والصحف والقصص المجونية المباحة.

فهذا العصر، كما تبين، من اعظم العصور في قلاقلـــه وحروبه وانقلاباته. في حضارته وعلومه وفنونه. هو عصر الاستبداد المطلق، والحرية العرجاء؛ عصر يصطبغ بلونين مختلفين. تركي خشن، واوربي ناعم، عـــلى ما في هذين اللونين من مساوئ ومحاسن.

---

(١) الحكم الحميدي : نسبة الى السلطان عبـد الحميد الثاني استخلف سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ .) وخلع سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ .) وتوفي سنة ١٩١٨ م (١٣٣٧ هـ .).

الشعراء المحدثون

عصر الانبعاث

ميزة الشعر

ضعفه واسفافه اول النهضة . ارتفاع لغته مع التقليد . الشعر المطبوع والشعر المصنوع . الشيخ ناصيف اليازجي . محمود سامي البارودي . التجديد . مواطنه . الشعراء المخضرمون . جديدهم وقديمهم . خليل مطران . شوقي . المجددون بعد الحرب الكبرى . الخلاف بينهم وبين المحافظين . محاسنهم ومساوئهم .

بدأ الشعر يتطور بتطور حضارة العصر ، ويتقدم بتقدم العلوم والفنون . وكان في صدر القرن التاسع عشر ضعيف اللغة ، بيّن الاسفاف ، لا يختلف بميزته عن شعر عهد الانحطاط لاتصاله به . ثم لان بواعث النهضة لم تكن توافرت بعد ، ولا ظهرت لها نتائج . واشعر الناس في هذه الحقبة نقولا الترك[1] وبطرس

---

(١) ولد نقولا الترك في دير القمر سنة ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ) من اسرة تعرف بالترك . واتصل بالامير بشير الشهابي الكبير ، وتوفي سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) وله ديوان غير مطبوع . ومن شعره قوله من موشح يصف به طرابلس واهلها :

بأبي عهدُ التهاني والصفا ، زمنٌ مرَّ بطرابُلُسِ
يا هنا عيش رغيد سلفا ، لي بذاكَ المعلَمِ المؤتَنَسِ (كذا)

* * *

حبّذا الفيحاء أهنا كلّ نادْ ، والحمى المعمورُ ، والركنُ الحصينْ !
كتَبَ السعدُ عليها يا عِبادْ : أدخلوها بسلام آمنينْ

كرامة[١] في لبنان، والسيد علي الدرويش[٢] في مصر .

وما انتصف القرن الفائت حتى اخذت بروق النهضة تلتمع، فارتفعت لغة الشعر، وانجلت ديباجته، واستحكم نظمه، وتوثّق بنيانه . إلّا انه لم يكن ذا حظ من الابتكار والتجدد، لان اصحابه تلمذوا للشعراء المتقدمين، وتثقفوا بلغتهم واساليبهم واغراضهم، فرأوا الخير في محاكاتهم، والتشبه بهم، فاحتذوا على مثالهم في الاستهلال

بلدةٌ طيّبةٌ ، خيرُ البلادْ ، والمُقامُ المُشتهى للناظرينْ
اهلُها قومٌ لطافٌ ظُرَفا ، نِعمَ أمجادٌ ، كرامُ الأنفسِ (كذا)
ما بهمْ عيبٌ سِوى حُسنِ الوفا ، والخُلوصِ المنتفي عن دَنَسِ

(١) ولد بطرس كرامة في حمص سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ .) وجاء لبنان واتصل بالامير بشير . وكانت وفاته سنة ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ .) وله شعر كثير طبع بعضه في ديوان كبير . ومنه قوله يصف ينبوع الصفا وتجربة مائه الى بيت الدين على عهد الامير بشير :

صاحِ قد وافى الصَفا يروي الظَما ، بشرابٍ كَوثريٍّ ألمَسِ (كذا)
وأفاضَ الشُهدَ في روض الحِمى ، لجلا الغمّ ، وبرء الأنفُسِ

* * *

حبّذا الغوّارُ منه حينَ راقْ ، فأرانا ماؤهُ ذَوبَ اللُجَينْ
نزّهَ القلبَ عنِ الهمّ ، وراقْ ، بسنا صافي صفاهُ ، كلَّ عينْ
نثرَ الدُرَّ بفيضٍ واندفاقْ ، وسقى الواردَ أهنا الأطيبَين
قد جرى عذباً ، فأغنى النُدَما ، بزُلالٍ ، عن رحيقِ الأكؤسِ
وعلى الاغصانِ أبقى النِعَما ، فزهَت مِثلَ ندامى العُرُسِ

(٢) نشأ السيد علي الدرويش في القاهرة، واتصل بالامير عباس الاول صاحب مصر . وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ .) وله ديوان جمعه احد تلاميذه، وسماه الإشعار بحميد الأشعار، مطبوع على الحجر . ومن شعره قوله يصف قصرًا :

وقصرٍ كالسماء بهِ نجومٌ ، مطالِعُها السَعادةُ ، والبُدورُ
على أقطارهِ تبكي عُيونٌ ، إذا ابتسمَتْ لوارده زُهورُ (كذا)
فليسَ لوافدٍ وافاهُ ، نحرٌ ، وقد نفدَتْ لمدحتهِ البحورُ
وحسبُكَ روضهُ في كلِّ مجدٍ ، وفضلٌ بالبَنانِ لهُ يُشيرُ
تقاصَر عن سناهُ ذو ثناءٍ ، وحُسنُ القصرِ ما فيهِ قُصورُ

بالغزل ثم التخلص الى المدح . ووصفوا مثلهم الطلول والابل، وذكروا اماكن الاعراب في البادية . وشاركوهم في استعاراتهم وتشابيههم، وعارضوهم في منظوماتهم متوكئين على معانيهم والفاظهم . فجاء شعرهم مصطبغاً بالوان العصور الخالية، ليس له من صبغة عصره الا لون ناصل .

وفي الادب القديم صورتان متباينتان : صورة الشعر المطبوع، وصورة الشعر المصنوع . فاضطرب الشعراء بين هاتين الصورتين، وتعلقوا باهدابهما من الناحيتين . فتارة يرسلون الشعر على سجيته، وتارة يوشون لفظه ويزينون . غير انهم كانوا اميل الى الصناعة[1] منهم الى الطبع لسهولة الأخذ بها على من فاته توليد المعاني وابتكارها، ثم لقرب عهدهم باصحابها في عصر الانحطاط، وقد كان فهم الحريري يومئذ مثارة وهدى، واستاذاً اكبر . وزعيم هذه الطبقة من شعراء النهضة الشيخ ناصيف اليازجي[2]، وشعره خير مثال لاتباعث اللغة، وللتقليد الحائر بين المطبوع والمصنوع .

على ان هذا الشعر الحائر لم يلبث ان هداه الطريق السوي شاعر فارس نبغ في الربع الاخير من القرن الماضي، الا وهو محمود سامي البارودي[3] . فانه رغب عن الصناعة

---

(١) من جملة صناعتهم التأريخ الشعري، فقد كان له حظ كبير عندهم .

(٢) الشيخ ناصيف اليازجي ولد في كفرشيما من قرى لبنان سنة ١٨٠٠م (١٢١٥هـ) واتصل بالامير بشير الشهابي وكتب له، ونزمه حتى نفي الامير سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) فانحدر ناصيف الى بيروت، وفيها ظهرت مصنفاته العديدة، في الشعر واللغة، فكانت هداية للطلاب في مدارس النصارى . وكانت وفاته سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ومن شعره قوله في مدح اسعد باشا القائد العثماني :

بناءُ العُلى بينَ القنا والبوارقِ ، على صهواتِ الخيلِ تحتَ البَيارقِ
ولله سرٌ في العبادِ ، وإنما قليلٌ محلُّ السرِّ بينَ الخلائقِ
يقلّبُ هذا الدهرُ أحوالنا، كما تقلّبَ فينا لاحقاً إثرَ سابقِ

ومنها :

أقامَ السرايا يُنفرُ الموجُ خيلَها، بكلِّ لواءٍ، فوقَ لبنانَ، خافقِ
بحارٌ على وجهِ البحارِ زواخرٌ ، جبالٌ على مَتنِ الجبالِ الشواهقِ

(٣) هو محمود سامي باشا البارودي ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) . وكان قائداً في الحملة المصرية التي حاربت مع الدولة العثمانية في ثورة البلقان واقريطش فأبلى

اللفظية، فجرى شعره مع الطبع؛ غير ان حظه من الابتكار لم يكن احسن من حظ اصحابه . فقد ترسم في اغراضه ومعانيه، وفحولة لفظه، ابا فراس، والمتنبي، والشريف الرضي، والطُغرائي، فجاء صورة عنهم، بيد انها صورة بينة الشخصية، وان تكن مستعارة، واضحة التقليد .

فشعراء القرن الماضي كانوا على الاجمال محافظين كل الحفاظ على القديم، لا يعنيهم اختراع او تجديد، وانما همهم في تحدي اسلافهم، والاستمداد من آثارهم . الا الذين عرفوا الثقافة الاجنبية، وتأدبوا بادب الغرب فقد كان لهم بعض الحظ من الجديد، وهم قلة لا يكاد يذكر منهم الا نجيب الحداد[1] .

احسن البلاء . وما زال يتقلب في المناصب الرفيعة حتى ولي نظارة الجهاد، ثم رئاسة مجلس النظار . وقبض عليه بعد الثورة العرابية في جملة زعماء الثوار ونفي معهم الى جزيرة سرنديب « سيلان » وفيها نظم روائع شعره . ولبث في المنفى سبع عشرة سنة حتى عفي عنه، وكان قد كف بصره فعاد الى مصر واقام بها ومات سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ .) وله ديوان شعر في جزأين طبع بمصر . ومن شعره في منفاه قوله :

ولمّا وقفنا للوداع وأُسبلتْ ... مدامعُنا، فوقَ الترائب، كالمُزنِ
أَهبتُ بصبري أن يعودَ، فبزّني، ... وناديتُ حلمي أن يثوبَ، فلم يُغنِ
وما هيَ إلّا خطرةٌ ثمّ أقلعَتْ، ... بنا عن شطوطِ الحيّ، أجنحةُ السُفنِ
فكم مُهجةٍ من زفرةِ الوَجدِ في لظىً، ... وكم مقلةٍ من غَزرةِ الدمعِ في دَجنِ
وما كنتُ جرّبتُ النوى قبلَ هذهِ، ... فلمّا دهتني، كدتُ أقضي من الحُزنِ
ولكنّني راجعتُ حلمي، وردّني ... إلى الحزمِ رأيٌ لا يحومُ على أَفنِ
ولولا بُنيّاتٌ، وشيبُ عواطلٌ، ... لَما قرّعت نَفسي، على فائتٍ، سنّي

(١) نجيب الحدّاد هو سبط الشيخ ناصيف اليازجي، ولد في بيروت سنة ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ .) وقدم مصر وهو في حدود العشرين، واشتغل في الصحافة والقصص التمثيلية . وكان شاعرًا مجيدًا وله في الشعر اغراض جديدة كوصف القمار ووصف حريق سوق الشفقة في باريس وغير ذلك . توفي مصدورًا في مصر سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ .) قال في القمار :

قد أختصَروا التجارةَ من قريبٍ، ... فعُدمٌ في الدقيقةِ او يسارُ
كأنّ وجوهَهُمْ ندمًا وحُزنًا، ... كساها لونَ صُفرتِهِ، النُضارُ
فبينا تُبصِرُ الوجَناتِ وَرْدًا، ... إذا هيَ في خسارتِهِمْ بَهارُ

وكان الجديد أوضح في شعر الذين تحضروا وادركوا حضارة القرن العشرين، واتصلوا بآداب الغربيين ولاسيما اللبنانيون فانهم على الغالب اقرب من غيرهم الى التجديد والتغرب . ويتلوهم المصريون ثم البغداديون، فالسوريون، فاهل النجف . وتختلف درجات التجديد في قطر واحد، او في قطر وآخر، باختلاف الثقافة والبيئة . فالمهاجرون من لبنان الى اميركة اعلق بالجديد من المتخلفين . والمجددون من النصارى اعرق من المجددين المسلمين . وشعراء العواصم التي تعددت فيها المدارس الاجنبية، وشملتها الحضارة الغربية ، ابعد عن القديم من شعراء المدن المستمسكة بتقاليدها وعلومها المأثورة . ومن هنا كان الجديد اوضح في لبنان ثم في مصر ثم في بغداد .

هذا وان الشعراء المخضرمين على الاطلاق، ما تأتى لهم ان يتخلصوا من قديمهم وان اشتدت رغبة بعضهم في محاكاة الغربيين . فخليل مطران[1] شيخ المجددين في

عَصائبُ لا يودُّ المرءُ فيها ، أخاهُ ، ولا يُراعي الجارَ جارُ
يلاحظُ بعضُهم بعضاً بعينٍ ، يكادُ يُضيءُ أسودَها الشَّرارُ
فكم غضبوا على الأيامِ ظُلماً ، وكم حنقوا على الدُّنيا وثاروا
وكم تركوا النساءَ تَبيتُ تشكو ، وتسهدُها الأصيبيةُ الصغارُ
تبيتُ على الطَّوى ترجو وتخشى ، يُؤرِّقُها السُّهادُ ، والانتظارُ
فبئستْ عيشةُ الزَّوجاتِ : حُزنٌ ، وتسهيدٌ ، وهَجرٌ ، وافتقارُ !
وبئستْ خلَّةُ الفتيانِ : همٌّ ، وأتعابٌ ، وخسرانٌ ، وعارُ !

(١) شاعر لبناني لا يزال حيّاً الى زماننا ، هبط مصر في اواخر القرن الماضي واقام بها، ويعد في مقدمة شعراء الطبقة الاولى، وزعيم المجددين، الا انه افسد شعره بما ادخل عليه من اغراض مبتذلة كان يتكلف نظمها، ارضاء للناس . طبع الجزء الاول من ديوانه سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٤ هـ .) ومن روائعه النيرونية، والاسد الباكي، والتمثال، والمساء . قال يصف غروب الشمس في قصيدة المساء :

والشمسُ في شفقٍ يسيلُ نُضارُهُ ، فوقَ العَقيقِ ، على ذُرَى سوداءِ
مرَّتْ خلالَ غمامتينِ تحدُّرا ، وتقطَّرتْ كالدَّمعةِ الحمراءِ
فكأنَّ آخرَ دمعةٍ للكونِ قد مُزجتْ بآخرِ أدمُعي لرثائي
وكأنَّني آنستُ يومي زائلاً ، فرأيتُ في المرآةِ كيفَ مسائي

عصرنا، ران القديم على ناحيـــة جليلة من شعره، ولم ينظمه كلفاً به، وانما مراعاة للمحافظين، او تودداً الى الناس في افراحهم واحزانهم . وكذلك احمد شوقي على سمو قدره في دولة الشعر، كان الجديد عنده اقل حظاً من القديم. والمحافظون الذين ينكرون هذا الجديد لا يزال عددهم وفراً، مع انبساط سلطان الاعاجم، وانتشار علومهم وفنونهم؛ واكثرهم يجهل الادب الاوربي، والانسان عدو لما يجهل . غير انه نشأ بعد الحرب الكبرى جيل من الشعراء تثقفوا ثقافة اجنبية، وتمكنوا من نظم الشعر في العربية، فحاولوا نبذ القديم واطراحه، وجعل الادب العربي صورة عن الادب الغربي في اغراضه ومعانيه. فوفقوا بعض التوفيق الّا ان افكارهم وصورهم جاءت في الجملة غريبة عن بيئة الشرق وعاداته، فما استاغتها جمهرة الناس، وتنكّرها المحافظون، فشنعوا عليها وازدروها . فقامت المجددة الغالية تطعن في المحافظين، وتمتهن ادبهم، وتسخر من جمودهم وتقليدهم. فكانت حرب سجال بين دعاة الحديث واصحاب القديم، لا يزال حرها يصطلى الى اليوم. وكلا الخصمين محق في بعض ما يدعيه، جائر في بعضه الآخر. فالمحافظون لم يظلموا هؤلاء المجددين لما رموهم بضعف الصياغة، والسعي في طلب الالفاظ، وغموض المعنى، وتحدي الشعراء الغربيين. فصياغة الجيل الذين نشأوا بعد الحرب العالمية اضعف على الإجمال من صياغة المخضرمين . وفيهم ولع جنوني بتصيد الالفاظ الموسيقية البرّاقة ليلوّنوا بها صورهم الغريبة، لا يستثنون من ذلك عنوان القصيدة؛ فعندهم دمعة القلب، والشاطئ المجهول، ووادي الدموع وما اشبه . وغموض المعنى في شعرهم ناتج عن إغرابهم في اختيار الالفاظ، وافراطهم في الاعتماد على صور من التشابيه والاستعارات الشاذة، يزجيها خيال طليق جامح لا يقترن بالذهن. واساليبهم الشعرية، وصورهم الخيالية، واغراضهم ومعانيهم، مصطبغة بالوان الادب الفرنجي كل الاصطباغ . فما يصعب على الناقد البصير ان يرد اكثر شعرهم الى اصول غربية معروفة الاصحاب . وربما غزوا التوراة، تشبهاً بشعراء الفرنجة، واغتنموا منها مادة لمنظومهم او اغاروا على الخرافات اليونانية، وتوقلوا الاولمب والبرناس واستنزلوا الآلهة والربّات. وبلغ من افتتانهم بالغربيين، واعتلاقهم اياهم، ان ترسموهم في مذاهب الشعر عندهم، فاتبعوا الفئة المتحررة (Les Romantiques)، والفئة المتجردة (Les Réalistes)، والفئة

الرمزية (Les Symbolistes) . وجاءت ثقافتهم الغربية امتن من ثقافتهم العربية، فاذا هم تحدثوا عن اديب عجمي افاضوا بوصفه وتحليل ادبه، وتصوير عصره في دقة وبراعة . واذا هم تحدثوا عن اديب عربي، اضطربوا في معرفته، وتبيان عصره، وبدا عليهم العجز والتقصير .

على ان المحافظين قد جاروا على الشعراء الجدد اذ عرّوهم من كل فضيلة، ونسبوهم الى الغثاثة في حين انهم يحسنون اشياء لا يحسنها هؤلاء . فهم اشد اتصالاً بعصرهم، واصدق تصويراً لحياتهم وللطبيعة . واعلق خاطراً بوحدة الموضوع، واقل احتفالاً بشعر المنابر .

وكذلك الشعراء الاحداث لم يظلموا المحافظين حين اتهموهم بالتقليد، وقالوا انهم اشبه شيء بالصدى يرجعون اقوال المتقدمين، ويعددون الموضوعات، ويغالون مثلهم، وينظمون على ابوابهم المعروفة . وليس لهم براعة الا في شعر اوحته حادثة تدعو الى مدح او رثاء او ما شاكل ذلك . وانهم كسالى جامدون لا قبل لهم بالمطالعة ليتزيدوا من العلوم والفنون، فتكتمل ثقافتهم . ولكنهم لم ينصفوهم في نكران محاسنهم، فلغتهم اشد احكاماً، واسلوبهم اصفى عروبة، وشعرهم افيض عاطفة، واوضح معنى، واقل ابهاماً، واحفظ لتراثنا الادبي . ومهما غلا اصحاب الحديث في مذهبهم، لا ينبغي لهم انكار قديمهم، فليس من ادب طريف تحت الشمس الا وله صلة بالتليد .

فشعر الانبعاث، كما يتبين، مر باطوار مختلفة حتى وصل الى حالة يتنازعه فيها تقليدان: عربي شائخ، وغربي محدث، وهو بين هذين الامرين يكاد يكون غريباً عن عصره وبيئته . وهيهات ان يرتجى له نهضة صحيحة الا اذا خلع اصحابه اثوابهم المستعارة، وبدوا على ملعب الحياة بأدب حقيق بهم، مطبوع بطابعهم . فيه صور جلية لنفوسهم، ومجتمعهم، وعاداتهم، واخلاقهم . ولولا نفثات بليغة يفيض بها صدور الشعراء المحسنين، لما كان للشعر الحديث شأن يذكر . واقل الشعراء تقليداً، واعربهم بياناً، واظهرهم شخصية، والصقهم بروح العصر، اقربهم الى الناس، واحبهم الى القلوب .

اغراضه ومعانيه

الابواب القديمة والجديدة . القصص والتمثيل .

ما آذن الشعر بالتطور على انوار الحضارة الغربية حتى اخذت الاغراض والمعاني الجديدة تتسرب فيه ولاء، وتمتزج بالقديمة امتزاجاً يقوى ويشتد مع تقدم العلوم والفنون . حتى اذا اكتمل شباب القرن العشرين، طغت الاغراض الحديثة على الاغراض المأثورة، وغلقت ابواب مطروقة، كان الخير في تغليقها كالمدح والهجاء. واهملت ابواب لم تبق من طلبات الشعراء كالفخر والحماسة والطرد. ولبثت ابواب مفتوحة المصاريع، مطردة الاتساع كالغزل، ووصف الخمر ومجالس اللهو . والطبيعة والعمران، والجيوش والمعارك، والرثاء، والشكوى والتاريخ، والسياسة والاجتماع. والدينيات، والكفريات، والشعر التعليمي . واستحدثت اغراض لم تكن معروفة من قبل كوصف المخترعات، والمستنبطات، والقصص والتمثيل .

المدح

رواج سوقه في القرن التاسع عشر. ضعفه بعد الحرب الكبرى .

كان للمدح سوق رائجة في القرن التاسع عشر، ثم اقبل القرن العشرون ولم تكسد لها بضاعة عند الشعراء المخضرمين . وميزة المدح في شعر الانبعاث لا تختلف عنها في الشعر التالد، فلها الغلو المقيت والزلفى والاستجداء. ولها الاوصاف والمعاني المعهودة. ولها التصدير بالغزل المتكلف، وحسن التخلص .

على ان الشعراء الذين ظهروا بعد الحرب الكبرى اعرضوا عن هذا الفن، واستنكروه، وكرهوه، وابوا ان يحسبوه من اغراض الشعر، فضعف وانحط شأنه. ولولا بقية صالحة من المحافظين وشبه المحافظين، لفني هذا النوع ولم يبق منه الا ما

يجري بين الادباء والاصحاب من الاخوانيات كالتهنئات والتقريظات. ومن شعراء المدح في القرن الماضي نقـولا الترك، وبطرس كرامة، والشيخ ناصيف اليازجي . واشتهر من المخضرمين احمد شوقي، وحافظ ابراهيم[1]، وخليل مطران، والشيخ عبدالله البستاني[2]، وشبلي الملاط[3]، ومعروف الرُّصافي[4]، وغيرهم .

الهجاء

طوي هذا الفن او كاد بسبب تبدل الاخلاق والعادات وقيام القوانين المدنية في وجه المعتدين على اعراض الناس. ولم يبق منه الا مداعبات لطيفة فيها تهكم وتصوير سخري، مما لا يتناول المحارم، واكثره يجري بين الادباء .

الحماسة والفخر

هذا فن اشرق في القرن الماضي عند محمود سامي البارودي الشاعر الفارس، ثم خبا نوره، وخمدت معه همم الشعراء، فما ينظم فيه الا ابيات متفرقة يذكر فيها الشاعر آباءه واخلاقه، وشاعريته .

الطرد

شاع هذا الفن في القرون الخالية يوم كان الشعراء يتلهون بالصيد، او يرافقون

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر مصري ولد سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) وتوفي سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) واحسن شعره في الاجتماعيات والوطنيات . (٢) الشيخ عبدالله البستاني ولد في الدُّبيّة من قرى لبنان سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٢ هـ) وتوفي في بيروت، وقبر في دير القمر سنة ١٩٣٠م (١٣٤٩ هـ) وهو لغوي من الطبقة الاولى، وله شعر اكثره في المدح والرثاء. وكانت لـه عناية بالتاريخ الشعري والقصص . (٣) شبلي الملاط شاعر لبناني لا يزال حيّاً الى عصرنا، اجاد المدح وله في الشعر القصصي قصائد حسان . (٤) معروف الرصافي شاعر عراقي ولد في بغداد سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢ هـ) ولا يزال حيّاً . وله شعر جيد في الوصف والقصص .

الملوك في قنصهم، فيصفون الطرد وادواته، والطرائد واجناسها . اما شعراء عصرنا فلم يحفلوا به، ولا عطفوا عليه، ولم يكن لهم من الملوك محرض على سلوكه فاهملوه واطرحوه، ولم يلبث ان دخل في عالم النسيان .

الغزل

الاوصاف المادية . وصف العواطف . الخلو من الفحش . الغزل المتكلف . الغزل العاطفي . اسماعيل صبري . بشارة الخوري .

ما برح المقام الرفيع لهذا النوع من الشعر، وما انفك الشعراء المعاصرون يقتصون اثر المتقدمين في اوصافهم المادية وتشابيههم واستعاراتهم . غير انهم جعلوا مكاناً لتحليل العواطف وتصوير نزوات النفس في سرورها والمها ، واستئناسها ووحشتها، وسكونها واضطرابها . مما لا تجد مثله في كثير من الغزل القديم . وغزلهم في الغالب خالٍ من الالفاظ الفاحشة ، وان تكن معانيه لا تخلو من الاستسلام الى الشهوة، والالحاح في طلب اللذة .

والغزلون في الشعراء كثر، فمنهم المتكلفون الذين يصطنعون الغزل واسطة لا غاية، او ارضاء للفن، لا تلبية للعاطفة . فاما الاولون فالتقليد والجفاف طافيان على نسيبهم لانهم يترسمون فيه اسلوب المتقدمين . واما الآخرون فلهم صور جميلة ملونة، فيها اتساق حسن، وفيها خيال لطيف، ولكنها جامدة لا تتحرك، كالاوثان المنحوتة، افرغت في قالب الجمال، واعوزتها الحركة والحياة .

ومنهم العاطفيون وهم قلة بالاضافة الى المتكلفين، واحسنهم من تأتى له ان يجمع العاطفة والفن، فكانت له صور بديعة الاشكال والالوان، عميقة الاثر، قوية الاحساس والشعور . واشهر شعراء هذه الطبقة اسماعيل صبري[1]، وبشارة الخوري[2] .

---

(١) هو اسماعيل صبري باشا شاعر مصري رقيق الشعور، ولكنه كان مقلاً، ولد سنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ .) وتوفي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ .) ومن غزله قوله :

الخمر ومجالس اللهو

لم يقم بعد ابي نواس شاعر يصف الخمرة الا كان مقلداً له، مقصراً عنه، وقد وصفها في عصر الانبعاث جماعة من الشعراء ووصفوا معها مجالس اللهو، ولكنهم لم يغنوا غناء شاعرها العباسي، بل لم يلحقوا غباره . ومن وصافيها احمد شوقي وحافظ ابراهيم وبشارة الخوري . إلا ان شوقي اجاد وصف المراقص العصرية في خمرياته .

الطبيعة والعمران

وجوه النظر الى الطبيعة . تشخيصها . الامتزاج بها .

للشعراء وجوه مختلفة في النظر الى الطبيعة ووصفها، فمنهم من يرنو اليها من ناحيتها الباسمة، فما يرى غير الرياض الأريضة، والازهار الفواحة، والاثمار اليانعة، والاطيار المغردة، والمياه المصطفقة، والكواكب المؤتلقة . ومنهم من يلحظها من ناحيتها العابسة، فما يستهويه غير لياليها المظلمة، ورياحها الخافقة، وزواعدها القاصفة، وامطارها الجارفة، واشجارها العارية، ومفاوزها المتقاذفة، ووحوشها الجائعة . ومنهم من يرود ناحيتيها، فيبتهج لبهجتها، ويكتئب لكآبتها . وهم في وصفها متباينو

أقصرْ فؤادي فا الذكرى بنافعة ، ولا بشافعة في ردّ ما كانا
سلا الفؤادُ الذي شاطرتهُ زمناً ، حَمْلَ الصبابةِ فاخفقْ وحدكَ الآنا

(٢) بشارة الخوري، ويعرف بالاخطل الصغير، شاعر لبناني نشأ في بيروت ولا يزال حيًا؛ وهو اشهر الشعراء الغزليين . ومن غزله :

كفانيَ يا قلبِ ما أحملُ ، أفي كلِّ يوم هوًى أولُ !
أيخلقُ منكَ جديدُ الهوى ، فؤاداً منَ السكرِ لا يعقلُ
لهُ عثرةُ الطفلِ حولَ السريرِ ، ودمعتُهُ البكرُ إذ يعولُ
أفي كلِّ وجه لنا مرتعٌ ، وفي كلِّ ثغرٍ لنا منهلُ
كفى نهماً لنْ يفرَّ الجمالُ ، وترحلُ أنتَ ، ولا يرحلُ
عذرتُكَ يا قلبِ مَنْ للهوى ؟ أنتركهُ بعدنا يذبلُ ؟

الفكرة والاسلوب، فقد يصفها احدهم وصفاً مادياً يحليه بشتى التشابيه والاستعارات، دون ان يتحد بها ويستجلي اسرارها . ويصفها غيره فيبعث فيها روحاً حية، وشعوراً متدفقاً، ويغوص على دخائل نفسها، يستشفها ويصورها حسبما تملي عليه عاطفته، ويوحي اليه خياله. او يمزج بها روحه وشعوره، ويخرج منها صوراً ملونة تبرز ما في نفسه من بهجة او كآبة، من حزن او سرور . ويصفها آخر فيستخرج منها صوراً شاملة للجماعة الانسانية، وما يجري في مقاييس الحياة، من خير وشر، وعدل وظلم، واتفاقات وتناقضات . ويصطبغ هذا الشعر على الغالب بالكآبة والتشاؤم والثورة على النظم والشرائع .

وقد تناول شعراء العصر اوصاف الطبيعة على اختلاف وجهاتها . فوصفوها وصفاً مادياً[١] وشخصوها وانطقوها[٢]، ومزجوا بها ارواحهم[٣]، واحتذوا على مثال الغربيين في النظر الشامل الى الكون، فعل جبران خليل جبران[٤] وايليا ابي ماضي[٥] .

وكذلك وصفوا مشاهد العمران، فنعتوا المدن والقصور، والكنائس والمساجد، والآثار والتماثيل . وفي شعر شوقي طائفة حسنة من هذا النوع .

---

(١) مثال ذلك وصف شوقي للبنان ودمشق . (٢) كوصف شوقي لرحلة . (٣) كقصيدة المساء لخليل مطران وقد روينا شيئاً منها . (٤) كاتب شاعر مفكر، ولد في بشرّاي من اعمال لبنان سنة ١٨٨٣ م (١٣٠١ هـ .) وهاجر الى الولايات المتحدة، ومكث فيها حتى توفي . وكانت وفاته في نيويورك سنة ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ .) ونقل جثمانه الى مسقط رأسه في لبنان . وامتاز بخياله الخصب وصوره الجميلة العميقة، ونثره الشعري الذي طبعه بطابعه، وسمي باسمه، ومصنفاته المبتكرة . ولكنه كتب اكثرها واحسنها باللغة الانكليزية . وله في الشعر كتاب المواكب وهو قصيدة طويلة من المسمَّط ينشد فيها الحرية في كهوف الغاب، ثائراً على ضعف الانسان وتقاليده وشرائعه . قال فيها :

ليسَ في الغاباتِ راعٍ ، لا ولا فيها القطيعْ
فالشتا يمشي ولكنْ لا يُجاريهِ الرَبيعْ
خُلقَ الناسُ عبيدًا للذي يأبى الخُضوعْ
فإذا ما هبَّ يومًا سائرًا ، سارَ الجَميعْ

***

أعطِني الناىَ وغنِّ ، فالغِنا يرعى العُقولْ
وأنينُ الناىِ أبقى ، من مجيدٍ وذَليلْ

(٥) ايليا ابوماضي شاعر لبناني هاجر الى اميركة ولا يبرح مقيماً فيها، وله ديوان تذكار

الجيوش والمعارك

ناصيف اليازجي . البارودي . شوقي .

حفل عصر الانبعاث بالحروب والثورات والفتن، فتأثر بها الشعر، وناله من وصف الجيوش والمعارك نصيب وفر. واشهر اصحاب هـذا الفن الشيخ ناصيف اليازجي، ومحمود سامي البارودي واحمد شوقي . وكانوا في اكثر اوصافهم مقلدين، يغلب عليهم خيال المتقدمين ومعانيهم، لايذكرون الا السيوف والرماح والدروع والمغافر، والخيل والغبار . وقلما ذكروا المدافع والقذائف والخنّاقات، والخنادق وسواها من ادوات الحرب الحديثة واساليبها .

الرثاء

الاقبال عليه . تصوير شخصية الميت . رثاء المدن والممالك . شوقي .

لا يزال للرثاء شأن عظيم عند الشعراء، ولكنه خرج بعد الحرب عن قصد التكسب والزلفى، وكاد يقتصر على كل اديب لامع او عالم عامل، او زعيم وطني. ومما يحمد في شعر المجددين ان اكثر رثائهم يصور شخصية الميت تصويراً دقيقاً فما يصلح الا له، وليس كالرثاء التقليدي يصح نقله الى كل ميت عند تساوي الدرجات والطبقات. وللمحدثين براعة تذكر في رثاء المدن والممالك، وشعر شوقي حافل بذلك .

الماضي، وديوان الجداول، وهو في مقدمة الشعراء المجددين، وشعره يصور الطبيعة والحياة الانسانية ابرع تصوير . قال :

قد يصيرُ الشَّوكُ إكليـ ـلاً لِمَلْكٍ او نبيّ
ويصيرُ الوردُ في عُرْـ ـوَةِ لِصٍّ أو بغيّ
أيَغارُ الشَّوكُ في الحَقْـ ـلِ منَ الزهرِ الجَنِيّ
أم تُرى يحسَبُهُ أحقرَ منهُ ؟

الشكوى

البارودي . تامر الملاط . سليمان البستاني . خليل مطران .

وهذا الباب من النوع الوجداني، يعبر به الشاعر عما في نفسه من ألم وحزن وغم وشقاء . وهو كثير في شعر المحدثين، فما تكاد ترى شاعراً الا شاكياً باكياً حتى اصبح النواح صفة قوية تتميز بها منظوماتهم . واحسن ما ورد لهم في هذا الباب ما خرج عن نفس صادقة الشعور بالالم، لا تتكلفه حبا للفن، او جرياً مع التيار الباكي . فمنه الشعر الذي نظمه البارودي في منفاه[١]، ووصف تامر الملاط نفسه[٢]، وسليمان البستاني داءه[٣]، وخليل مطران همومه وآلامه[٤] .

---

(١) اوردنا للبارودي شيئاً من شعر منفاه في مكان آخر مر بنا . (٢) تامر الملاط اخو شبلي الملاط الشاعر، ولد في بعبدا من قضاء لبنان، سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ .) وتولى عدة مناصب في القضاء، حتى رأس محكمة كسروان . فحدث ان سُرق سجل منها، وأُثبت فيه صك مزور، فاتهم تامر بالجرم وحبس ولم تظهر براءته الا بعد ان خولط في عقله . وكانت وفاته سنة ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ .) . وله شعر قوي الاحكام، كثير التعريب يجنح الى اسلوب البادية حيناً، والى اسلوب ابي تمام آخر . ومنه ما قاله في جنونه وارونه قصيدة يصف بها نفسه، قال فيها وكلها من هذا الوصف البديع :

مَقودُ غيرَ مُختار، كأني آلةٌ صمّا
إذا ما حشرةٌ أزّتْ، عرَتني هزةٌ رُغما
وإن صرَّ الذبابُ الغثُّ — صرّتْ أضلُعي مما
ويأتيني البُكا عفوًا ويعصيني البُكا لمّا
ولا أستطيعُ جذْبَ النفسِ عن ضحكٍ بيَ التمّا

(٣) قال سليمان البستاني من قصيدة يصف بها داءه :

تَلوحُ لكَ الوُجوهُ البيضُ سودًا، ووجهُ الأفقِ يَبدو مُكفهرًّا
يقولُ لكَ الأسى صبرًا، وأنّى على هذا العذابِ تُطيق صبرًا
إذا عالَجتَ عُضوًا هِجتَ عُضوًا، وإن داويتَ رأسًا هِضتَ صدرًا
كأنَّ بكلِّ عِرقٍ منكَ داءً، تُسكّنُ علّةً، فتثورُ أُخرى

(٤) قال خليل مطران من قصيدة الاسد الباكي :

ذَروني أحسو الخَمرَ غيرَ مُنفّرٍ، عنِ الوِردِ منها، نفرةَ الطائرِ الخاسي

التاريخ

الشعر القصصي . التعليمي . شوقي .

في الشعر المحدث طائفة حسنة من القصائد التاريخية، يجري بعضها مجرى الشعر القصصي الرائع كهمزية شوقي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي، وبائيته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية . وبعضها ينحط الى مستوى الشعر التعليمي لضعف الميزة الادبية فيه كشعر شوقي في دول العرب وعظماء الاسلام .

السياسة والاجتماع

الوطنيات والقوميات . النظر الى الحياة الاجتماعية ومشاكل الحياة . الشعر الانساني . التماس الاصلاح بالهدم .

وهذا النوع له حظ وافر في شعر المتقدمين، فقد كان للاحزاب السياسية شعراء ينافحون عن حقوقها وآرائها . وكان للمجتمع شعراء يأتون بالحكم والامثال للارشاد، وتهذيب الاخلاق؛ ويتألمون لآلام الناس فيرثون الممالك البائدة، ويبكون على المدن المنكوبة . الا ان المتأخرين وسّعوا نطاق هذا الباب، ونوعوا اغراضه، وافتنوا فيها، وخرجوا الى اشياء لم يعرفهـا الاوائل ؛ فنظموا في الوطنيات ، والقوميات . وتغنوا بالحرية والاستقلال، وثاروا عـلى الظلم والظالمين . وناصبوا الاستعباد والمستعبدين، وعطفوا على الهيأة الاجتماعية، وعرضوا لمشاكل الحياة فيهـا، فنظموا الشعر الانساني السامي . فاذا هم ينذرون لجراح الشعوب عـلى اختلاف اجناسها، ويبكون لمصارع الاخلاق، ويحثون على الفضائل، ويصورون عقبة الرذائل، ويحضون على تحرير المرأة، وتعليمها، وتربية الاطفال وتثقيفهم . ويدعون الى الحياة الرياضية، ويخصونها بالاناشيد، ويطرون المعاهـد العامة كالمستشفيات والملاجئ والمدارس، وما شاكل مما يتناول

فَرُبَّتَ كأسٍ عن شفاهي رددتُها ، وقد قتل الدمعُ السُّلافةَ في الكاسِ
أنا الألمُ الساجي، ليُبعدِ مَزافري، أنا الأملُ الداجي، ولم يَخبُ نبراسي،
أنا الأسدُ الباكي، انا جبلُ الأسى، انا الرمسُ يمشي دامياً فوقَ ارماسِ !

اصلاح المجتمع، وسياسة الامم . غير ان التشاؤم والسرَف سيطرا على جانب من هذا الشعر، فذرفت فيه دموع غزيرة، وتصاعدت منه زفرات حارة، وامتهنت التقاليد والعادات، وابيحت العقائد والشرائع، والتمس الاصلاح بالهدم والتعطيل .

الدينيات والكفريات

المتعبدون . مدح الانبياء . شوقي . الشك والانكار .

والدينيات احتلت مكاناً من الشعر في منظومات المتعبدين والمتزهدين من رجال الدين وغير رجال الدين . ومنها ما يدخل في باب الزهد والتوبة، ومنها ما يقتصر على قص اخبار الرسل والانبياء والقديسين، ومدحهم واستشفاعهم . ولشوقي في الدينيات شعر كثير اشهره نهج البردة والهمزية النبوية .

وتقوم الكفريات قبالة الدينيات؛ واصحابها جماعة رق دينهم فاستهزؤوا وسخروا، او جماعة عرفوا من الفلسفة الشك والانكار، فشكوا وانكروا ليقول الناس انهم فلاسفة . او جماعة نقموا على رجال الدين، وساء ظنهم بهم حتى اذا ارادوا اصلاح مجتمعهم، وانقاذه من التشعب الطائفي، لم يجدوا الدواء الا في تعطيل الاديان، وهدم الجوامع والكنائس .

الشعر التعليمي

متون العلوم . التاريخ . الاناشيد والحكايات .

وكذلك الشعر التعليمي اقبل عليه المحدثون، وفي مقدمتهم الشيخ ناصيف اليازجي، فانه نظم الاراجيز في النحو والبيان والعروض . ثم اصبح هذا الفن مقصوراً على سرد الاخبار التاريخية ، كما فعل شوقي في كتابه دول العرب وعظماء الاسلام . وعلى تربية الاطفال، واصلاح الاخلاق والحض على العلم؛ اما بطريق الحكايات على السن الحيوان، وضرب الامثال، شأن شوقي في اراجيزه القصصية . واما بطريق الوعظ والارشاد كاناشيد شوقي لاحداث الامة .

المخترعات والمستنبطات

القطر الحديدية . الطيارات . السيارات .

هذه الاشياء جديدة في الشعر العربي لان المتقدمين لم يعرفوها ليصفوها كما وصفوا غيرها من المحسوسات . وانما كان اخظ منها للمتأخرين، فافاضوا في ذكرها، واحسنوا نعتها؛ فاشتملت منظوماتهم على طائفة جليلة في صفات القطر الحديدية، والطيارات، والسيارات، والكهرباء، والصليب الاحمر، والهلال الاحمر، وغير ذلك من الاشياء التي ظهرت في العهد الحديث .

القصص

ايثار الاقصوصة . التاريخ . الحوادث الجارية . ضعف تحليل العواطف .

عرف القدامى شيئاً من الفن القصصي في ما كان يتخلل قصائدهم من ذكر الحوادث القصيرة، وعرفوه اخباراً وحكايات في الشعر التعليمي، بيد انه ضعيف الخيال، ساقط الميزة الادبية . اما المحدثون فقد اطلعوا على الشعر القصصي في آداب الاعاجم، فنبههم الى ما في ادبهم من نقصان؛ فحاولوا سد هذه الثلمة، وتوفروا على نظمه، فجعلوه فناً قائماً برأسه . إلا انهم آثروا الاقصوصة، ونكلوا عن القصة؛ ولو لم ينقل سليمان البستاني إلياذة هوميروس نظماً متقناً لخلا الشعر العربي من القصص الطويل الرائع .

واشهر اصحاب الاقاصيص الشعرية احمد شوقي، وخليل مطران، وحافظ ابراهيم، وشبلي الملاط، وبشارة الخوري، ومعروف الرصافي . وموضوعاتهم مستمدة بعضها من بطون التواريخ، وبعضها من الحوادث الجارية في ايامهم . غير انهم يفتنون في اخراجها، ويسبغون عليها خيالاً جميلاً، وفناً شعرياً، فتغلب الصبغة الادبية على صبغة التاريخ والخبر . ولو برعوا في تصوير الاشخاص وتحليل العواطف النفسية براعتهم في عرض الحوادث ووصفها وسردها، لبلغوا غاية بعيدة في هذا الفن .

التمثيل

اول قصة تمثيلية منظومة . الاعتماد على التاريخ . شوقي .

واطلع المحدثون على الشعر التمثيلي عند الغربيين، كما اطلعوا على الشعر القصصي، فنشطوا الى محاكاتهم، فنظم الشيخ خليل اليازجي[1] اول قصة تمثيلية، وحذا حذوه الشيخ عبدالله البستاني[2] . ثم كان احمد شوقي فرفع الشعر التمثيلي في قصصه، وفاق من تقدمه، وان لم يبلغ به الفن درجة سامية . ويعود توفيقه الى شاعريته وبراعته، ثم الى تصرفه في الاوزان والقوافي . فقد كان الذين تقدموه دونه شاعرية وبراعة، ودونه تحرراً من ربقة الاحكام العروضية، فجاءت قصصهم ضعيفة الفن مملة، تصدع الآذان بقصائدها الطويلة الجارية على بحر واحد، وقافية واحدة .

وموضوعات الشعر التمثيلي مقصورة على حوادث التاريخ دون غيرها . وما من قصة تصور المجتمع العربي في حضارته العصرية، وعاداته، واخلاقه، وازيائه .

ومهما يكن من شيء فان ظهور الشعر القصصي والتمثيلي في الادب العربي اتم الفنون الشعرية بعد نقصانها، وخرج بالشعراء عن الحدود الشخصية الى الميدان العالمي المتسع .

اوزانه وقوافيه

المقطعات . اختلاف القوافي . الشعر المنثور .

لبث الشعراء في القرن الماضي يحافظون على الاوزان والقوافي كما جاءتهم عن

---

(١) هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتعلم في الكلية الاميركية . ثم هاجر الى مصر واشتغل مدة في الصحافة ، ثم عاد الى بيروت ، واحترف التعليم . حتى اصيب بداء الصدر فانقطع عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ) وكان شاعراً محسناً . وهو اول من حاول الشعر التمثيلي، فألف قصة المروءة والوفاء منظومة في نحو الف بيت . (٢) وضع خمس قصص تمثيلية شعرية . وهي حرب الوردتين ، ويوسف بن يعقوب ، وبروتوس ايام تركوين الظالم ، وبروتوس ايام يوليوس قيصر ، ومقتل هيرودس لولديه .

العرب المتقدمين، الا ما كان من ميلهم الى الموشحات في قصائدهم الطويلة، وخروجهم بها عن اصولها، وتفننهم في تجزئتها وتفصيلها، حتى صاروا بها الى مسدسات، ومسبعات، ومثمنات، دونما التفات الى عدد الاقفال والابيات، او الى اصطناع الخرجة في القفل الاخير . ولكنهم راعوا نمطها في الوزن والتقفية .

فلما سادت الثقافة الغربية في القرن العشرين، حاول شعراؤه ان يُحدثوا حدثاً في القوافي والاوزان فجعلوا ينظمون القصيدة مقطّعات، تختلف في عدد ابياتها حيناً، وتتفق آخر، ولكل مقطعة قافية تستقل بها عن اخواتها . ومنهم من جرى على اسلوب الشعر الفرنجي، في تثنية قوافيه، وتقطيعه وتفصيله، وآثر البحور الخفيفة الرشيقة . ومنهم من اهمل القوافي، وحافظ على الاوزان . ومنهم من حافظ على القوافي، واهمل الاوزان، او اهملها معاً . وسمّوا هذا النمط الاخير بالشعر المنثور، وهو اسخف ما وصل اليه القريض وكان ظهوره عند المهاجرين من لبنان . ولقي من جبران خليل جبران نصيراً قوياً يزينه بخياله الجميل وموسيقى الفاظه، ويحببه الى جمهرة مريديه ومنافسيه؛ فانبرى الى تقليده أصيبية الادب مستسهلين الخطب، وانبرى كل كاتب اراد التشبه به، ولم يرزقه الله ملكة الشعر، فاسفُّوا الى الحضيض، حتى اصبح شعرهم المنثور، وليس فيه غير جمل مقطعة، مرصوفة، وغير تشابيه واستعارات سقيمة الخيال مكرورة لا طائل تحتها .

ونحمد الله ان انصار هذا النوع قليل، واكثرهم لا خطر له في الادب . وكذلك الذين اهملوا القوافي كان نجاحهم دون نجاح اصحاب الشعر المنثور .

منزلة الشاعر المحدث

الذائد الوطني . المعلم الاجتماعي . شاعر الشعب .

لبث الشاعر المحدث طوال القرن التاسع عشر وبعض العشرين لا هم له إلا ان يقف في حضرة الملوك والامراء، واصحاب المناصب، والاشراف يمدحهم ويرثي امواتهم، فكان لهم صنّاجة تطربهم انغامها في الافراح والاحزان .

ثم اتخذ خاصة الذائد الوطني، والمصلح الاجتماعي، والمهذب الخلقي . فارتفعت منزلته في عيون الناس، ولمسوا بنفثاته ما يعبر عن شعورهم وأحساسهم، وآلامهم وآمالهم . وكان كلما ابتعد عن التملق والاستجداء تزداد منزلته علوّاً، واقواله سيرورة . فخطا خطوة محمودة في تحويل الشعر عن الافراد الى المجموع، واصبح شاعر الشعب بعد ان كان شاعر الملوك .

ومن المجددين طبقة شخصية الإلهام تقتصر منزلتها على الفن دون سواه .

شوقي

(١٨٦٨ — ١٩٣٢ م و ١٢٨٥ — ١٣٥١ هـ .)

حياته . علومه . شاعر الامير . بعد الحرب . صفاته واخلاقه . نظمه الشعر . آثاره . ميزته . التاريخ . السياسة . الاجتماع . الدين . الوصف . الغزل . المدح . الرثاء . الفخر . الحكمة والاخلاق . الشعر التعليمي . شوقي والتمثيل : مصرع كليوباتره . مجنون ليلى . قمبيز . علي بك الكبير . اميرة الاندلس . عنترة . نظرة عامة في مآسي شوقي . ما ادرك عليه . اسلوبه . منزلته .

حياته

هو احمد شوقي بك ، ابن علي بك ، ابن احمد شوقي بك . ينتهي نسبه الى الاكراد من جهة ابيه ، والى الاتراك من جهة امه . وفيه عرق من الكرجية بجدته لابيه ، وعرق من اليونانية بجدته لامه . ولد في القاهرة على عهد اسماعيل ، وكان ابوه مبذراً اتلف ما عنده ، فكفلته نِمْزار[1] جدته لوالدته ، وهو في المهد ، وكانت من وصائف دار الامارة .

علومه

دخل شوقي المدرسة منذ سنته الرابعة . ولما بلغ الخامسة عشرة طلب الحقوق مدة سنتين . ثم انشئ في مكتب الحقوق قسم للترجمة ، فانسلك فيه سنتين اخريين ونال الاجازة . ثم بعثه الخديوي توفيق الى فرنسة ليدرس الحقوق والاداب الفرنسية ، فسافر سنة ١٨٨٧ ، ودرس سنتين في مُنْبِلِيه ، وسنة في باريس ، واحرز اجازة الحقوق . ومكث بعدها ستة اشهر يتعرّف بها باريس وحضارتها . ورحل في خلال سني دراساته الى فرنسة الجنوبية ، والى انكلترة والجزائر . وعاد الى مصر سنة ١٨٩١ . وكان يتقن ثلاث لغات : العربية والفرنسية والتركية .

شاعر الامير

وتعهده عباس برعايته كما تعهده توفيق من قبل ، فلما عقد مؤتمر المستشرقين في جنيف سنة ١٨٩٤ ، اوفده مندوباً عن مصر ، فلبث شهراً في سويسرة ، حتى اذا انفض المؤتمر ، برحها الى بلجيكة ، وشهد معرض انفرس . ثم عاد الى مصر ، فجعله

---

(١) نمزار هذه من اهل المورة سباها ابراهيم باشا في حرب العثمانيين واليونان ، ثم اعتقها ، وازوجها محمد بك حليم احد رجاله الاتراك .

عباس شاعره الخاص، ورئيساً للقسم الفرنجي في حاشيته :

شاعِرُ ٱلعَزيزِ وَمَـا بِٱلقَليلِ ذَا ٱللَّقَبُ

فكان له من النفوذ والدالة ما لفت اليه انظار ذوي الحاجات ، ولاسيما طلاب الرتب والاوسمة . فكان لا يرد طالباً، ولا يخيب في سؤال، فافاد بذلك ثروة حسنة .

وتزوج وهو فتى في منتصف العقد الثالث ، فحملت اليه زوجه ثروة ضخمة عن أبيها فأصبح من كبار الموسرين . ورزق ثلاثة اولاد صبية وصبيين .

ولما نشبت الحرب العامة ، خلعت انكلترة عباساً لاتصاله بالاتراك، وأبعدت شاعره عن مصر، فأم الاندلس، واتخذ برشلونة له سكناً .

بعد الحرب

عاد شوقي الى مصر في اواخر سنة ١٩١٩ . وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه وفي النفس ما فيها من ذكريات العهد الماضي . فصرفها الى العمل المنتج، فنظم وألّف، ولم تفتر له همة على كبر السن، وايذان الشمس بالغروب .

وكان في كل صيف يقصد الاستانة، او بعض مصايف اوربة حتى سنة ١٩٢٥ فقصر اصطيافه على لبنان .

وفي سنة ١٩٢٧ عقد مهرجان لتكريمه في دار الاوبرة الملكية . فجاءت وفود الادب من جميع الاقطار العربية ، وبايعته بامارة الشعر ، بعد ان بايعه بها كتاب الصحف المصرية يوم كان « شاعر الاميز » فزادوا للاتباع : « واميز الشعراء » .

وعاش سنواته الاخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتع بجاه عريض ، ومال وفر ؛ واسرة نامية ، وشهرة طائرة . حتى توفاه الله في اليوم الثالث عشر من تشرين الاول سنة ١٩٣٢ . فانطوت امارة الشعر من بعده .

وتولت وزارة المعارف المصرية تنظيم حفلة الاربعين لتأبينه ، فدعت اليها البلاد العربية، فلبتها برسلها من اهل الشعر والخطابة، وكان يوم مشهود .

صفاته واخلاقه

كان ممتلئ الجسم فوق الربعة، مستدير الرأس، مختلج العينين لاختلال اعصابها. قليل الكلام في المجالس، كأن به غفلة عما حوله .

وكان شديد الاعتداد بشاعريته، مفاخراً بها، يحب الثناء، ويضيق بالنقد . وكان يداري اصحاب الصحف، ويكثر من زيارتهم ليجملوا القول فيه .

وابتسمت له الحياة، فضحك لها، واحبها، واستمتع بما فيها من لهو وجمال وشباب . وكان حسن الايمان على غير تعصب، فاتسع صدره لجميع الاديان، ولكن دون ان تضعف عقيدته الاسلامية .

وكان وطنياً مخلصاً لمصر، وشرقياً مفاخراً بالشرق .

نظم الشعر

بدأ الذوق الشعري يتولد في شوقي وهو حدث . ذكر احمد زكي باشا ان الشيخ محمداً البسيوني كان يعرض قصائده على تلميذه، قبل ان يرسلها الى دار الامارة . وكان شوقي بسذاجة التلميذ الناشئ يشير عليه بمحو تلك الكلمة وتصحيح تلك القافية، وحذف هذا البيت، وتغيير ذاك الشطر، والاستاذ يغتبط بقوله، وينزل على رأيه . وتحدث البسيوني الى صاحب العرش بذكاء شوقي الصغير، وبراعته، فكانت هذه الشهادة من الاسباب التي حفزت توفيق الى تعهد شاعرنا بالدراسات العالية .

وسألت مجلة الهلال شوقي : كيف بدأ النظم ؟ فقال : « نظمت الشعر وانا طفل، وكنت يومئذ اخطئ واهذي، واتعثر ككل صاحب خيال طفل . ولكني لم البث ان تعلمت العربية على استاذ نابغة هو المرحوم المرصفي صاحب الوسيلة، حتى استقام لي ميزان الشعر بين العشرين والخامسة والعشرين، وعرفني الناس به في هذه السن . فحفظوا لي وغنوا :

مُضْنًى، وَلَيسَ بِهِ حِرَاكْ، لَكِنْ يَخِفُّ إِذَا رَآكْ
يَا حُسْنَهُ بَيْنَ الحِسَانْ، فِي شَكْلِهِ إِنْ قِيلَ بَانْ

والابيات السائرة :

خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسْنَاءُ ، وَٱلْغَوَانِي يَغُرُّهُنَّ ٱلثَّنَاءُ

والابيات التي اقول منها :

صُونِي جَمَالَكِ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ ، مِنَ ٱلتُّرَابِ ، وَهٰذَا ٱلْحُسْنُ رُوحَانِي . اه

وكان ينظم الشعر في كل مكان وزمان ، جالساً او ماشياً ، وحده او مع الناس ، واشد ما يكون ارتياحاً الى النظم بعد منتصف الليل . ذكر كاتبه احمد عبد الوهاب انه اذا حاول الشعر اخذ يمر راحته اليسرى على رأسه ، وينظر الى خاتمه .

وتحدث خليل مطران عنه قال : « لا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادئ ذي بدء غمغمة . ثم رأى ناظريه ، وقد برقا ، وتواترت فيهما حركة المحجرين . ثم بصر به وقد رفع يده الى جبينه ، وامرها عليه امراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة » .

وروى كاتبه انه اذا ضاق عليه الوقت ، واضطر الى صنع قصيدة ، تناول مُحّ ثلاث من البيض النيء ، وشرع في النظم .

وكان سريع الخاطر ، ربما اتم القصيدة في ساعة . قال محمد كرد علي : « من جميل بديهته المطواعة ، ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العلمي العربي ، فقد نظم قصيدة ثم ابطلها لانه ما ارتضاها ، ونظَم في الحال غيرها بمجلس من اصحابه » اه

وتحدث كاتبه انه نظم قصيدة النيل في ليلة واحدة ، وهي تربي على خمسين بيتاً ومائة .

وكان قوي الذاكرة ، يحفظ شعره ، ولا يمليه على كاتبه الا جملة ابيات غير ناس شيئاً منها .

آثاره

لم يقم عند العرب شاعر اكثر انتاجاً من شوقي، فقد انتظم له ديوان مطبوع، في الثلاثين من عمره، ومات وهو على اشد ما يكون نشاطاً الى العمل، فكانت اواخر سنيه، اخصب ايام حياته . ولم تقتصر آثاره على الشعر، وانما تجاوزته الى النثر، وقد طبع معظمها، وبقي اقلها لم يطبع .

فاما الذي طبع من الشعر، فالجزء الاول من الشوقيات . وهو ما اشتمل على منظومه في القرن التاسع عشر « ١٨٨٨ ـ ١٨٩٨ م » . صدره بمقدمة في الشعر والشعراء، وترجمة حاله . وافتتحه بمدحتين لعبد الحميد الثاني، وعباس بن توفيق . وجعله على سبعة ابواب : فالاول الادب والتاريخ، والثاني الوصف، والثالث المديح، والرابع المراثي، والخامس الحكايات، والسادس الخصوصيات . وهذا الباب خليط من خصوصيات الشاعر، واشياء غير خصوصية، كملحمته في حرب بني عثمان واليونان، ووصف البسفور، والقمر وسوى ذلك . ويظهر ان شوقي بعد ان طبع الابواب الاولى، وانتهى الى الباب الاخير جهزت لديه قصائد جديدة فادخلها فيه، وان لم تكن منه . فأخل في ترتيب الديوان، وخالف ما حمل عليه نفسه في المقدمة[1] .

ووعد في المقدمة بان ينشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عنده من منظوم ومنثور، ولكنه لم يفعل . بل اهمل طبع شعره الى ما بعد الحرب العامة، فنشر سنة ١٩٢٥ الجزء الاول من الشوقيات، على ورق صقيل، مشكول الحروف، مشروح الغريب، مفسر المعاني، مصدر بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل، حلل بها شاعرية صاحب الديوان . وهذا الجزء يختلف عن الذي طبع في شبابه بانه خلو من المدائح والمراثي، والاناشيد والحكايات . مخصوص بالسياسة والتاريخ والاجتماع . لم يدخل

(١) ذكر في مقدمة شوقياته انه ارجأ الشعر الذي عثر عليه او نظمه، بعد تنسيق الابواب، وطبعها، الى الجزء الثاني، لئلا يخل في ترتيبها .

فيه من الديوان القديم الا ما تلاءم مع هذه الاغراض، كهمزيته في مؤتمر المستشرقين، وملحمته في الحرب العثمانية اليونانية .

ونشر الجزء الثاني سنة ١٩٣٠، وهو كسابقه في الطبع والاتقان إلا انه دونه في الشرح والتفسير . مقسوم الى ابواب اولها الوصف، والثاني النسيب، والثالث متفرقات في الوصف والتاريخ والسياسة والاجتماع . وفيه قصائد كثيرة نشرت في الديوان القديم .

وطبع من القصص التمثيلية مصرع كليوباترة سنة ١٩٢٩، ومجنون ليلى وقمبيز سنة ١٩٣١، وعلي بك الكبير وعنترة سنة ١٩٣٢ .

ونشر له بعد موته كتاب دول العرب وعظماء الاسلام سنة ١٩٣٣، ومعظمه اراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافي ما لا يلزم . تبحث في تاريخ الاسلام وعظمائه، منذ عهد النبوة الى زمن الفاطميين . ونشر الجزء الثالث من الشوقيات سنة ١٩٣٦، وهو مخصوص بالمراثي .

واما الذي طبع من النثر، فاميرة الاندلس سنة ١٩٣٢، قصة تمثيلية . واسواق الذهب[1] سنة ١٩٣٢، مقالات اجتماعية، اكثرها مسجع بادي التكلف .

---

(١) استوحى شوقي هذا الاسم من اطواق الذهب للزمخشري، واطواق الذهب للأصفهاني .

ميزته

وقف شوقي من الشعر وقفة المستطيل على فنونه، المتصرف في اغراضه وشؤونه، الضارب في سهوله وحزونه. وأوتي شاعرية خصبة، يمدها اصول اربعة ينتمي اليها، وترفدها مخيلة قوية، دعمت بالعلم، وغذيت بالاسفار. ويحفزها طموح شديد الى بلوغ اعلى ذروة في القريض، يجدد بها عهد المتنبي عند سيف الدولة، والبحتري عند المتوكل، وابي تمام عند المعتصم. ويجاري من شعراء الفرنجة فيكتور هيغو في السياسة الوطنية، والتاريخ واساطير القرون. ولافنتين في الحكايات الخرافية. وكرناي في المآسي التمثيلية. فالى هؤلاء الشعراء خصوصاً، والى امثالهم عموماً كان ينظر طامعاً في محاكاتهم، والارتفاع الى منازلهم. فتلمذ لهم، واستقى من بحورهم. ثم انبرى يجاريهم، ويعارضهم، وينافسهم. فكان له منهم عناصر قوية مختلفة اختلطت اختلاطاً عجيباً، فاخرجت شخصية مركبة تذكرك دائماً بغيرها، وان يكن لها طابع لا يخفى في شتى طرقه، والفاظه وتعابيره. وهذا ما نعنى باظهاره في دراستنا لاغراض الشاعر.

التاريخ

اولع شوقي بالتاريخ منذ عهده الاول بالنظم فتوفر عليه، وبرع فيه . وعني على الاخص بتاريخ الاسلام، وتاريخ مصر . فكان له منهما اداة صالحة لاغراضه الشعرية . وتتبع الحوادث الجارية في عصره، فدونها في منظوماته السياسية والاجتماعية؛ فانتظم له منها قصائد مشهورة في الوطنيات والخلقيات .

وكان التاريخ القديم والمعاصر ذلك الينبوع الثرّ الذي استسقاه شاعرنا على ظمإ، فتدفق له بالمخصب الخيّر من شعره . فاتخذه عبرة وذكرى للمصريين والمسلمين، يذكرهم بامجاد اسلافهم، ويحض الهمم القاعدة على النهوض، بوصف ما كان لدولهم من فتوح، وعظمة، وازدهار . ويروض به اطفالهم على البأس، وطلب المجد المفقود :

وَيَرْوِي ٱلْوَقَائِعَ فِي شِعْرِهِ ، يَرُوضُ عَلَى ٱلْبَأْسِ أَطْفَالَهَا

وقد تطول قصائده التاريخية ، فأحياناً يوفق فيها، فيخرج منها شعراً قصصياً رائعاً كهمزيته التي قدمها الى مؤتمر المستشرقين في جنيف، وبائيته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية، وقصيدة النيل، وقصيدة ابي الهول . واحياناً تخونه الروعة الادبية، فيقتصر على سرد الحوادث كأنه مؤرخ لا شاعر . وهذا ما يصطبغ به اكثر شعره في كتاب دول العرب وعظماء الاسلام .

واجمل حلية يتلألأ بها هذا الشعر، عاطفة الدين، وعاطفة الوطن فان شوقي يكاد يتلظى حمية، واندفاعاً في ذكر عز مصر، وحضارتها القديمة . وذكر انتصارات المسلمين، واتساع ممالكهم . ويكاد يتفطر حزناً ولوعة في وصف ما نزل بمصر والبلاد الاسلامية، من النكبات والارزاء . وسيان عنده مصر الفرعونية، او مصر الاسلامية، وبقاع يعمرها العرب، او بقاع يعمرها الاتراك .

واذا خلا شعره من الحوادث، فما يخلو من الاشارات التاريخية، فانها مبثوثة في شتى منظوماته . وفيها الجميل المستملح، وفيها المتكلف المبتذل، للافراط في تكراره .

السياسة

تقلب شوقي في احضان السياسة المتقلبة مع المكان والزمان، فجاء شعره وفيه صور متناقضة، لوجوه السياسة المتناقضة . فقد كان شاعر القصر في زمن عباس، فنطق بسياسة القصر، وأيد صاحب العرش . وكان اللورد كرومر عميد انكلترة قد بسط نفوذه على مصر حتى اصبح لا يصدر امر الا عن امره . فطبيعي ان يتذمر الخديوي على هذا النفوذ، وان يتذمر شاعره معه، فيحمل على العميد طاعناً فيه، منددا باعماله، مقبحاً سياسة من يتودد اليه، فعله برياض باشا[1] بعد خطبته التي فاه بها في المدرسة الصناعية سنة ١٩٠٤، متملقاً للورد، كافراً نعمة مصر واصحاب عرشها. فقد أنبه شوقي تأنيباً اليماً، واتهمه بالخيانة، مشبهاً اياه بعرابي . وعرابي في نظر شوقي خائن، لانه ثار على ولي نعمته توفيق، واعقب بثورته احتلال الانكليز . قال منها :

خَطَبْتَ فَكُنْتَ خَطْباً ، لَا خَطِيباً ، أُضِيفَ إِلَى مَصَائِبِنَا ٱلعِظَامِ
لَهِجْتَ بِٱلِٱحْتِلَالِ وَمَا أَتَاهُ ، وَجُرْحُكَ مِنْهُ ، لَوْ أَحْسَنْتَ ، دَامِ
وَمَا أَغْنَاهُ عَمَّنْ قَالَ فِيهِ ، وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ هٰذَا ٱلتَّرَامِي
أَحَبَّتْكَ ٱلبِلَادُ طَوِيلَ دَهْرٍ ، وَذَا ثَمَنُ ٱلوَلَاءِ وَٱلِٱحْتِرَامِ ؟

ويختمها :

أَفِي ٱلسَّبْعِينَ ، وَٱلدُّنْيَا تَوَلَّتْ ، وَلَا يُرْجَى سِوَى حُسْنِ ٱلخِتَامِ ،
تَكُونُ ، وَأَنْتَ أَنْتَ رِيَاضُ مِصْرٍ ، عَرَابِي ٱليَوْمَ فِي نَظَرِ ٱلأَنَامِ

وتقضي السياسة الانكليزية بخلع اللورد كرومر عن منصبه سنة ١٩٠٧، فيقيم له رئيس الوزارة مصطفى باشا فهمي حفلة وداع في ملعب الاوبرة . ويودعه بخطبة

(١) رياض باشا تقلب في الوزارات المصرية من عهد اسماعيل الى عهد عباس . وكان رئيس الوزارة في بدء الثورة العرابية ، ثم في زمن عباس سنة ١٨٩٣ .

لطيفة مثنياً عليه . ويخطب اللورد بعده فيندد بالخديوي اسماعيل ، ويحاشى الامة المصرية . وكان الامير حسين كامل حاضراً (السلطان حسين فيما بعد) فسمع شتم والده بأذنيه ، ولم ينبس ببنت شفة . فغضب شوقي غضبة شريفة ، ونظم قصيدة جميلة ، هاجم بها اللورد وحكومته ، ولم يعف عن الامير حسين . وانما هو ينطق بلسان صاحب العرش . قال في اولها والخطاب للورد :

أَيَامُكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَا ، أَمْ أَنْتَ فِرْعَوْنٌ يَسُوسُ ٱلنِّيلَا ؟
أَمْ حَاكِمٌ فِي أَرْضِ مِصرَ بِأَمْرِهِ ، لَا سَائِلًا أَبَدًا ، وَلَا مَسْؤُولَا ؟
يَا مَالِكًا رِقَّ ٱلرِّقَابِ بِبَأْسِهِ ، هَلَّا ٱتَّخَذْتَ إِلَى ٱلْقُلُوبِ سَبِيلَا !
لَمَّا رَحَلْتَ عَنِ ٱلْبِلَادِ تَشَهَّدَتْ ، فَكَأَنَّكَ ٱلدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ رَحِيلَا
أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ إِهَانَةً ، أَدَبٌ ، لَعَمْرُكَ ، لَا يُصِيبُ مَثِيلَا !
هَلَّا بَدَا لَكَ أَنْ تُجَامِلَ بَعْدَمَا صَاغَ ٱلرَّئِيسُ لَكَ ٱلثَّنَا إِكْلِيلَا
أَنْظُرْ إِلَى أَدَبِ ٱلرَّئِيسِ وَلُطْفِهِ ، تَجِدِ ٱلرَّئِيسَ مُهَذَّبًا ، وَنَبِيلَا

. . . .

فِي مَلْعَبٍ لِلْمُضْحِكَاتِ مُشَيَّدٍ ، مَثَّلْتَ فِيهِ ٱلْمُبْكِيَاتِ فُصُولَا[1]
شَهِدَ ٱلْحُسَيْنُ عَلَيْهِ أَعْنَ أُصُولِهِ ، وَتَصَدَّرَ ٱلْأَعْمَى بِهِ تَطْفِيلَا[2]
جُبْنٌ أَقَلَّ ، وَحَطَّ مِنْ قَدْرَيْهِمَا ، وَٱلْمَرْءُ إِنْ يَجْبُنْ ، يَعِشْ مَرْذُولَا
لَمَّا ذَكَرْتَ بِهِ ٱلْبِلَادَ وَأَهْلَهَا ، مَثَّلْتَ دَوْرَ نَمَاتِهَا تَمْثِيلَا[3]

ومنها :

أَلْيَوْمَ أَخْلَفَتِ ٱلْعُهُودَ حُكُومَةٌ ، كُنَّا نَظُنُّ عُهُودَهَا ٱلْإِنْجِيلَا
دَخَلَتْ عَلَى حُكْمِ ٱلْوَدَادِ وَشَرْعِهِ ، مِصْرًا ، فَكَانَتْ كَٱلسُّلَالِ دُخُولَا

---

(١) ملعب للمضحكات : اي دار الاوبرة . (٢) الاعمى : الشيخ عبد الكريم سلمان ، من المترددين للانكليز المترددين على الصحف التي تؤيد سياستهم . وكان قد ضعف بصره ، وكاد يكف . (٣) به : اي بالملعب

هَدَمَتْ مَعَالِمَهَا ، وَهَدَّتْ رُكْنَهَا ، وَأَضَاعَتِ ٱسْتِقْلَالَهَا ٱلْمَأْمُولَا[١]

وازيل التاج عن مفرق عباس في الحرب العامة ، وزين به جبين حسين كامل . فهناه شوقي ، وبايعه على الوفاء ، لانه لا يخون اسماعيل في ابنائه :

أَأَخُونُ إِسْمَاعِيلَ فِي أَبْنَائِهِ ؟ وَلَقَدْ وُلِدْتُ بِبَابِ إِسْمَاعِيلَا !

ومدح الانكليز الذين حافظوا على عرش مصر في برهة تتناثر بها العروش . وكان يخشى ثلمه ، بعد ان لاذ عباس بالاتراك ، وبسطت انكلترة حمايتها على البلاد :

وَتَدَارَكَ ٱلْبَارِي لِوَاءَ مُحَمَّدٍ ، فَرَعَى لَهُ غُرَرًا ، وَصَانَ حُجُولَا[٢]
فِي بُرْهَةٍ يَذَرُ ٱلْأَسِرَّةَ نَحْسُهَا ، مِثْلَ ٱلنُّجُومِ ، طَوَالِعًا ، وَأُفُولَا[٣]
أَللهُ أَدْرَكَهُ بِكُمْ ، وَبِأُمَّةٍ ، كَٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْأَوَّلِينَ عُقُولَا[٤]
حُلَفَاؤُنَا ٱلْأَحْرَارُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرْقَى ٱلشُّعُوبِ عَوَاطِفًا وَمُيُولَا
لَمَّا خَلَا وَجْهُ ٱلْبِلَادِ لِسَيْفِهِمْ ، سَارُوا سِمَاحًا فِي ٱلْبِلَادِ ، عُدُولَا
وَأَتَوْا بِكَابِرِهَا ، وَشَيْخِ مُلُوكِهَا ، مَلِكًا عَلَيْهَا ، صَالِحًا ، مَأْمُولَا

ومن غرائب الاتفاق ان تكون هذه القصيدة في بحرها وروّيها ، كالقصيدة التي حمل بها على اللورد كرومر ، وندد بسياسة حكومته ، وهجا حسين كامل ذاك الذي شهد لعن اصوله ، وسكت صابراً على الاذى . وهنا نفسية شوقي معقدة لا تنجلي صريحة . فانه يحب الاتراك ، ولا يسره ان تذهب سيادتهم عن مصر ، ولكنه ساخط عليهم ، لاصطلائهم حرباً خسروا بها باقي تلك السيادة :

أَلْقَوْمُ حِينَ دَهَا ٱلْقَضَاءُ عُقُولَهُمْ ، كَسَرُوا بِأَيْدِيهِمْ لِمِصْرَ غُلُولَا[٥]
هَدَمُوا بِوَادِي ٱلنِّيلِ رُكْنَ سِيَادَةٍ ، لَهُمُ كَرُكْنِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ضَئِيلَا

---

(١) المعالم جمع مَعْلَم : موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده ويريد بها معالم حضارتها . (٢) يريد بالغرر والحجول ، الايام المشهورة ، والغزوات المظفرة . (٣) الاسرّة : العروش . الافول : جمع أفل . (٤) بكم : الخطاب للسلطان حسين كامل . وبأمة : اي انكلترة . (٥) القوم : اي العثمانيون .

ويحب عباساً، ويؤثره على حسين، ولكنه لا يرى بدّاً من اظهار الرضى بعد ان انقطع ما بين عباس والعرش . واصبح من خير مصر، ان يحفظ تجها امير من ابناء اسماعيل، ولو كان الحسين الذي هجاه؛ لتعود به السلطة الشرعية التي اغتصبها عميد الانكليز واستأثر بها برهة من الدهر .

هَلْ كَانَ ذَاكَ ٱلْعَهْدُ إِلَّا مَوْقِفاً ، لِلسُّلْطَتَيْنِ ، وَلِلْبِلَادِ وَبِيلَا[1]
يَعْتَزُّ كُلُّ ذَلِيلِ أَقْوَامٍ بِهِ ، وَعَزِيزُكُمْ يُلْقِي ٱلْقِيَادَ ذَلِيلَا[2]

وكان عباس ميالاً الى العثمانيين ، متوداً صاحب الخلافة ، ساعياً في اجلاء انكلترة عن مصر . فكان شوقي يفعل فعل سيده، مجارياً سياسة العرش من جهة ، وعاطفته التركية من اخرى وهو بين السياسة والعاطفة، يفاخر بالاتراك، ويؤثرهم في قرارة نفسه على العرب، وان كان بيانه عربياً . ويرى ان الخلافة لا تصلح الا لهم . وان عصر عبد الحميد الثاني اسعد العصور على الشعب، عصر الرحمة والعدل والخير، فيطعن على الذين يعيبونه، والذين يثورون على صاحب السلطان .

وتدور الايام على عبد الحميد فيسقط عن سريره ، ويستخلف اخوه محمد رشاد . فيودعه شوقي بقصيدة حسناء، ويلومه في شيء من الألم لانه ضن بالدستور :

أُوذِيتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ ، وَحَنَنْتَ لِلْحُكْمِ ٱلْعَسِيرِ

ثم يبايع الخليفة الجديد ويمدحه، ويمدح ابطال الدستور الذين خلعوا عبد الحميد، ولا يجد في ذلك حرجاً ما دام السلطان للاتراك والخلافة فيهم .

الا ان حال شوقي تبدلت بعد الحرب، فلا هو اتصل بالقصر، ولا هو شاعر الامير، فاصبح في سياسته الصق بالشعب، واقرب الى القلوب ؛ وان لم يغفل عن مدح صاحب العرش وتأييده، وهو الوفي لابناء اسماعيل . ولكن هذا المدح كان يأتي عرضاً لا غاية؛ يستطرد اليه الشاعر في بسطه لحادث سياسي او اجتماعي يشغل مصر،

---

(١) ذاك العهد : اي عهد الحكم في مصر قبل تولية السلطان حسين . السلطتان : اي السلطة الشرعية لصاحب العرش، والسلطة العملية التي اغتصبها عميد انكلترة . (٢) عزيزكم : الخطاب لاهل مصر .

فيثني على الملك بعمل حميد أتاه، او يحضه على عمل صالح يريد ان يأتيه . وانما يجعل همه في الدفاع عن مصر، واستقلالها، وحريتها . ولا تأخذه هوادة في الحملة على الانكليز، والتنديد باعمالهم، وتقبيح تصرفهم في البلاد .

واذا رأى في الامة شقاقا وخلافاً، ثار ثائره، وهب يدعو الاحزاب الى الوئام، وترك الشحناء، خشاة ان يستغل الغريب خصامهم . ولم يكن ينتسب الى حزب سياسي، بل كان يضع حرية مصر واستقلالها فوق الاحزاب . فاليك كيف يؤنب المصريين على تخاذلهم، وانقسامهم :

إِلَامَ ٱلْخُلْفُ بَيْنَكُمُ إِلَامَا ؟ وَهٰذِي ٱلضَّجَّةُ ٱلْكُبْرَى عَلَامَا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ ، وَتُبْدُونَ ٱلْعَدَاوَةَ ، وَٱلْخِصَامَا ؟
وَأَيْنَ ٱلْفَوْزُ ؟ لَا مِصْرُ ٱسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا ٱلسُّودَانُ دَامَا !

ومنها يصف حالة مصر، والدولة المحتلة :

تَبَاغَيْتُمْ كَأَنَّكُمُ خَلَايَا مِنَ ٱلسَّرَطَانِ ، لَا تَجِدُ ٱلْتِئَامَا
أَرَى طَيَّارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا ، وَحَلَّقَ فَوْقَ أَرْؤُسِنَا ، وَحَامَا
وَأَنْظُرُ جَيْشَهُمْ مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ ، عَلَى أَمْصَارِنَا ضَرَبَ ٱلْخِيَامَا
فَلَا أُمَنَاؤُنَا نَقَضُوهُ رُمْحاً ، وَلَا خُوَّانُنَا زَادُوا حُسَامَا
وَنُلْفِي ٱلْجَوَّ صَاعِقَةً ، وَرَعْداً ، إِذَا قَصْرُ ٱلدُّبَارَةِ ، فِيهِ غَامَا[1]
إِذَا ٱنْفَجَرَتْ عَلَيْنَا ٱلْخَيْلُ مِنْهُ ، رَكِبْنَا ٱلصَّمْتَ ، أَوْ قُدْنَا ٱلْكَلَامَا
فَأَبْنَا بِٱلتَّخَاذُلِ ، وَٱلتَّلَاحِي ، وَآبَ بِمَا ٱبْتَغَى مِنَّا وَرَامَا[2]

ولم يطلق شوقي السياسة التركية، وان انقطعت علاقة الاتراك بمصر . بل ظل يراقب سير الحوادث عندهم، ويعنى بها، مدفوعاً بعاطفة الحب والوشيجة، والدين . فتراه يحمل على الخليفة وحيد الدين، لاعتماده على الانكليز، ويمدح مصطفى كمال،

(١) قصر الدوبارة : مقر العميد الانكليزي في مصر . (٢) التلاحي : التلاعن والتلاوم . وآب : الضمير يعود على قصر الدوبارة .

ويهنئه بانتصاره على اليونان . ثم تلغى الخلافة فيتألم لالغائها، ويعاتب الغازي في رفق وحزن ، لمحوه اياهـا، وهي « ملاءة فخر الاتراك . » ويخشى ان تعود الى العرب، ويتولاها الحسين بن علي، فيطعن في الحسين العاجز، الذي مد يده في الحرب الى موالاة الاعداء . ويدعو المسلمين الى الاعراض عن مبايعته .

ثم لا يلبث مصطفى كمال ان يرفع دعائم الجمهورية، على انقاض الخلافة . فيبتهج شوقي ابتهاجه بكل شيء يعـلي شأن الاتراك والمسلمين . فيمدح الجمهورية، ويذم حكم الفرد ، الا انه لم ينس الخلافة بل ظل يرجو عودتها الى الترك ، وأن تكون شورى بينهم شأنها في فجر الاسلام :

عُودِي إِلَى مَا كُنْتِ فِي فَجْرِ الْهُدَى، عُمَرٌ يَسُوسُكِ ، وَالْعَتِيقُ يَلِيكِ[1]

ومهما تعقدت سياسة شوقي، وتناقضت، وتباينت . فانه ثابت على امور لا يتخلى عنها . اولها استقلال مصر ، وان يكون الملك دستورياً في ابناء اسماعيل . وثانيها عودة الخلافة الى الاتراك لان فيها عزهم وعز الاسلام . ولا بأس عنـده ان تجعل شورى كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين .

---

(١) العتيق : لقب ابي بكر الصديق .

الاجتماع

شعر الاجتماع ممتزج عند شوقي بشعره السياسي والتاريخي . فرب قصيدة اجتماعية اشتملت على الآراء السياسية، والحوادث التاريخية معاً . لذلك افرد هذه الانواع الثلاثة باباً واحداً في ديوانه .

وكانت اجتماعياته في اول امره تتصل بالشعر التعليمي الخاص، كاناشيد الاحداث، والحكايات الخرافية على السن الحيوان . ثم ارتفع بها الى الاغراض العامة، وادمج فيها السياسة والتاريخ لاعتماد هذه الانواع بعضها على بعض . وكان وهو شاعر القصر لا يتعدى بها سياسة البلاط، وتقاليده . فاذا عرض لقضية السفور والحجاب، جارى المحافظين في رأيهم بحجاب المرأة . لان شاعر الامير لا يجمل به ان ينادي بالسفور، وإن يكن هواه فيه، وهو الذي شهد حضارة باريس، وتثقف ثقافة غربية، راقية .

ومما لا ريب فيه ان عقيدة الحجاب غير متمكنة من نفس الشاعر، وان حافظ على تقاليدها في اسرته . فقد نظم قصيدة « صداح » ورمز عن المرأة ببلبل جميل يكرم في قفصه، ولا يطلق سراحه لئلا يطير، فيهون على الصيادين . ورأى الغيد في الاستانة، سوافر على ضفاف كوك صو يغتسلن، فانكر الحجاب، ونسي انه شاعر الامير :

فَقُـلْ لِلْمَجَانِحِينَ إِلَى حِجَابِ ، أَتُحْجَبُ عَنْ صَنِيعِ ٱللهِ نَفْسُ ؟
إِذَا لَمْ يَسْتُرِ ٱلْأَدَبُ ٱلْغَـوَانِي ، فَلَا يُغْنِي ٱلْحَرِيرُ، وَلَا ٱلدِّمَقْسُ

بيد انه لم يجرؤ على المجاهرة برفع الحجاب، الا بعد ان ابتعد عن القصر، وتحرر من سياسته، وتقاليده . فنقض قصيدة صداح، واخذ برأي قاسم امين[1] ونادى بحرية الاناث . ودونك بعض ما يقول في صداح ثم في نقيضتها :

---

(١) هو زعيم المنادين بتحرير المرأة المسلمة، في كتابيه تحرير المرأة، والمرأة الجديدة؛ توفي في مصر سنة ١٩٠٨ .

بِالرَّغْمِ مِنِّي مَا تُعَا لِجُ فِي النُّحَاسِ الْمُقْفَلِ
حِرْصِي عَلَيْكَ هَوًى ، وَمَنْ يُحْرِزْ ثَمِيناً ، يَبْخَلِ

ومنها يحكم بالحجاب وطبيعته :

أَنْتَ ابْنُ رَأْيٍ لِلطَّبِيـ ـعَةِ فِيكَ غَيْرِ مُبَدَّلِ
أَبَدًا مَرُوعٌ بِالْإِسَا رِ ، مُهَدَّدٌ بِالْمَقْتَلِ
إِنْ طِرْتَ عَنْ كَنَفِي وَقَعْـ ـتَ عَلَى الْمُسُورِ الْجُهَّلِ

وقال في نقيضتها :

قُلْ لِلرِّجَالِ طَغَى الْأَسِيرْ ، طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطِيرْ ؟[1]
أَوْهَى جَنَاحَيْـ ـهِ الْحَدِيـ ـدُ ، وَحَزَّ سَاقَيْـ ـهِ الْحَرِيرْ
ذَهَبَ الْحِجَابُ بِصَبْـ ـرِهِ ، وَأَطَالَ حَيْرَتَهُ السُّفُورْ

ومنها :

إِنَّ السَّمَاءَ جَدِيرَةٌ بِالطَّيْرِ ، وَهْوَ بِهَا جَدِيرْ

وشوقي على الحالين، يرى تعليم المرأة ورقيها، ويأبى لها الجهل والخمول :

وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِيَّـةٍ ، رَضَعَ الرِّجَالُ جَهَالَةً وَخُمُولَا

وينكر بيعها بالدينار لرجل لا يستحقها . واكره شيء اليه تزويج الفتيات بالشيوخ :

أَلَالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيْـ ـرِ مُحَلَّلٍ ، حَتَّى زَوَاجَ الشَّيْبِ بِالْأَبْكَارِ
مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ وَإِنَّمَا بِيعَ الصِّبَا وَالْحُسْنُ بِالدِّينَارِ

ولم يقتصر تطور شعره على المرأة وحدها بعد تركه البلاط ، بل تجاوز الى الاغراض الاجتماعية الطليقة من سياسة الخلافة، والعرش المصري . الى الشعر الذي لا تقف دونه الحدود والامصار، الشعر الذي جعل من صاحبه شاعر الشعب لا شاعر الامير، وشاعر الشرق الاسلامي، لا شاعر مصر وحدها :

---

(١) الحجال جمع حَجَلة : خدر المرأة .

كَانَ شِعْرِي الْغِنَاءَ فِي فَرَحِ الشَّرْ قِ، وَكَانَ الْعَزَاءَ فِي أَحْزَانِهْ

ويجمع مغانب الشرق فيجعلها واحدة :

وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالْفُصْحَى بَنُو رَحِمٍ، وَنَحْنُ فِي الْجُرْحِ وَالْآلامِ إِخْوَانُ

وهذا البيت من قصيدة رائعة عارض بها نونية ابي البقاء الرندي، ونظمها في دمشق زفرة حارة على المسجد الاموي، وعز بني امية البائد . قال منها :

بَنُو أُمَيَّةَ لِلْأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا، وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا، وَمَا دَانُوا
كَانُوا مُلُوكًا، سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمُ، فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ: مَا كَانُوا؟
عَالِينَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، مُلْكٌ وَسُلْطَانُ
بِالْأَمْسِ قُمْتُ عَلَى الزَّهْرَاءِ أَنْدُبُهُمْ، وَالْيَوْمَ دَمْعِي، عَلَى الْفَيْحَاءِ، هَتَّانُ[1]
مَعَادِنُ الْعِزِّ قَدْ مَالَ الزَّعَامُ بِهِمْ، لَوْ هَانَ فِي تُرْبِهِ الْإِبْرِيزُ مَا هَانُوا
مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ : «هَلْ فِي الْمُصَلَّى، أَوِ الْمِحْرَابِ، مَرْوَانُ؟»
تَغَيَّرَ الْمَسْجِدُ الْمَحْزُونُ، وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الْمَنَابِرِ، أَحْرَارٌ، وَعِبْدَانُ
فَلَا الْأَذَانُ أَذَانٌ فِي مَنَارَتِهِ، إِذَا تَعَالَى، وَلَا الْآذَانُ آذَانُ

وله قافية بديعة نظمها لما نكبت دمشق في الثورة الدرزية السورية على عهد الجنرال ساراي القائد الفرنسي وفيها عتاب لطيف لفرنسة التي أحبها، وطالما اشاد بذكرها لتثقفه فيها . قال منها والخطاب لدمشق :

رَمَاكِ بِطَيْشِهِ، وَرَمَى فَرَنْسَا، أَخُو حَرْبٍ، بِهِ صَلَفٌ وَحُمْقُ
إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَّابُ حَقٍّ، يَقُولُ : عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا، فِيهِ حَيَاةٌ، كَمُنْهَلِ السَّمَاءِ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلَادٌ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا، وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمُ لِيَبْقُوا

(١) الزهراء : قصر للمعتمد بن عباد على نهر اشبيلية . ومدينة قرب قرطبة، بناها عبد الرحمن الثالث الخليفة الاموي .

وَحُرِّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاهَا ، فَكَيْفَ عَلَى قَنَاهَا تُسْتَرَقُّ !

ومنها هذا البيت الغائر :

وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ ، بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

ومن قصائده الاجتماعية السامية مملكة « النحل » وفيها يدعو الى العمل والاستقلال الذاتي، باسلوب رمزي جميل يصف به دولة النحل وما هي عليه من نظام وتدبير وبعد نظر . وكذلك قصيدته مصاير الايام في وصف حياة الانسان منذ عهده بالمدرسة الى يوم يشيب، ويطويه الدهر، وهي من خير شعره .

على ان شغفه بالاجتماعيات ، كلّفه ان يتناول كل دقيقة وجليلة منها . فرويت له قصائد باردة، ضعيفة الروح الشعري، كقصيدة ايها العمال، وقصيدة الصحافة، وسواهما .

الدين

لم يكن شوقي من المتعبدين القانتين ، الذين يصرفون النفس عن متع الحياة وملاذها ، ولا يجدون مشقة في التشبث باحكام الدين وفروضه ، واتباع اوامره ، ونواهيه . بل ابتلي بالمعاصي كما ابتلي غيره من الشعراء ، وشرب الخمر وها وعبث . وقعدت همته عن الحج الى البيت الحرام عندما دعاه الخديوي عباس الى مرافقته ، فاعتذر شاكياً تعب الرحلة ، وبعد الشقة ، في حين لم يضق باسفاره العديدة الى الاستانة ، ومدائن اوربة .

على انه لم يكن مغموز العقيدة ، فاتر الايمان ، وانما هو من اولئك النفر الذين عظمت ثقتهم بعفو الله ، فلم يحرموا النفس شهواتها ، ولا احرجوها باتباع الشرائع ، واقامة احكامها :

إنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرِ مُعْتَصَمِ

وكان للدين اثر قوي في شعره ، اصطبغت به شتى قصائده ، بَلْهَ القصائد التي خصها بهذا الغرض ، كنهج البردة ، والهمزية النبوية[1] في مدح محمد ، وذكر سيرته . فقصيدته التي قالها في مؤتمر المستشرقين هي تاريخ لديانات المصريين القدماء ، وللاديان الثلاثة التي جاء بها موسى والمسيح ومحمد . واليك قوله في مولد عيسى :

---

(١) عارض بها بردة البوصيري ، وهمزيته . مطلع البردة :

أَمِن تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ ، مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِن مُقْلَةٍ بِدَمِ

ومطلع نهج البردة :

رِيمٌ عَلَى القَاعِ بَيْنَ البَانِ وَالعَلَمِ ، أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

ومطلع همزية البوصيري :

كَيْفَ تَرْقَى رُقَيْكَ الأَنْبِيَاءُ ؟ يَا سَمَاءً مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ !

ومطلع همزية شوقي :

وُلِدَ الهُدَى فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ، وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وُلِدَ ٱلرِّفْقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى ، وَٱلْمُرُوءَاتُ ، وَٱلْهُدَى ، وَٱلْحَيَاءُ
وَٱزْدَهَى ٱلْكَوْنُ بِٱلْوَلِيدِ ، وَضَاءَتْ ، بِسَنَاهُ مِنَ ٱلثَّرَى ٱلْأَرْجَاءُ
وَسَرَتْ آيَةُ ٱلْمَسِيحِ كَمَا يَسْرِي ، — مِنَ ٱلْفَجْرِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلضِّيَاءُ
تَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ وَٱلْعَوَالِمَ نُورًا ، فَٱلثَّرَى مَائِجٌ بِهَا ، وَضَّاءُ
لَا وَعِيدٌ ، لَا صَوْلَةٌ ، لَا ٱنْتِقَامٌ ، لَا حُسَامٌ ، لَا غَزْوَةٌ ، لَا دِمَاءُ

وقوله يصف التنزيل على محمد :

فَلِجِبْرِيلَ جَيْئَةٌ وَرَوَاحٌ ، وَهُبُوطٌ إِلَى ٱلثَّرَى ، وَٱرْتِقَاءُ
يَحْسَبُ ٱلْأُفْقُ ، فِي جَنَاحَيْهِ نُورٌ ، سُلِبَتْهُ ٱلنُّجُومُ وَٱلْجَوْزَاءُ[1]
تِلْكَ آيُ ٱلْفُرْقَانِ أَرْسَلَهَا ٱللـ ـهُ ضِيَاءً يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
نَسَخَتْ سُنَّةَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلرُّسْـ ـلِ كَمَا يَنْسَخُ ٱلضِّيَاءُ ٱلضِّيَاءُ

وشوقي مولع بذكر الانبياء والملائكة والقديسين، والجنة وحورها وولدانها . ومولع بالتلميح الى الحوادث الدينية المشهورة ومولع خصوصاً بالتحدث عن المسيح لا يترك سانحة الا ذكره فيها . فاذا نعت نفسه بالصفح والرحمة تشبه بابن مريم فقال :

وَلَا بِتُّ إِلَّا كَٱبْنِ مَرْيَمَ مُشْفِقًا ، عَلَى حُسَّدِي ، مُسْتَغْفِرًا لِعِدَاتِي

واذا ذكر الدستور، شبهه بعيسى، ورأى فيه شفاء لعميان البصائر، وانهاضاً للمقعدين الخاملين :

فَدَاوِ بِهِ ٱلْبَصَائِرَ فَهْوَ حَيٌّ ، وَهُنَّ بِرَاحَتَيْهِ ٱلْمُقْعَدِينَا[2]

ولا يتحرج ان يجاري عقيدة النصارى في المسيح، فيعترف بصلبه وقيامته . قال يخاطب توت عنخ امون بعد نبش آثاره :

خَرَجْتَ مِنَ ٱلْقُبُورِ خُرُوجَ عِيسَى ، عَلَيْكَ جَلَالَةٌ فِي ٱلْعَالَمِينَا

---

(١) في هذا البيت تقديم وتأخير . والمراد : في جناحي جبريل نور يحسبه الافق انه مسلوب من النجوم والجوزاء . (٢) الخطاب للملك فؤاد . والضمير في به للدستور .

وقد يتخذ المسيح والصليب حجة له في مخاطبة دول النصارى بالشؤون السياسية قال في اندلسيته الجديدة :

عِيسَى سَبِيلُكَ رَحْمَةٌ ، وَمَحَبَّةٌ ، فِي ٱلْعَالَمِينَ ، وَعِصْمَةٌ ، وَسَلَامُ
مَا كُنْتَ سَفَّاكَ ٱلدِّمَاءِ ، وَلَا ٱمْرَأً ، هَانَ ٱلضِّعَافُ عَلَيْهِ وَٱلْأَيْتَامُ
يَا حَامِلَ ٱلْآلَامِ عَنْ هٰذَا ٱلْوَرَى ، كَثُرَتْ عَلَيْهِ ، بِٱسْمِكَ ، ٱلْآلَامُ

وقال يخاطب اللورد أللنبي بعد رفع الحماية عن مصر :

يَا فَاتِحَ ٱلْقُدْسِ ، خَلِّ ٱلسَّيْفَ نَاحِيَةً ، لَيْسَ ٱلصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ ، بَلْ خَشَبَا
إِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَيْنَ ٱنْتَهَتْ يَدُهُ ، وَكَيْفَ جَاوَزَ فِي سُلْطَانِهِ ٱلْقُطْبَا
عَلِمْتَ أَنَّ وَرَاءَ ٱلضُّعْفِ مَقْدُرَةً ، وَأَنَّ لِلْحَقِّ ، لَا لِلْقُوَّةِ ، ٱلْغَلَبَا .

فالدين كما ترى بل الاديان على اختلافها ، تشغل جانباً عظيماً من منظومات الشاعر .

الوصف

فتح شوقي للوصف باباً رحبا في شعره، وتناول الموصوفات على شتى انواعها، واجاد نعتها وتصويرها . وهو بارع في الاوصاف المدية اكثر منه في الاوصاف المعنوية، يجيد نعت اعضاء المرأة، وحسن صورتها . وقد يضيق بوصف لواعج الحب، واثر الغيرة في النفس، وتصوير عواطف المرأة، وطباعها، واهوائها . ويحسن نعت الطبيعة الناضرة الباسمة، وعرض مفاتنها، واتساق الوانها . ويقصر في تصوير احساسه بها، واتحاد روحه بروحها . ويمعن في ذكر المغنين، ومدح اصواتهم . وقلما عني بوصف الغناء، واظهار مواطن الجمال فيه فعل ابن الرومي .

واوصافه منها قديمة ينسحب بها على اذيال المتقدمين كوصف الخمر والمرأة . ومنها جديدة كوصف الرقص الحديث، وحضارة المدن الغربية وآثار الفراعنة، وصبيان المكتب، والطيارات، والغواصات . ومنها بين القديم والحديث كوصف الطبيعة، والحرب، والرسوم والآثار، والمدن المنكوبة .

وله صور رائعة ترسم المشهد المتعدد الحالات، بايجاز قوي، وسرعة فائقة، كوصف غرق السفينة :

طُعِنَتْ، فَانْبَجَسَتْ، فَاسْتَصْرَخَتْ، فَأَتَاهَا حَيْنُهَا، فَهْيَ خَبَرْ[1]

ووصفه درجات الحب :

نَظْرَةٌ، فَابْتِسَامَةٌ، فَسَلَامٌ، فَكَلَامٌ، فَمَوْعِدٌ، فَلِقَاءُ

ووصفه انطلاق المدفع :

إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أُفْقٌ، عَلَى جَنَبَاتِهِ، وَأَسْوَدَّ أُفْقُ

وينطلق به خيال جميل مجنح، يطير الى الصور المخدّرة، فيهتك حجابها ويمسحها

(١) هذه السفينة اغرقتها غواصة، لذلك قال طُعنت .

بشتى الالوان ، ويجسمها ، ويحيي ميتها . كوصفه الريح وقد مرت على بردى ، فارتدّت بليلة :

وَقَدْ صَفَا بَرَدَى لِلرِّيحِ ، فَٱبْتَرَدَتْ لَدَى سُتُورٍ ، حَوَاشِيهِنَّ أَفْنَانُ
ثُمَّ ٱنْثَنَتْ لَمْ يَزُلْ عَنْهَا ٱلبَلَالُ ، وَلَا جَفَّتْ مِنَ ٱلْمَاءِ أَذْيَالٌ وَأَرْدَانُ

الغزل

تغزل شوقي، ولكنه لم يبرع في هذا الفن براعته في غيره من الاغراض . لان الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر ان يحس تأثيرها في نفسه . فان لم يكن لألم الحب من سلطان على قلبه، فهيهات ان يأتي بغزل عاطفي صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقي لم يكن من المتيمين المتألمين، ولا من العشاق الروحانيين، وانما هو صاحب لذة يتتبعها في مواطنها، فما تحرمه سعة يده الوصول اليها . فلم يشعر بذلك الالم الذي يشعر به من يغرى بشيء ويصعب عليه نيله ، فيأسف عليه، ويأسى، وتثور عاطفته وجداً وكمداً . فيلفظها لسانه، قطعاً دامية من افلاذ كبده .

ولم يكن شوقي مجاهراً بلذته، فيستر عجزه عن بث لواعجه بغشاء من القصص الغرامي . لان البيئة التي وجد فيها قضت عليه بالترصن والتستر . فشاعر الخديوي لا يصح له ان يكون مستهتراً، بل لا يصح له ان يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً، واراد نشرها في جريدة الحكومة، فتوعز بطانة الامير الى مدير المطبعة ان يسقط الغزل منها، كما اصاب قصيدته : خدعوها بقولهم حسناء .

ومثل هذا التعرض من الحكومة يخمد نشاط الشاعر الى النسيب، ويحمله على الاقتصاد فيه، وقلة التبسط في شرح احواله .

وشوقي في غزله مقلد متكلف ، يترسم البهاء زهير في سهولة الفاظه ، ولين تعابيره ، وخفة اوزانه، وابتذال معانيه :

مُضْنًى ، وَلَيْسَ بِهِ جِرَاكْ ، لٰكِنْ يَخِفُّ إِذَا رَآكْ

فكأنه ينظم هذا الشعر، لا رغبة في النسيب، وانما ليتغنى به المغنون .

ويعارض ابا الحسن الحصري القيرواني في قصيدته الشهيرة : يا ليلُ، الصبُّ متى غدُهُ ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ ، وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُوَّدُهُ

ويحاول ان يحتذي على مثال ابن ابي ربيعة في زياراته الليلية، فيطرق فتاة الحي، وتزجره النساء. حتى اذا عرفنه، طابن منه الامان للعذارى. ولكنه يقصر عن عمر اشواطاً، سواء في الصراحة والصدق، او في جمال القصص والحوار.

ويصطنع غزل الشعراء الفرسان، فيمزج الفاظ الحب بالفاظ الحرب، وهو لم يشهد وغى، ولا حمل سيفاً ولا رمحاً:

فَلَكَمْ رَجَعْتُ مِنَ ٱلْأَسِنَّةِ سَالِمًا ، وَصَدَرْتُ عَنْ هِيفِ ٱلْقُدُودِ طَعِينَا

ويدخل الحكمة في نسيبه كالمتنبي:

وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْغَدْرَ فِي ٱلنَّاسِ شَائِعٌ ، وَأَنَّ خَلِيلَ ٱلْغَانِيَاتِ مُضَيَّعُ

ويخشوشن مثله، فيقاتل العيون، كما قاتل استاذه الخدود:

يَا قَاتَلَ ٱللهُ ٱلْعُيُونَ فَإِنَّهَا ، فِي حَرِّ مَا نَصْلَى، ٱلضَّعِيفُ ٱلْبَادِي

ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومي:

وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ، فَرْعِكِ وَٱلدُّجَى، وَلَثَمْتُ كَٱلصُّبْحِ ٱلْمُنَوِّرِ فَاكِ

وهو مقلد في وصف محبوبه، يعنيه ان ينعت شعره وعينيه، وثغره، ورضابه وقوامه. ويخصه بالتشابيه المبتذلة: بالليل، والسيوف، واللؤلؤ، والكوثر، والغصن وقلما يلتفت الى وصف العواطف، والاهواء، وما يعتاد النفس من شوق وصبابة وغيرة وحرقة، وخوف وامن، ويأس ورجاء. او الى تصوير طباع محبوبه، وما يلتقطه من حركاته وسكناته، وغنجه ودلاله. بيد انه يذكر طول ليله، ويراعي النجم، ويتحدث الى الحمام، ويشكو وينّ ويتظلم متشبهاً بالشعراء المتيمين.

ولا يخلو غزله من جمال الفن وحسن الصناعة، وان خلا من صدق العاطفة، وجد المعنى. وقد تخضع له ابكار المعاني، ولا تستسلم بنات العواطف كقوله:

صُونِي جَمَالَكِ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ ، مِنَ ٱلتُّرَابِ وَهٰذَا ٱلْحُسْنُ رُوحَانِي
أَوْ فَٱبْتَغِي فَلَكًا ، تَأْوِينَهُ مَلَكًا ، لَمْ يَتَّخِذْ شَرَكًا ، فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْفَانِي

المدح

لم يكن شوقي اول الامر يرى خيراً في المدح، وانما كان يأسف ان يُتخذ الشعر حرفة للتكسب . وقد اعرب عن هذا الرأي في مقدمة ديوانه الاول، ونعى على الشعراء الذين يضيعون شعرهم بالمديح . ولكنه اعترف بانه ينهى عن خلق ويأتي مثله، واعتذر بقوله: انه قرع ابواب الشعر، ولم يجد امامه الا دواوين لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عالٍ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمى . فما زال يتمنى هذه المنزلة حتى بلغها، واصطنع المديح، واتبع القدماء. لانه رأى ان الخير في الاحتراس من مفاجأة الناس بالشعر الجديد دفعة واحدة .

واذا عدنا الى منظوماته في صباه نرى انه كان يحاول ان يتخذ للشعر وجهة جديدة تبعد به عن القديم البالي . ولكن الاقدار عاكسته من حيث سالمته، واصابه ما اصاب شعراء العرب من قبل: حظوة عند الامراء، ورزق واسع، وشاعرية مقيدة، مرهونة بالمديح، وما يشبه المديح. فقنع من دنياه بان يكون:

شَاعِرُ ٱلْعَزِيزِ وَمَا بِٱلْقَلِيلِ ذَا ٱللَّقَبُ

فانصرف الى المدح الذي كان يمقته، ويجد به غضاضة على الشعر والشعراء . فأنس به بعد استيحاش، وحالفه بعد خلاف . ولم يتحرج من الغلو الممقوت والتزلف والتذلل . ولم يجزع من التقهقر مآت من السنين الى الوراء :

وَقِيلَ: «ٱبْنُ رَبِّ ٱلنِّيلِ!» فَٱفْتَرَّتِ ٱلْقُرَى، وَنَاجَى ٱلثَّرَى نَعْلَيْكَ يَسْتَوْهِبُ ٱلْخِصْبَا

. . . .

فَٱسْمَعْ لِعَبْدِكَ، وَٱبْنِ عَبْدِكَ مَنْطِقًا، مُتَطَايِرًا بِكَ فِي ٱلْقَوَافِي صِيتُهُ

. . . .

إِلَيْكَ عَزِيزَ ٱلْمَالِكِينَ بَعَثْتُهَا، تُقَبِّلُ عَنِّي، دُونَ أَعْتَابِكَ ٱلتُّرْبَا

وبلغ من افراطه في تمويه الحقيقة أن جعل عصر عبد الحميد خير العصور على الرعية :

عُمَرٌ أَنْتَ ، بَيْدَ أَنَّكَ ظِلٌّ لِلْبَرَايَا ، وَعِصْمَةٌ ، وَسَلَامُ
مَا تَتَوَّجْتَ بِالْخِلَافَةِ حَتَّى تُوِّجَ الْبَائِسُونَ ، وَالْأَيْتَامُ
وَسَرَى الْخِصْبُ وَالنَّمَاءُ وَوَافَى الْـ بِشْرُ ، وَالظِّلُّ ، وَالْجَنَى ، وَالْغَمَامُ

وكان معجباً بمدائح البحتري ، وحسن ديباجته . فلما اراد ان يصف موكب عباس في يوم عيده ، لم يغفل عن معارضة الوليد في رائيته التي وصف بها موكب المتوكل يوم الفطر . فتوكأ عليها ، وتعلق بالفاظها ومعانيها ، ولكنه انحدر عنها انحداراً مشؤوماً . قال في مطلعها متغزلاً :

أَشْكُو هَوَاكِ لِمَنْ يَلُومُ فَيَعْذِرُ ، وَأُجَادِلُ الْعُذَّالَ فِيكِ ، وَأُكْثِرُ

ويثب فيها الى المدح وثباً كصاحبه البحتري حتى يصل الى وصف الموكب :

بَاكَرْتَ دَارَ الْمُلْكِ فِيهِ بِمَوْكِبٍ ، قَامَ السَّرَاةُ بِهِ ، وَحَفَّ الْعَسْكَرُ[1]
رَاعَتْ رَوَائِعُهُ النَّهَارَ جَلَالَةً ، فَالشَّمْسُ تُجْفِلُ ، وَالضُّحَى تَسْتَأْخِرُ
كُسِيَ الْحَمِيسُ بِهِ جَمَالَكَ رَوْنَقاً ، وَأُعِيرَ غُرَّتَكَ اللِّوَاءُ الْأَحْمَرُ
فَالْأَرْضُ مَائِجَةُ الْمَذَاهِبِ بِالْقَنَا ، وَالْأُفْقُ حَالٍ بِالسُّيُوفِ ، مُجَوْهَرُ

غير انه بعد رجوعه من الاندلس ، وتخلصه من شرك القصر ، تغيرت صبغة مدائحه ، فذهب عنها الغلو الكاذب . وترفعت عن العبودية والزلفى ، وان لم تتنزه في الجملة عن التقليد . فاصبح الشاعر يتخذ من المدح وسيلة الى النصح والارشاد ، وطلب الاصلاح والعمران كقوله يمدح الملك فؤادا :

فَعَجِّلْ يَا ابْنَ إِسْمَاعِيلَ عَجِّلْ ، وَهَاتِ النُّورَ ، وَاهْدِ الْحَائِرِينَا[2]
هُوَ الْمِصْبَاحُ ، فَأْتِ بِهِ وَأَخْرِجْ ، بِنَا الْكَهْفِ السَّوَادَ الْغَافِلِينَا

---

(١) به : اي بيوم العيد . (٢) النور : كناية عن الدستور .

مَلَايِينٌ تَجُرُّ ٱلجَهْلَ قَيْدًا ، وَتُسْحَبُ بِٱلقَلِيلِ ٱلمُطْلَقِينَا[1]
فَدَاوِ بِهِ ٱلبَصَائِرَ فَهْوَ عِيسَى ، وَفُكَّ بِرَاحَتَيْهِ ٱلمُقْعَدِينَا

وممدوحو شوقي كثر؛ فمن الامراء العلويين : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، والحسين ، وفؤاد . ومن الخلفاء : عبد الحميد الثاني ، ومحمد رشاد . ومن الرؤساء والزعماء : مصطفى كمال ، وسعد زغلول . ومن الدول : فرنسة ، وانكلترة . ومهما تعدد ممدوحوه من امراء مصر ؛ فهو صادق العاطفة ، يخلص لهم الولاء جميعاً ، وان اختلفت لهجته في مخاطبتهم باختلاف زمانه ومكانه . وهو صادق في مدح الاتراك ، ملكيين كانوا او جمهوريين . واصفى مودة لفرنسة منه لانكلترة .

---

(١) وتُسحب الخ : اي يسحبها اشخاص قليلون هم الذين اطلقوا من ذاك القيد .

الرثاء

توفر شوقي على الرثاء اكثر منه على المدح لان مدائحه كادت لا تتجاوز طبقة الملوك والامراء والزعماء . واما مراثيه فقد عمت طبقات مختلفة . فانتظم له منها شيء غير قليل . ولقي بسببها لوم النقاد وعنتهم؛ والى هذا يشير في بعض مرثياته :

يَقُولُونَ يَرْثِي ٱلرَّاحِلِينَ فَوَيْحَهُمْ ، أَأَمَّلْتُ عِنْدَ ٱلرَّاحِلِينَ ٱلْجَوَائِزَا !

ولا نكير ان الشاعر صادق، لم يتخذ الرثاء اداة للتكسب والزلفى، بل كان يندفع اليه اما بعامل التأثر، واما بعامل الواجب، واما ارضاء للحاسة الفنية في نفسه . وكان صادق الولاء في كثير من مراثيه، بادي الحزن والاسف . غير انه لم يكن بكّاء عاطفياً، ولا مصوراً للوعته وحزنه، ووقع المصاب عليه ؛ حتى في رثائه لاحب الناس اليه كابيه وامه وجدته ، والامير توفيق ولي نعمته . فكأن قواه العاقلة تأبى عليه ان يستسلم الى الضعف والجزع عند حلول النوائب . وتزين له الصبر والترصن والحكمة . فكان رثاؤه لابيه تفلسفاً اكثر منه تفجعاً :

أَنَا مَنْ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ أَنَا ، لَقِيَ ٱلْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنْ
نَحْنُ كُنَّا مُهْجَةً فِي بَدَنٍ ، ثُمَّ صِرْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنَيْنْ
ثُمَّ عُدْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنٍ ، ثُمَّ نُلْقَى جُثَّةً فِي كَفَنَيْنْ
ثُمَّ نَحْيَا فِي عَلِيٍّ بَعْدَنَا ، وَبِهِ نُبْعَثُ أُولَى ٱلْبَعْثَتَيْنْ[1]

ونعيت اليه والدته وهو بالاندلس، وهي بمصر، فتذكر المتنبي عندما نعيت اليه جدته وهو بعيد عنها . واراد الرثاء فغلب عليه حب المعارضة، فخضع لارادته، مع ما هو عليه من الحزن والالم ، فجاءت مرثيته متكلفة ظاهرة التقليد ، تعرج عرجاً وراء قصيدة ابي الطيب . وقد صدرها بالشكوى والحكم المبتذلة حتى وصل الى

(١) علي : ابنه البكر .

قوله . وفيه التقليد البيّن :

لَكِ اللهُ مِنْ مَطْعُونَـةٍ بِقَنَا ٱلنَّوَى، شَهِيدَةِ حَرْبٍ، لَمْ تُقَارِفْ لَهَا إِثْمَا
سَقَاهَا بَشِيرِي، وَهْيَ تَبْكِي صَبَابَةً، فَلَمْ يَقْوَ مَغْنَاهَا عَلَى صَوْبِهِ رَسْمَا[1]
أَسَتْ جُرْحَهَا ٱلْأَنْبَاءُ غَيْرَ رَفِيقَةٍ، وَكَمْ تَأْزَعِ سَهْماً، فَكَانَ هُوَ ٱلسَّهْمَا
تَغَارُ عَلَى ٱلْحُسْنَى ٱلْفَضَائِلُ وَٱلْعُلَا، لِمَا قَبَّلَتْ مِنْهَا، وَمَا ضَمَّتِ ٱلْحُسْنَى

ولم يغفل عن التبجح بنفسه حتى الافراط اسوة بابي الطيب :

أَتَيْتِ بِهِ لَمْ يَنْظِمِ ٱلشِّعْرَ مِثْلُهُ، وَجِئْتِ لِأَخْلَاقِ ٱلْكِرَامِ بِهِ نَظْمَا
وَلَوْ نَهَضَتْ عَنْهُ ٱلسَّمَاءُ، وَمَخَّضَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ، كَانَ ٱلْمُزْنَ، وَٱلتِّبْرَ، وَٱلْكَرْمَا[2]

ولم يكن رثاؤه لجدته خيراً من رثائه لامه، ولا اقل تقليداً للمتنبي . واما رثاؤه لتوفيق، فاوله حكم عامة ومغالاة بالرزء، ثم وصف للميت، ثم مدح وتهنئة بالامارة لابنه عباس .

ومراثي شوقي في الجملة تفجع على الميت، بتعظيم الخسارة فيه، واظهار مناقبه واعماله . واستطراد الى الحكم والمواعظ، او الى اغراض في السياسة والعمران . وربما اتخذ من حرفة الميت اداة للرثاء . كقوله في عثمان باشا غالب وكان عالماً بالنبات :

ضَجَّتْ لِمَصْرَعِ غَالِبٍ، فِي ٱلْأَرْضِ مَمْلَكَةُ ٱلنَّبَاتِ
أَمْسَتْ بِتِيجَانٍ عَلَيْـ ـهِ مِنَ ٱلْحِدَادِ مُنَكَّسَاتِ

ومن خصائصه ان يتحدث الى الاموات، فاما يسألهم عن الآخرة، او عن الاولى، او عن الاشياء التي كانوا يتعاطونها في الحياة . واما يكلفهم القيام من قبورهم لينظروا الى ما استجد بعدهم من الامور السياسية والعمرانية . قال في رياض باشا :

---

(١) يقول : سقاها المبشر برجوعي من الاندلس، صوباً هطالاً من السرور وهي تبكي شوقاً، فلم يستطع رسم مغناها اي جسمها الضعيف ان يحتمل هذا المطر القوي . (٢) السماء : السحاب . يقول : لو ارتفع عنه السحاب متبخراً ، او لو تمخضت به الارض لتلد شيئاً، لكان للسحاب مطراً بكرمه، وللارض ذهباً بنفاسته ، وكرماً بشمره اي خمراً تسكر .

رَهِينَ ٱلرَّمْسِ حَدِّثْنِي مَلِيًّا ، حَدِيثَ ٱلْمَوْتِ تَبْدُ لِيَ ٱلْعِظَاتُ
سَأَلْتُكَ : مَا ٱلْمَنِيَّةُ ؟ أَيُّ كَأْسٍ ؟ وَكَيْفَ مَذَاقُهَا ، وَمَنِ ٱلسُّقَاةُ ؟

وقال في الحسين بن علي ملك الحجاز :

قُمْ تَحَدَّثْ أَبَا عَلِيٍّ إِلَيْنَا ، كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جِوَارِ ٱلْأَرَاقِمِ[1]

وقد يشبه المرثي بالشمس القافلة، متمنياً ان يكون يوشع ليردها عن مغيبها . قال في سعد زغلول باشا :

شَيَّعُوا ٱلشَّمْسَ وَمَالُوا بِضُحَاهَا ، وَٱنْحَنَى ٱلشَّرْقُ عَلَيْهَا ، فَبَكَاهَا
لَيْتَنِي فِي ٱلرَّكْبِ لَمَّا أَفَلَتْ ، يُوشَعٌ ، هَمَّتْ ، فَنَادَى ، فَثَنَاهَا

وكان له بالمغنين صلات وثيقة لعنايتهم بتلحين شعره، والتغني فيه . فلم يمت مغنّ محسن في مصر الا خصه برثية . فقد رثى عبده الحمولي ، وعبد الحي، والشيخ سلامة حجازي، والشيخ سيّد درويش . قال في عبده الحمولي :

سَاجِعُ ٱلشَّرْقِ طَارَ عَنْ أَوْكَارِهْ ، وَتَوَلَّى فَنٌّ عَلَى آثَارِهْ

ومنها البيت المشهور :

يَسْمَعُ ٱللَّيْلُ مِنْهُ فِي ٱلْفَجْرِ يَا لَيْـ ـلُ فَيُضْفِي مُسْتَنْهِلًا فِي فِرَارِهْ

وقال في عبد الحي :

رُحْمَاكَ عَبْدَ ٱلْحَيِّ أُمُّكَ شَيْخَةٌ ، قَعَدَتْ ، وَهِيضَ لَهَا ٱلْغَدَاةَ جَنَاحُ
كُسِرَتْ عَصَاهَا ٱلْيَوْمَ ، فَهْيَ بِلَا عَصاً ، وَقَضَى فَتَاهَا ٱلْأَجْوَدُ ٱلْمِسْمَاحُ

ويختمها :

قُمْ غَنِّ وِلْدَانَ ٱلْجِنَانِ وَحُورَهَا ، وَٱبْعَثْ صَدَاكَ ، فَكُلُّنَا أَرْوَاحُ

وله مراثٍ في جماعة من الشعراء والكتاب المشهورين كاسماعيل صبري باشا، وحافظ ابرهيم، وجرجي زيدان ، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ويعقوب صرّوف،

---

(١) الاراقم : الحيات، والمراد الحلفاء الذين انضم اليهم الحسين في الحرب العامة .

ومحمد المويلحي . وفي طبقة من زعماء السياسة والاجتماع في مصر : كمصطفى كامل، وسعد باشا زغلول، وبطرس باشا غالي، وثروت باشا، ومصطفى باشا فهمي، ورياض باشا، وقاسم امين نصير المرأة .

وربما تناول بمراثيه عظماء الشرق والغرب ، كرثائه لنجل امام اليمن ، وفوزي الغزي الزعيم السوري، والملك حسين بن علي ، والشاعر الموسيقي الايطالي فردي، وفيكتور هيغو ، وتولستوي . واجمل رثائه ما بكى فيه على ممالك المسلمين البائدة، ومدنهم المنكوبة، فان عاطفة الدين تُشيع به روعة وجلالاً . فمن ذلك بكاؤه على ادرنة، وعلى دمشق، وعلى الخلافة بعد ان محاها الغازي مصطفى كمال .

الفخر

ليس لشوقي قصائد في الفخر قائمة برأسها، وانما له ابيات متفرقة، يفتخر فيها على الغالب بشعره وسيرورته، متوسماً خطة ابي الطيب المتنبي . وربما افتخر بنسبه في الترك، وبكرم اخلاقه :

رُوَاةُ قَصَائِدِي، فَأَعجَبْ لِشِعْرٍ، بِكُلِّ مَحَلَّةٍ ، يَرْوِيهِ خَلْقُ

. . . .

وَأَرْسَلْتُهَا فِي سَمَاءِ ٱلْخَيَالِ، تَجُرُّ عَلَى ٱلنَّجْمِ أَذْيَالَهَا

الحكمة والاخلاق

لم يكن شوقي فيلسوفاً صاحب مذهب خاص يشيد به، ويدعو اليه . وانما كان شاعراً مثقفاً، مطلعاً على طرف صالح من الفلسفة الاسلامية . فكانت له اراء في الحياة والاجتماع، توكأ في اكثرها على الاقدمين . فقال مثلهم بوحدة النفس الكلية، وتنقل اجزائها في الذراري الى ان تفنى الاعيان، فتعود الى مقرها الازلي . وقد اشار الى هذا التنقل في رثائه لابيه : « انا من مات ومن مات انا . » وتحدث عن النفس في قصيدة اخرى، عارض بها سينية الرئيس ابن سينا، فقاده حب المعارضة الى ان يجاريه في رأيه الافلاطوني . فقال بان النفس الجزئية اهبطت الى الجسم من عالم الارواح . وشبه النفس الكلية بالشمس، والنفوس الجزئية بالاشعة، تطلع على العامر والغامر . فاذا انطوت الحياة، ترجع النفوس الجزئية الى مصدرها الكلي كما ترجع الاشعة الى الشمس عندما ينطوي النهار :

يَا نَفْسُ مِثْلُ ٱلشَّمْسِ أَنْتِ : أَشِعَّةٌ ... فِي عَامِرٍ ، وَأَشِعَّةٌ فِي بَلْقَعِ
فَإِذَا طَوَى ٱللهُ ٱلنَّهَارَ تَرَاجَعَتْ ، ... شَتَّى ٱلْأَشِعَّةِ ، فَٱلْتَقَتْ فِي ٱلْمَرْجِعِ

على ان هذا المذهب لم يكف الشاعر مؤونة التطلع الى ما بعد الطبيعة، لاستشفاف تلك الاسرار المغلقة على ابناء هذه الحياة :

يَا صَاحِبَ ٱلْعُصُرِ ٱلْخَالِي أَلَا خَبَرٌ ، ... عَنْ عَالَمِ ٱلْمَوْتِ يَرْوِيهِ ٱلْأَلِبَّاءُ !
أَمَّا ٱلْحَيَاةُ ، فَأَمْرٌ قَدْ وَصَفْتَ لَنَا ، ... فَهَلْ لِمَا بَعْدُ ، تَمْثِيلٌ وَإِدْنَاءُ ؟

فاذا عزّه الامر وقف حائراً عاجزاً، كما وقف المتنبي والمعري قبله :

فِي ٱلْمَوْتِ مَا أَعْيَا ، وَفِي أَسْبَابِهِ ، ... كُلُّ ٱمْرِئٍ رَهْنٌ بِطَيِّ كِتَابِهِ

وقد ينتحل رأي ابي العلاء في ان الروح هي الجانية على الجسم والمسببة لفنائه :

فَإِنَّ ٱلْحَيَاةَ تَفُلُّ ٱلْحَدِيدَ، إِذَا لَبِسَتْهُ، وَتُبْلِي ٱلْحَجَرْ[1]

واطلق بعضهم على شوقي لقب شاعر الاخلاق؛ ولا ندري اكان هذا اللقب من اجل ما له من الشعر في التربية والتهذيب الاجتماعي، ام كان من اجل استمساكه بلفظة الاخلاق، وترادفها في منظوماته عشرات المرار، حتى صار بها الى الابتذال، وبدا تطفلها في معظم شعره . وحسبك منها قوله :

وَإِنَّمَا ٱلْأُمَمُ ٱلْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ، فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ، ذَهَبُوا

فهذا البيت من الامثال السائرة. فتح لشوقي معناه، ووفق فيه، ولكنه افسده، ووضع قدره بكثرة تكراره له :

وَإِنَّمَا ٱلْأُمَمُ ٱلْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ، فَإِنْ تَوَلَّتْ، مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدُمَا

. . . .

كَذَا ٱلنَّاسُ بِٱلْأَخْلَاقِ يَبْقَى صَلَاحُهُمْ، وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ، حِينَ تَذْهَبُ،

. . . .

وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ، وَهْيُ خُلْقٍ، فَإِنَّهُ وَهْيُ أُسِّ

. . . .

وَإِذَا أُصِيبَ ٱلْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ، فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلَا

. . . .

وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ، إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

وليست هذه الابيات جميع ما ورد له في هذا المعنى، وانما هي بعضٌ من كل، والذي اغفلناه اكثر من الذي اثبتناه . واما ما ورد من لفظ الاخلاق في معانٍ اخرى، فشيء لا يعد ولا يحصى .

---

(١) قال ابو العلاء :

ولو سكنت جبالَ الأرضِ رُوحٌ، لما خَلَدت نَضَادٍ، ولا إرابُ

نضادٍ، كقَطامٍ : جبل بالعالية . إراب : من مياه البادية .

واقوال شوقي في التربية والاصلاح، والحض على العلم والعمل، وترك الصفات الرديئة كثيرة. ومنها ما يجري مجرى الامثال :

تَرْكُ ٱلنُّفُوسِ بِلَا عِلْمٍ، وَلَا أَدَبٍ، تَرْكُ ٱلْمَرِيضِ بِلَا طِبٍّ، وَلَا آسِ

. . . .

مَا فِي ٱلْحَيَاةِ، لِأَنْ تُعَا تِبَ، أَوْ تُحَاسِبَ، مُتَّسَعْ

. . . .

وَلَوْ زَادَ ٱلْحَيَاةَ ٱلنَّاسُ سَعْيًا، وَإِخْلَاصًا، لَزَادَتْهُمْ جَمَالَا

. . . .

إِنَّ ٱلْغُرُورَ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةً، كَٱلزَّهْرِ يُخْفِي ٱلْمَوْتَ، وَهْوَ زُؤَامُ

. . . .

إِنْ مَلَكْتَ ٱلنُّفُوسَ، فَٱبْغِ رِضَاهَا، فَلَهَا ثَوْرَةٌ، وَفِيهَا مَضَاءُ

الشعر التعليمي

كان شوقي في اول عهده بالشعر، يتحرى الاغراض العامة الطليقة، ويأنس بها اكثر من سواها . وقد راقه منها الشعر التعليمي للاطفال، من اناشيد وطنية ومدرسية، ومن اساطير على لسان الحيوان اشبه باساطير لافنتين . وكان يجتمع باحداث المصريين ويتلو عليهم من هذه الاساطير ليرى وقعها في نفوسهم . فانتظم له تسعة اناشيد منها ما لا يتجاوز البيتين، واحدى وخمسون خرافة . والظاهر انه كان ينوي ان يتوفر على هذه الاشياء ويكثر منها مستعينا بصديقه خليل مطران [1] فلما التمع نجمه في دار الامير، اعرض عنها وانصرف الى غيرها .

وهو في اناشيده يدعو الاحداث الى محبة الوطن، ويذكرهم بتاريخه وامجاده . او يجعل لهم منها ادعية اشبه بصلوات تتلى في اوقات معلومة، كدعاء الصباح، ودعاء النوم، ودعاء الخطب، ودعاء اشتداد المرض، وما شاكل .

واما اساطيره ففيها نقد وتصوير للاخلاق، على سخر لطيف في بعضها، أوردها على لسان الحيوان. وربما اشترك فيها الانسان . واكثرها يجري في سفينة نوح، او بين سليمان بن داود والحيوانات . وموضوعاتها منها ما هو من اختراعه، ومنها ما استقاه من خرافات المتقدمين، كاسطورة اليمامة والصياد، واسطورة القرد في السفينة . فالاولى تذكر بحكاية الضفدعة والبطتين في كليلة ودمنة . والثانية اشبه شيء بحكاية الراعي الكذوب والذئب، لاحد مخرجي الفرنسيس . وبعض هذه الاساطير مستقل في مغازيه، وبعضها الاخر مكرور متشابه المرامي .

ومغازيها الخلقية تتناول تأديب الملوك خاصة، والشعب عامة . واكثرها لا يختص بزمان ومكان، واقلها ما تصورت به حالة من احوال مصر او من احوال العصر . فحكاية ملك الغربان وندور الخادم امثولة حسنة الملك الذي يغفل عن صيانة ملكه

(١) ذكر ذلك في مقدمة ديوانه الاول .

من الطوارئ . وحكاية الاسد ووزيره الحمار، امثولة اخرى للسلطان الذي لا يحسن اختيار رجاله . وحكاية ولي عهد الاسد وخطبة الحمار ، تصور الاحمق الذي يريد ان يتخلق بخلق ليس فيه، فينال الاذى . وقصة القرد في السفينة، تطالعك بعاقبة الكذب على صاحبه . وقصة امة الارانب والفيل ، تدعو الى الاتحاد على العدو لقهره، وفيها تمثيل بين لمصر والاحتلال الانكليزي . واسطورة فأرة الغيط وفأرة البيت ، تمثل شبان العصر الذين يحتقرون حرفة ابائهم طامعين في ارفع منها فينالهم الخسران والهلاك . واسطورة النملة الزاهدة، تصور اولئك المتصوفين الذين يتكلون على غيرهم في تحصيل معاشهم .

وعلى الجملة، فهذه الحكايات تزين الاتحاد والتعاون، وتقبح الكسل والطيش والخيانة والخداع والعبودية . وتدعو الى حسن التربية ، واختيار المؤدب والمعاون . وتظهر مغبة تعجيل الامر قبل اوانه، وآفة ضعف النظر في العواقب، ومضار الاهمال والغفلة وغير ذلك مما يرمي الى تهذيب النفس وارشادها .

وشعرها كسائر الشعر التعليمي يخلو في اكثره من الروعة الادبية ، مكتفياً بمجرد الاخبار والعظة . ولولا لمحات من التصوير والاحساس في بعضه، لهبط في مجموعه عن مستوى الشعر الصحيح، ولم يبق له الا البحر والقافية . فمن صوره الجميلة :

أَلَمَّ عُصْفُورٌ بِمَجْرَى صَافِ ، قَدْ غَابَ تَحْتَ ٱلْغَابِ فِي ٱلْأَلْفَافِ[1]
يَسْقِي ٱلثَّرَى، مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي ٱلثَّرَى، خَشْيَةَ أَنْ يُسْمَعَ عَنْهُ ، أَوْ يُرَى

***

وَجَلَسَ ٱلْهِرُّ بِجَنْبِ ٱلْكَلْبِ ، وَقَبَّلَ ٱلْخَرُوفُ نَابَ ٱلذِّئْبِ

***

سَمِعْتُ بِأَنَّ طَاوُوساً ، أَتَى يَوْماً سُلَيْمَانَا
يُجَرِّرُ دُونَ وَفْدِ ٱلطَّيْـ ـرِ أَذْيَالًا وَأَرْدَانَا
وَيُظْهِرُ رِيشَهُ طُوْرًا ، وَيُخْفِي ٱلرِّيشَ أَحْيَانَا

(١) الالفاف : الاشجار الملتفة واحدها لِفّ .

ودونك الاحساس الشعري في الحمار والجمل :

الحمار : لَا بُدَّ لِي مِنْ عَوْدَةٍ لِلْبَلَدِ ، فَإِنَّنِي تَرَكْتُ فِيهِ مِقْوَدِي

الجمل : فَقَالَ : سِرْ وَالْزَمْ أَخَاكَ الْوَتَدَا ، فَإِنَّمَا خُلِقْتَ كَيْ تُقَيَّدَا

والحمار في السفينة :

سَقَطَ الْحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدُّجَى ، فَبَكَى الرِّفَاقُ لِفَقْدِهِ ، وَتَرَحَّمُوا

حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ أَتَتْ بِهِ نَحْوَ السَّفِينَةِ ، مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ

قَالَتْ : خُذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا ، لَمْ أَبْتَلِعْهُ لِأَنَّهُ لَا يُهْضَمُ

تحليل بعض الحكايات :

١ ـ اليمامة والصياد : كانت يمامة باعلى شجرة آمنة مستترة ، فمر بها صياد ولم يرها . فلما هم بالانصراف ، برزت له الحمقاء وقالت : « يا ايها الإنسانُ عمَّ تبحثُ ؟ » فرماها ، فسقطت وهي تقول : « ملكتُ نفسي لو ملكت منطقي . »

٢ ـ القرد في السفينة : كان في سفينة نوح قرد تعود الكذب ، فاراد ان يمزح يوماً ، فاخذ يصيح زاعماً ان موجة تريد ابتلاعه . فارسل نوح اليه النسور لتنقذه ، فوجدته سالماً . ثم صاح ثانية : « قد ثُقِبَتْ مَرْكَبُنا يا نُوحُ[1] ! » فأرسل نوح من حضر ، فلم يروا شيئاً مما ذكر . وبينما كان يوماً يلعب ، قذفت به السفينة الى الماء ، فاخذ يصيح ، وينوح ويستغيث ، فلم يصدقه احد ، لاشتهار كذبه .

٣ ـ ملك الغربان وندور الخادم : كان للغربان مليك ، عرشه قائم في نخلة عظيمة ، فجاءه يوماً خادمه ندور ، وقال له : ان سوسة دبت في جدران القصر ، واشار عليه ان يبعث الغربان في اهلاكها . فضحك السلطان مستخفاً وقال :

أَنَا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضَّافِي الْجَنَاحْ ، أَنَا ذُو الْمِنْقَارِ ، غَلَّابُ الرِّيَاحْ

أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هٰذِي الْأُمُورْ ، أَنَا لَا أُبْصِرُ تَحْتِي يَا نَدُورْ

ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامْ ، قَامَ بَيْنَ الرِّيحِ وَالنَّخْلِ خِصَامْ

---

(١) أنّث شوقي المركب مشاكلة للسفينة مع انه مذكر في الاصل .

وَإِذَا ٱلنَّخْلَةُ أَقْوَى جِـذْعُهَا ، فَبَـدَا لِلرِّيحِ سَهْلًا قَلْعُهَا
فَهَوَتْ لِلْأَرْضِ كَٱلتَّلِّ ٱلْكَبِيرْ ، وَهَوَى ٱلدِّيوَانُ ، وَٱنْقَضَّ ٱلسَّرِيرْ
فَدَهَى ٱلسُّلْطَانَ ذَا ٱلْخَطْبُ ٱلْهُولْ ، وَدَعَـا خَادِمَهُ ٱلْغَالِي يَقُولْ :
« يَا نَدُورُ ٱلْخَيْرُ أَسْعِفْ بِٱلصِّيَاحْ ، مَا تَرَى مَا فَعَلَتْ فِينَا ٱلرِّيَاحْ » !
قَالَ : « يَا مَوْلَايَ لَا تَسْأَلْ نَدُورْ ، أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هٰذِي ٱلْأُمُورْ »

٤ ـ ولي عهد الاسد وخطبة الحمار : ولد للاسد ولي عهده ، فجاءت سباع الارض والسماء تهنئه ، وعقدت مجالس الافراح ، فتكلم الفيـل والثعلب والقرد ، فاحسنوا جميعاً . ثم رفع الحمار عقيرته ، ليشرف عشيرته :

فَقَالَ : بِٱسْمِ خَالِقِ ٱلشَّعِيرِ ، وَبَاعِثِ ٱلْعَصَـا إِلَى ٱلْحَمِيرِ
فَأَزْعَجَ ٱلصَّوْتُ وَلِيَّ ٱلْعَهْدِ ، فَمَاتَ مِنْ رِعْدَتِهِ فِي ٱلْمَهْدِ
فَحَمَلَ ٱلْقَوْمُ عَـلَى ٱلْحِمَارِ ، بِجُمْلَةِ ٱلْأَنْيَـابِ وَٱلْأَظْفَارِ
وَٱنْتُدِبَ ٱلثَّعْلَبُ لِلتَّأْبِينِ[1] فَقَالَ فِي ٱلتَّعْرِيضِ بِٱلْمِسْكِينِ :
لَا جَعَـلَ ٱللهُ لَهُ قَرَارَا ، عَاشَ حِمَارًا وَمَضَى حِمَارَا

٥ ـ امة الارانب والفيل : كان لامة الارانب وطن تعمره مطمئنة اليـه ، مبتهجة به . فاختاره الفيل طريفا له ، يزق به اصحابـه . وكان فيهم ارنب لبيب مجرب ، فدعاهم الى الاتحاد على دفع العدو « فالاتحادُ قوةُ الضعاف . » فاجتمعوا للامر ، يتباحثون فيه ، فاشار بعضهم ان يحفروا هوة على طريق الفيل ، فيقع بها ، ويستريحوا من شره . فاستحسنوا رأيه ، وحفروا الهوة ، وهلك الفيل . فجاؤوا الى من اشار بحفرها يريدون تمليكه عليهم ، فابى وقال : ان صاحب الحق بالتاج والسرير ، من دعا معشر الارانب الى الاتحاد .

---

(١) اي لتأبين ولي العهد .

شوقي والتمثيل

حاول شوقي الفن التمثيلي وهو في فرنسة يطلب الحقوق . وكانت قصة علي بك الكبير باكورة مآسيه ، نظمها شعراً ثم اهملها ، واهمل فن التمثيل معها . وولّى وجهه ، بعد رجوعه الى مصر ، شطر المدح والرثاء وسواهما من الاغراض التي يعنى بها امثاله من شعراء البلاط عند العرب .

فلما تنكر له قصر الامارة ، بعد الحرب الكبرى ، وذهب ما كان له من أثر في نفسه وشعره ، عاوده الحنين الى التمثيل الذي افتتح به حياته الشعرية ، فأكب عليه يعالجه بنشاط الشباب ، وان ولّى زمانه . واقباله على هذا الفن يشرح لنا سبب إيلافه دور السينما في اواخر حياته .

وما كانت سنة ١٩٢٩ م حتى بدأ يطبع مآسيه وينشرها . فأخرج مصرع كليوباترا ، ثم نظر في علي بك الكبير ، فلم يرض عنها ، فعمد الى اصلاحها سنة ١٩٣٠ بعد ان مضى على وضعها نحو ثلاثين سنة . واشتغل معها بتأليف مجنون ليلى ، وقمبز ، والسيدة هدى ، والبخيلة . وفي سنة ١٩٣١ شرع يؤلف اميرة الاندلس وعنترة . وطبعت مآسيه كلها الا السيدة هدى والبخيلة .

مصرع كليوباترا

(١٩٢٩ م)

١ تاريخها

طبع شوقي هذه المأساة سنة ١٩٢٩ م وقدمها الى الامير فاروق ولي عهد الدولة المصرية، بابيات من الرجز، وذيلها بنظرات تحليلية، يرجح انها من صنعه . ومثلت في مصر عدة مرات فكان لها نصيب من النجاح لا بأس به .

٢ موضوعها

مصدر هذه المأساة تاريخ البطالسة في مصر . وموضوعها اواخر ايام كليوباترا، واستيلاء رومة على مملكتها في نحو السنة الثلاثين قبل الميلاد .

١ ـ الحوادث المتقدمة ـ تولت كليوباترا الملك بعد ابيها، فنازعها اياه احد اخوتها، فناصرها يوليوس قيصر، ووطد لها السلطان . فصحبته الى رومة، ولبثت عنده حتى اغتيل سنة ٤٤ ق م . فعادت الى الاسكندرية . ثم اغوت انطونيوس احد القواد الذين انتهى اليهم الحكم في رومة، فوقع في هواها، وانكر رومة من اجلها، ولزمها لا يستطيع فراقها . فغضبت المشيخة الرومانية من عمله، وبعثت اليه اكتافيوس القائد الآخر، فجاء باسطوله ليعاقبه ويستولي على مصر .

٢ ـ حوادث المأساة ـ اتحد اسطول انطونيوس واسطول كليوباترا على محاربة اكتافيوس، وحدثت بينهم واقعة اكتيوم البحرية، ففرت كليوباترا باسطولها في إبان المعمعة، وفر في اثرها انطونيوس . ثم التحم القائدان في معركة برية على اسوار الاسكندرية، فباء انطونيوس بالخذلان . ورأت كليوباترا ان حبيبها لا قبل له بحمايتها، ففزعت الى اكتافيوس ترجو ايقاعه في اشراكها، فطلب منها ان تتخلى عن انطونيوس، فتوارت في قصرها، واشاعت انها ماتت، فكره انطونيوس الحياة بعدها،

وانتحر . ثم تبين لها ان القيصر الظافر يروم بها شراً، فابت عليها نفسها ان يقتلها عدوها، او يدخل بها رومة أسيرة ذليلة . فقربت من صدرهـا ثعباناً سماً فنهشها وماتت .

٣ ـ الحوادث المخترعة ـ حافظ شوقي على سير الحوادث التاريخية كل المحافظة ولكنه صبغها بالوان جديدة جعلت كليوباترا ارفع نفساً، واعظم خلقاً . فهي لم تفرّ من وقعة اكتيوم جبناً او غدراً بحبيبها، انما السياسة المصرية قضت عليها بالفرار . وهي لم تخفِ نفسها وتشع خبر موتها تواطوءا مع اكتافيوس، انما الطبيب اولمبوس هو الذي خدع انطونيوس ونعاها اليه كذباً . وهي لم تحـاول ان تتصبى القيصر المنتصر، انما اتصلت به من اجل مفاوضات ظهر فيها خداعه واباؤها . وكذلك انطونيوس لم يفر في أثرها، ولكن شوقه اليها حمله عـلى ان يترك مطاردة عدوه الى الغد بعد انتصاره عليه .

واضاف الى الحوادث التاريخية غرام حابي وهيلانة، وانتحار هذه مع مولاتهـا كليوباترا، ثم نجاتها بترياق الكاهن انوبيس .

٣ الفصل

تجري حوادث هذه المأساة بالاسكندرية، مرة في مكتبة قصر كليوباترا، واخرى في احدى غرفه، وحيناً في حجرة الولائم، وآخر داخـل معبد الاسكندرية وخارجه . واخيراً في غرفة العرش .

الفصل الاول ـ انتصار القائد وغفلة العاشق ـ المنظر الاول : بينما كان امناء مكتبة كليوباترا يتحدثون برجوع اسطولها من معركة اكتيوم تحت الظـلام، اذا بهم يسمعون هتاف الشعب بانتصار الاسطول . ثم تدخل كليوباترا، فتسمع الهتاف فتنكر الامر، وتخبرهم انها تراجعت باسطولها عمـداً ليتفانى اسطولا القائدين الرومانيين :

مَوْقِفٌ يُعْجِبُ ٱلْعُلَا كُنْتُ فِيهِ بِنْتَ مِصْرٍ، وَكُنْتُ مَلِكَةَ مِصْرِ

المنظر الثاني : تلقى كليوباترا وصيفتها هيلانة، وامين مكتبتها حابي مجتمعين

في غرفة من قصرهـا . وكانت تعلم ان حابي يبغضها، ولكنها ارادت ان تعامله بالحسنى من اجل جاريتها الامينة، فعقدت زواجهما . ثم يدخل انطونيوس ويبشرها بانه انتصر على خصمه، الّا ان شوقه اليها جعله يرجئ مطاردتـه الى الغد، فتلومه على عمله :

تَرَكْتَهُمْ لِغَدٍ ؟ هٰذِي مُجَازَفَةٌ ، غَدٌ غُيُوبٌ ، وَأَسْرَارٌ ، وَأَقْدَارُ !

فيسألها ان تقل اللوم، وان تأمر بوليمة له ولقواده . حتى اذا انقضى الليـل استأنفوا الحرب « مخامير مجانين . »

الفصل الثاني ـ سوء سياسة كليوباترا ـ يجتمع المدعوون في حجرة الولائم، ويشربون ويطربون . فتثير الملكة سخط قواد انطونيوس، بتعصبها لمصر، وازدرائها رومة، حتى حملت العاشق الاعمى على ان يتبرأ من وطنه ارضاء لها .

الفصل الثالث ـ انتحار انطونيوس ـ يُرى الكاهن انوبيس مناجيا ذاته داخل المعبد ؛ ثم يُرى انطونيوس في خارجه يندب حظه، ويلوم نفسه عـلى ضعفه في الحب . واوروس غلامه الامين يعزيه، وقد خانته جنوده وقواده، ووالت عليه عدوه . ويأتي اولمبوس الطبيب فينقل اليه خبر انتحار كليوباترا . فيجزع ويبأس، ويستغفر رومة لانه عقها من اجل حبه . ويستغفر كليوباترا لانه ظن فيها الخيانة والغدر . ثم يطلب من اوروس ان يقتله، ليتخلص من حياته الشقية . فيأبى الغـلام ان يريق دم مولاه، ويؤثر الانتحار على تكلف ما لا يستطيع، وينتحر بعده انطونيوس .

وتدخل كليوباترا المعبد، فتسأل انوبيس عن حية سمها سريع الفتـك، خفيف الالم، لا يشوه الجمال . وتطلب منه ان يحفظها لها، حتى اذا امسى تاج مصر دريئـة الخطر، بعث بها اليها في سلة من التين .

ويمر جنديان رومانيان خارج المعبد، فيبصران انطونيوس صريعا فيحملانه الى داخله . فتخف اليه كليوباترا تناديه، فيستفيق من اغمائه، ويعلم ان اولمبوس خدعه . ثم يلفظ روحه، وتبكيه كليوباترا . ويدخل اكتافيوس، فيودعه ويقبل رأسه بعد ان يتحقق موته .

الفصل الرابع ـ مصرع كليوباترا ـ : كليوباترا في قصرها تناجي نفسها، وتذكر مراقبة اكتافيوس لها خشاة ان تهرب او تنتحر . لانه يروم ان يدخل بها رومة زينة لانتصاره . ويأتي حابي حاملا سلالاً من التين، فتعلم ان الكاهن ابى طلبها عندما رأى الخطر يحدق بعرشها . فتودع ما حولها حتى الزنبقة في الاصيص وداعاً مؤثراً، ويغني لها مغنيها اياس نشيد الموت . ثم يأتي قائد روماني برسالة من سيده، يسألها الذهاب معه الى رومة، ويعدها بان يبقيها في ملكها، وتكون رومة الوصية عليه . فترغب الى الرسول ان يزورها القيصر في المساء لتفضي اليه بسر كتمته عن الصحاب والامناء . فيخرج الرسول . وتودع هي ولدها قيصرون ووصيفتيها، ثم تتناول الافعى، فتضعها على صدرها، فتعضها، فتموت . وتفعل شرميون فعلها، فتقضي في اثرها . وتفتدي بها هيلانة فيدركها انوبيس بترياقه فينقذها، ويذهب بها حابي الى طيبة ليعيشا معاً . وتنتهي المأساة بوداع اكتافيوس لكليوباترا، وتهديد انوبيس لرومة .

٤ الجو المصري

لم يغفل شوقي ان يخلق جواً سحرياً تعبق به مأساته المصرية . فما وقوف العرّاف جبرا يطالع الاكف ويكشف المستقبل، الا صورة عن كهانة المصريين القدماء . ولا الافاعي وتربيتها، وسمومها وترياقاتها والاكثار من التحدث عنها والتشبيه بها، الا شيء يذكرك بمصر وثعابينها وحواتها، وبما جاء في التاريخ القديم عنها .

٥ الاخلاق والصفات

كليوباترا : اجاد شوقي وادق في تصوير كليوباترا واظهار شخصيتها من نواح شتى فأرانا اياها :

١ً مصرية ـ تغار على مصر وتتعصب لها، حتى اعماها التعصب، فاساءت السياسة، واحنقت القواد الرومانيين عليها وعلى عشيقها انطونيوس، مع شدة حاجتها الى هؤلاء الاعوان . وحبها لمصر يفوق حبها لانطونيوس فما ترى حرجاً في الهرب من المعركة وترك حبيبها يتحطم اسطوله واسطول اكتافيوس، لتضعف رومة وتسود مصر .

٢ ملكة ـ تحافظ على العرش، وتجاهد في صيانته وتموت من اجله. وراعية تعنى باصلاح بلادها، وتعطف على رعيتها وتحسن اليهم .

٣ سياسية ـ لم يكن انطونيوس حبياً لكليوباترا من اجل الحب وحده، وانما كان اداة لاذعاف رومة وتقوية مصر. فقد شطرت به اسطول الرومانيين، وجعلت احد الشطرين في يدها لتحطم الآخر. بل حاولت تحطيمهما معاً في انهزامها من معركة اكتيوم ليخلو لها الجو، فتسود البحر :

قُلْتُ رُومَا تَصَدَّعَتْ فَتَرَى شَطْـ رًا مِنَ ٱلْقَوْمِ فِي عَدَاوَةِ شَطْرِ
وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ رُومَا إِذَا زَا لَتْ عَنِ ٱلْبَحْرِ، لَمْ يَسُدْ فِيهِ غَيْرِي

ولكن سياستها اخفقت برجوع انطونيوس عن مطاردة العدو . ثم باحناقها القواد الرومانيين حتى ارصدوا الخيانة لها ولسيدهم . ثم بعصيان اسطولها، ورفضه ان يمضي لنجدة انطونيوس :

أَبِي أَعْلَمْتَ أَنَّ ٱلْجَيْشَ وَلَّى، وَأَنَّ بَوَارِجِي أَبَتِ ٱلْمُضِيَّا

والسبب الاول يعود على غفلة القائد العاشق. والثاني على سوء تصرفها. والثالث على فساد تدبيرها؛ لان فرارها باسطولها من معركة اكتيوم، جعل نصر انطونيوس مرهوناً الى الغد، وجعل بوارجها تأبى المضي مرة ثانية .

٤ ربة بيت ـ تعطف على اولادها، وتشملهم بحنان الام الرؤوم، حتى لتكاد تشتهي الذل لاكتافيوس من اجلهم، لو رضي المجـد، ولو سمح النبل . ولا يقتصر حنانها على اولادها بل يشمل ما في بيتها من خدم وجوار؛ فاذا هي ترعاهم وتحسن اليهم، وتغفر للمسيء منهم، وتعاملهم معاملة ذوي الصهر والقربى. فلا غرو ان يحبوها حب العبادة، وتنتحر وصيفتاها بانتحارها .

٥ حسناء ـ وحسنها باد في حديث الناس عنها، وفي حديثها عن نفسها. حتى انها لما ارادت الانتحار حرصت على جمالها ان يزيله الموت . فقالت لانوبيس :

ولكن أبي هل يُصان الجمال ؟
وهل يُطفأ اللون ؟

وهل يُبطلُ الموتُ سِحرَ الجفون ؟

٦ً عاشقة ـ احبت الابطال فبسطت سلطانها عليهم ، وشاقتها العبقرية في الرجال فتعشقتها . وحبها لانطونيوس يزينه الوفاء اذا لم تعرض له سياستها الوطنية . فقد تخلّت عن قيصرها في المعركة لانها تريده ضعيفاً في سلطانه لا يخشى منه على مصر . ولكنها بادلته الحب الصادق والتاعت عليه ساعة موته، وباسمه هتفت وهي تجود بالروح :

أَلبَسَانِي حُلَّةً تُـهْ جِبُ أَنطُونيُو سَنِيَّهْ

٧ً صفات اخرى ـ تحب اللذة، واللهو والعبث ، تحب الفراهة والشعر ، ذكية، رائعة البيان، ابية عزيزة النفس .

انطونيوس : عاشق ضعيف الارادة، صادق المودة، اعماه الحب فانساه واجبه، وانساه رومة فانكرها مرضاة لحبيبته، فاسخط قواده . واغفله عن البصر في العواقب فترك مطاردة العدو الى الغد، فكان فيه خذلانه . وحمله على الفرار كالجبناء حتى اذا علم انها انتحرت، قابل الموت غير خائف؛ لانه طلب الحياة من اجلها، ومن اجلها انتحر يائساً . ولم يشأ ان يعاتب كليوباترا على خذلها اياه في المعركة بل غفر لها فرارها .

وهذا العاشق المولّه شجاع باسل، وقائد عظيم تشهد له بذلك كليوباترا :

أَليَومَ تَعلَمُ رُومَا أَنَّ فَارِسَهَا ، جَيْشٌ بِمُفرَدِهِ، فِي الرَّوْعِ ، جَرَّارُ

واوروس :

رَأَيتُكَ، وَالحَربُ تَبْلُو الكُمَاةَ ، فَأَشْهَدُ كُنْتَ إِلـهَ الوَغَى

وهو ابن رومة الابر، لولا الحب الذي انساه اياها . على انه عاد اليها يستغفرها ساعة موته :

رُومَا حَنَانَكِ، وَاغْفِرِي لِفَتَاكِ . . .

اشخاص آخرون : اكتافيوس قائد روماني شجاع حزيم .

انوبيس : كاهن مصري، عالم بالافاعي وسمومها . يحب مصر ويكره رومة . ويعطف على كليوباترا، ولكنه يرى لها الانتحار، لئلا يهان تاج مصر .

هيلانة وشرميون : وصيفتان اميتتان للملكة انتحرتا معها .

حابي : احد امناء المكتبة، احب هيلانة، وابغض الملكة . ثم احبها عندما عطفت عليه وازوجته بمن يحبها .

اولمبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا نقم على انطونيوس لانكاره رومة، وتهالكه بين يدي ملكة مصر . فنعاها اليه كذباً، وقد رآه في اشد حالة من الاضطراب النفسي، فدفعه بذلك الى الانتحار .

اوروس : غلام انطونيوس وصفيه، آثر الانتحار قبل سيده .

انشو : مضحك الملكة له مواقف سخر ونكتة لا بأس بها .

حبرا : عراف مصري . إياس : مغني الملكة . غانيز : ساقيها . بولا : شاعر .

٥ مزاياها

١ محاسنها — مصرع كليوباترا، هي اجود مآسي شوقي، وابرعها فنا، وادقها تصويراً ووصفاً، وتحليلا . وعقدتها القصصية موفقة كل التوفيق، فان شوقي اضفى عليها من العوامل الفنية، والمفاجآت المستحكمة المترابطة، ما صرف الذهن عن حلها التاريخي المنتظر . فانت تشعر بتولد هذه العقدة في الفصل الاول حين ترك أنطونيوس المعركة دون ان يبلغ نهايتها . ثم تشعر باستحكامها في الفصل الثاني عندما تغلو كليوباترا بعصبيتها لمصر، فتطعن على رومة، وتحمل عشيقها المولّه على التبرئ منها، لا تبالي ان تغيظ الرومانيين وتسخطهم؛ فخرجوا من عندها وهم يضمرون الغدر بسيدهم لاستخذائه اليها . فنسمع اولمبوس يقول وهو منصرف من الوليمة :

أُورُوسُ ! أَنْطُونِيُوا حِسَابَكُمَا غَدًا، رُومَا الْأَبِيَّةُ لَمْ تَنَمْ عَنْ ثَارِهَا

وفي الفصل الثالث تظهر نتيجة المعركة بانهزام انطونيوس لان قواده وجنوده مكروا به من نقمتهم عليه، وانضموا الى اكتافيوس . ولكن العقدة لم تنحل هنا لان مصير كليوباترا وتاج مصر بقي مترجرجا . واذا بالمؤلف يفاجئك بزيارة الملكة للكاهن، واتفاقها واياه على ان يبعث اليها بالافعى السامة حين يصبح العرش في خطر . فيحدث هذا الاتفاق تشوقا الى معرفة النتيجة لان مصير كليوباترا هو المقصود من

المأساة . وفي الفصل الرابع تنحل العقدة انحلالاً طبيعيا بعد نجوى طويلة قد يشفع بطولها هول الموقف وخطره .

وفيها من المشاهد الرائعة ما يخلق بالذكر كانوليمة وما حدث في خلالها من حب وبغض وهزو وسخر (ف ٢) وانتحار انطونيو (ف ٣) ونجوى كليوباترا قبل مصرعها (ف ٤) .

ووفق شوقي في اشعارها توفيقاً حسناً ، فان فيها من القصائد والمقطعات الجميلة شيئاً غير قليل . وحسبك منها : « انا انطونيو ، وانطونيو انا » (ص ٤٣) و « زنبقة في الآنية » (ص ٨٩) ، و « اليوم اقصر باطلي ، وضلالي » (ص ٩٩) . وتأتى له في نهاية كل فصل منها بيت بارع يترك في النفس والمسامع دوياً . فالقائد الروماني يهمس في نهاية الفصل الاول عندما رأى سيده انطونيوس يريد اللهو :

أَلَا إِنَّهُ لَيْلٌ لَهُ مَا وَرَاءَهُ ، غَرَامُكَ حَيٌّ فِيهِ ، وَالْمَجْدُ مَيِّتُ

وكليوباترا تودع حبيبها في ختام الفصل الثاني ، وهو خارج للقاء اكتافيوس :

يَا لَيْثُ سِرْ ، يَا نَسْرُ طِرْ ، عُدْ ظَافِرًا ، أَوْ لَا تَعُدْ !

واكتافيوس يختم الفصل الثالث بوداع انطونيوس :

أُقَبِّلُ مَا قَبَّلَ الْعَارُ مِنْكَ وَأَهْتِفُ : أَنْطُونِيُوسُ الْوَدَاعَ !

وابلغها ما جاء في ختام المأساة اذ يقول انوبيس مهدداً الرومانيين :

قَسَماً مَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ لَكِنْ ، قَدْ فَتَحْتُمْ بِهَا لِرُومَةَ قَبْرَا

٣ مساوئها كان شوقي في مصرع كليوباترا اقل مساوئ منه في غيرها . فليست له تلك السقطات الفاضحة التي تعودناها منه في مآسيه الاخرى ، وان تكن فصولها لم تخل من ضفيليات الحوادث التي يستغني صاحبنا عنها . فخبر حابي وهيلانة تافه غث من بدئه الى نهايته ، يفسد وحدة العمل ، ويخرج بالمأساة عن الموضوع اذ لا يمت اليها الا بسبب ضعيف . وكذلك كان المشهد الذي جاء في عرض القصة عن عشق الشيخ زينون امين المكتبة ، لكليوباترا ، وعبث حابي به (ف ١ منظر ١) .

مجنون ليلى

(١٩٣١ م)

١ تاريخها

نشر شوقي هذه المأساة سنة ١٩٣١، وقدمها بابيات من الشعر للامير فاروق ولي عهد مصر، وذيلها بنظرات تحليلية، ومثلت لاول مرة في القاهرة فكان لها بعض النجاح .

٢ موضوعها

استمد الشاعر حوادث قصته من اخبار المجنون في كتاب الاغاني . وموضوعها حب قيس لليلى، وجنونه، وموته . والمجنون شاعر بدوي من بني عامر، قيل انه عاش في زمن بني امية، وشك بعضهم في وجوده .

١ ـ الحوادث التاريخية ـ احب قيس بن الملوّح ابنة عمه ليلى العامرية، وتغزل بها . ثم خطبها الى ابيها فرده خائباً لاشتهار حبه لها وقوله فيها . ومنعه عن زيارتها، فلم يمتنع، ولا انقطع عن التشبيب بها، فاستعدى عليه السلطان، فأهدر دمه . ثم ازوجها رجلا من ثقيف او من عُقَيل يقال له ورد فجنّ قيس جنونه، وهام على وجهه في البراري يعاشر الوحوش، وينشد الاشعار، ويذرف العبرات، ويمزق ثيابه، ويغمى عليه، حتى مات .

٢ ـ الحوادث المخترعة ـ خالف شوقي التاريخ في بعض الحوادث وتصرف فيها على هواه . فمنها ما لا معنى له كجعله عبد الرحمن بن عوف والي الصدقات يشفع لقيس عند ليلى وابيها . مع ان التاريخ يذكر ان عبد الرحمن ابى ان يتولى هذه الوساطة؛ وقد تولاها بعده في السنة التالية خلفه نَوفل بن مساحق .

ومنها ما زيّن المأساة وعظّم شأنها كرفعه ليلى الى مستوى البطولة، اذ جعلها ترفض قيساً عندما خيّرها ابوها فيه . فابت الا ان تحافظ على الشرف الموروث، والعادات البدوية . ورضيت ان تتزوج الفتى الثقفي وهي لا تحبه . مع انها في التاريخ اكرهت اكراهاً على هذا الزواج، وهددت من اجله بالتمثيل . ولم يكن زوجها عند شوقي اقل بطولة وبذلاً منها . فانه لما تبين حبها لقيس، وشدة كلفها به آلى على نفسه ان يصاحبها مصاحبة الشقيق لشقيقته، فلبثت في كنفه عذراء كما كانت في بيت ابيها . ولكنها وفت له، وحافظت على شرفه، فردت قيساً كاسف البال، لما ارادها على الفرار معه .

ومنها ما اتخذه وسيلة لختام مأساته كجعله ليلى تموت قبل قيس، مع ان قيساً هو الذي مات قبلها .

واضاف الى هذه الحوادث خبر الجن، وهو من مخترعاته .

٣ الفصل

مكان المأساة بادية نجد، تتنقل من حي بني عامر الى طريق للقوافل بين نجد ويثرب، الى قطعة من الصحراء، الى قرية من قرى الجن، الى حي بني ثقيف بالطائف . وتنتهي في مقابر بني عامر .

الفصل الاول ـ المهدي يطرد قيساً ـ بينما كان فتيات بني عامر وفتيانهم يتسامرون في اوائل الليل، اذا بقيس بن ذَريح الشاعر، يقبل عليهم، ويكلم ليلى في امر المجنون، فتأبى ان تدوس عادات العرب، وتتذمر على مجنونها لانه ذكر ليلة الغَيْل في شعره، وما هي الا لقاء وتحية وابتسامة .

ثم ينقضي السمر، ويظهر المجنون، يطلب ناراً من بيت ليلى، وما وكده الا رؤيتها . فتخرج اليه بالنار، فيحادثها ويلهو عن نفسه . فتسعى النار الى كمه وهو لا يأبه لها، وتحرقه فيقع مغمى عليه . فتنادي ليلى والدها، فيأتي اليه ويسعفه، فيصحو . ويؤنبه، ويحرّم عليه دخول داره .

الفصل الثاني ـ المجنون النائم ـ يهيم المجنون على وجهه في طريق للقوافل قريب من الحي، وقد اهدر السلطان دمه . وراويته زياد يصحبه، وامه تتبعه الجارية بطعام وصفه العراف ليتداوى به من جنته . ويعبث به اولاد صغار فيهم نجصبهم ، ثم يغمى عليه . واذا بابن عوف جامع الصدقات، يقف به، وينادي فما يستفيق . ويمر ركب الحسين بن علي ، فتضج من تحته البادية، وقيس في اغمائه . ثم تمر قافلة تحدو باسم ليلى فيستفيق قيس على ذكر اسمها . ويعده ابن عوف ان يتحمل به على عمه، فيفرح، ويبتهج .

الفصل الثالث ـ خيبة ابن عوف ـ يأتي ابن عوف وقيس الى حي ليلى، فيتسلح الاهلون للفتك بالعاشق حفاظا على شرفهم . فيلاطفهم ابن عوف، ويسكن ثائرتهم، ويستليتهم على قيس . ويكاد يظفر بحاجته لو لم يقف فيهم منازل يبين معرات الشاعر، وافتضاح فتاة الحي بشعره . فيعاودهم السخط على المجنون ويهمون بقتله . فينبري بشر للدفاع عنه، فيظهر للحي ان منازلا يحسد قيسا، وانه حض على قتله ليحظى بليلى من بعده . فتحدث ضجة في القوم، ويرسلون الى منازل نظرات احتقار، ويجره زياد الى الخارج ليؤدبه . فيتبعه الناس الا ابن عوف والمهدي والد ليلى ، فانهما يدخلان الخباء . وتأتي ليلى من حجابها، فيقص عليها ابوها خبر ابن عوف، ووساطته لقيس، ويضع الامر بيدها . فتعلن الرفض القاطع صونا للشرف، ورعاية للتقاليد . وتبدي رغبتها في الزواج بورد الثقفي الذي جاء يخطبها منذ حين . فيرجع ابن عوف خائباً حزيناً .

الفصل الرابع ـ زوجة عذراء امينة ـ المنظر الاول : عاد قيس الى هيامه بعد اخفاق ابن عوف، وزواج ليلى بورد . فضل الطريق، وقاده التسيار الى قرية من قرى الجن . فابصرته طائفة منهم وفيهم شيطانه الاموي، فاقبلوا يحتفون به، ودلوه على الطريق .

المنظر الثاني : يأتي قيس حي بني ثقيف، ويرى ورداً زوج ليلى، فيسأله عنها . فاذا هي لا تزال عذراء، لان ورداً تهيب حبها الصادق لقيس، ودفعته شهامته الى ان

يساكنها مساكنة الاخ لاخته . ثم تدخل ليلى، فيتركهما ورد منفردين، فيتشاكيان مرارة الفراق، ويرغب اليها قيس ان تذهب واياه ليعيشا معاً، فتأبى ان تجيب سؤله، محافظة على شرف زوجها، ويخرج قيس ساخطاً .

الفصل الخامس ـ مصرع الحب ـ ماتت ليلى وجداً، ودفنت في قبور بني عامر . ووقف الناس يعزون اباها، ويعزون بزوجها ورد صامتين ناقمين لانه سلبها من تحبه . الا ان والدها المهدي، ينوه بفضل ورد، وحسن معاملتـه لابنته . وينفض الجمع، فيدخل الغريض المغني، وابن سعيد الشاعر، ورجلان آخران، فيبصرون القبر الجديد الذي ضم جثمان ليلى، فيأخذ الشاعر يتحدث الى الميت المدفون فيه، ويذكره ايام الحياة الفانية، ويغني الغريض انشودة الموت، ثم يتوارون ذاهبين الى بني عامر . ويدخل قيس وزياد، فيتلقاهما بشر، ويخبر قيساً بموت ليلى، فيغمى عليه حيناً ثم يصحو، فيقترب من قبرها، فيكب باكياً منشداً . ويأتي شيطانـه الاموي، فيطرده قيس لان الشعر الذي اوحاه اليه هو الذي جنى عليه وعلى ليلى . ويجيء ابن ذريح خاشعاً، باكياً على قبر ليلى، معزياً قيساً . ويسمع من جانب القبر هاتف باسم قيس وليـلى، فيلبيه المجنون، ويحتضر، ويموت .

٤ اللون العربي

تصطبغ هذه المأساة بلون عربي ناصع، صادق التصوير، تتمثل فيه حياة البادية، وحب البدو، وعاداتهم وعقائدهم وسياستهم . فاما حياة البادية، فانهـا وحشة جافية، لا ترى فيها غير موقد النار وحالب الشاة . ولا تسمع غير راغية تجيبها ثاغية (ف١ ص ٤ـ٥) وهموم الحياة فيها محدودة، واهلها يخفُّون الى صيد الظباء والاسد :

وَفِي كُلِّ نَاحِيةٍ شَاعِرٌ ، يُغَنِّي بِلَيْلَاهُ أَوْ رَاوِيَهْ

(ف ١ ص ٦) وطعامهم الرُّطَب والشواء واللبن (ف ٣ ص ٦٧) .

واما حبهم، فعذري يقتل صاحبه (ف ١ ص ٦) . وقد يكتفي المحبان اذا اجتمعا، بالنظرة والتحيـة (ف ١ ص ١٤)، واذا جاوزاها، فالى حديث عفٍّ

وشكوى (ف ١ ص ٢٢)

واما عاداتهم، فهي مبثوثة في نواحٍ شتى، تطالعك بصور متعددة عن هؤلاء الاعراب الجفاة، فهم أباة مفرطون في ابائهم، لا يزوجون من يشبب ببناتهم، ويشتهر حبه لهن :

وَمِنْ سُنَّةِ ٱلْبِيدِ نَفْضُ ٱلْأَكُفِّ مِنَ ٱلْعَاشِقِينَ إِذَا شَبَّبُوا

ويستعدون عليه السلطان اذا الح في الزيارة والتشبيب، فيهدر السلطان دمه . وفي ذلك يقول قيس :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ يَا ٱبْنَ عَوْفٍ فِي غَدٍ: مَنْذَا أَبَاحَ لَهُ دَمَ ٱلْعُشَّاقِ ؟

وينقم عليه الحي باجمعه، فاذا رأوه مقبلًا ثاروا لقتله لان عار الفرد يعم القبيلة، والقبيلة باجمعها يلزمها الدفاع عن الفتاة التي شهرت .

ومن عادتهم الشفاعة للعشاق المنبوذين، فالحسين بن علي تشفع لقيس بن ذريح عند ابي لبنى، وابن عوف تحمل بالمجنون على والد ليلى . واذا حل بهم الثقيل اوقدوا له نار الطرد :

نَزَلْتُ فَلَمْ أُكْرَمْ فَهَلْ أَنْتَ مُتْبِعِي، وَقَوْمُكَ نَارَ ٱلطَّرْدِ حِينَ أَمِيلُ ؟

واذا ضل احدهم الطريق صفق بيديه، ولبس ثوبه مقلوبًا لينبه اليه من يراه فيهديه :

لَقَدْ ضَلَّ ٱلطَّرِيقَ أَمَا تَرَاهُ ، يُصَفِّقُ بِٱلْيَمِينِ وَبِٱلشِّمَالِ
وَقَدْ قَلَبَ ٱلثِّيَابَ عَلَيْهِ نَهْجًا عَلَى عَادَاتِهِمْ عِنْدَ ٱلضَّلَالِ

ويخيرون الفتاة في امر زواجها اذا كانت فطنة رشيدة، فالخنساء خيرها ابوها في دريد بن الصمة، وليلى خيرها ابوها في قيس .

واما عقائدهم فما تقل في المأساة عن عاداتهم، فهم يؤمنون بالعرافين ويلجأون اليهم في الشدائد . واذا خدرت رجل احدهم دعا باسم من يحب ليزول الخدر كما دعت ليلى باسم قيس (ف ١ ص ٦) ويتشاءمون اذا خلجت العين اليسرى . قال قيس :

خُلِجَتْ قَبْلَ نَلْتَقِي عَيْنِيَ ٱلْيُسْ رَى، وَرِيعَ ٱلْفُؤَادُ رَوْعَةَ طَائِرْ

ويكبّرون في اذن المغمى عليه ليستفيق :

قَيسُ لا بأسَ عَلَيكَ كَبّروا في أُذُنَيهْ

ويعتقدون ان لكل شاعر تبعاً من الجن، يوحي اليه . وان الجن بنوا تدمر، وان سليمان الحكيم غضب عليهم، وحبسهم في القراقر والقاهم في البحار (ف ؛ منظر ١) .

واما الحالة السياسية، فان شوقي يطلعنا في لمحات صغيرة على العداء المستحكم بين العلويين والامويين، وضرب بني امية على ايدي المتشيعين وتيقظهم الشديد في مراقبتهم، حتى بات هؤلاء يعتصمون بالتقية (ف ١ ص ٢ـ٣)

٥ الاخلاق والصفات

قيس ـ لم يبتدع شوقي شخصية قيس ابتداعاً، شأنه في شخصية كليوباترا، وانما كان متوكئاً في اظهارها على صاحب الاغاني . فما ذكر ابو الفرج نعتاً او حالة لقيس، الا نظمه شوقي شعراً واثبته في مأساته . فقيس مجنون اذا ذكرت له ليلى، ثاب من خبله وتحدث كانه اعقل الناس :

إذَا سَمِعْتُ ٱسمَ لَيْلَى ثُبْتُ مِنْ خَبَلِي، وَثَابَ مَا صَرَعَتْ مِنِّي ٱلعَنَاقِيدُ

ويغمى عليه ـ وما اكثر اغماءه ـ فلا يستفيق الا على النداء باسمها . وربما خيّل اليه ذلك تخييلاً :

لَيْلَى ! لَعَلِّيَ مَجْنُونٌ يُخَيَّلُ لِي ؟ لَا ٱلحَيُّ نَادَوْا عَلَى لَيْلَى، وَلَا نُودُوا

ويهيم على وجهه مصاحباً الظباء والوحش حتى انست به وعطفت عليه . ويطأ التراب حافياً، ممزق الثياب، اصفر اللون، هزيلاً . وكان جميل الصورة، وابن سيد الحي :

وَقَيسٌ، يَا لَيْلَى، وَإِنْ لَمْ تَجْهَلِي، زَيْنُ ٱلشَّبَابِ، وَٱبْنُ سَيِّدِ ٱلحِمَى

ليلى ـ ترك شوقي لنفسه الحرية في تصوير هذه الفتاة فابداها لنا محبة لقيس مفاخرة به كما يروي التاريخ عنها . ولكنه جعلها مع ذلك محافظة على التقاليد البدوية ، تضحي بحبها من اجل شرفها :

تَصُونُ ٱلْقَدِيمَ وَتَرْعَى ٱلرَّمِيمَ ، وَتُعْطِي ٱلتَّقَالِيدَ ، مَا تُوجِبُ

وتخلص الوفاء لزوجها على حبها لقيس، فما ترضى ان تخونه، وتهجر داره. وجعلها البدوية المفاخرة بالبادية، التياهة على الحضر، الاموية التي ليست بمعزل عن سياسة الاحزاب، مع سكناها البادية، واشتغال قلبها بالحب . الفطنة الرشيدة يعجب بها والدها ويثق بها، ويترك لها الحرية في اختيار زوجها. ويعجب بها بعلها ويثق بها، ولا يخشى عليها الانفراد مع من تهواه، فيخلي لهما المكان .

المهدي ـ ابو ليلى، سيد من عامر، طيب القلب، لا يحمل حقداً على قيس، ولا يريد به شراً، يحنو عليه حنو النسيب على نسيبه . بيد انه عربي شريف، تحكمت فيه التقاليد البدوية، فلم يجد منها مناصاً .

ورد ـ زوج ليلى، احبها بشعر قيس، فشقي بهذا الحب، ولم يلق بالزواج سعادة، لانه رجل شريف، رأى ان قلب ليلى مشغول بسواه، فتورع ان يجرح هذا القلب .

بشر ـ يخرج شوقي لهذا الشخص صورة فيها سخر لطيف، فيرينا فيه الجبن والخوف والادعاء، والحب لقيس . ينتحل شعر المجنون وصيده، وليس له يد فيهما. ويهاجم منازلاً يريد تأديبه مناصرة للمجنون، ولكنه لا يصنع شيئاً غير التهديد من بعيد .

منازل ـ غريم قيس في حب ليلى، يحسده عليها، ويسعى في الدس له ليفتك الحي به. وفيه خبث وجبن، وفصاحة ولسن .

زياد ـ راوية قيس وصديقه، يدافع عنه .

٦ منزلتها

١ محاسنها ـ وفق شوقي في بعض المشاهد والمفاجآت توفيقاً لا بأس به، مثال ذلك موقف منازل خطيباً في بني عامر يحضهم على قيس، وقد خاف ان تقبل فيه شفاعة ابن عوف. فكان اشبه بانطونيوس عندما اراد ان يحرض الشعب الروماني على

بروتوس قاتل يوليوس قيصر . وكان العامريون قد لانوا لقيس بعض اللين ، فخشي منازل سوء المغبة ان بادر بالطعن عليه ، فجهر بمدحه واثنى على شعره الذي تتلقفه الرواة ، حتى انتهى الى مبتغاه ، وهو ان هذا الشعر السيار كان سبب افتضاح ليلى ، ولو كان شعر غيره لما تحدث به الناس (ف ٣ ص ٥٢) .

ومشهد آخر لا يعدو عنه الجمال ، وفيه يصور شوقي تضارب العوامل النفسانية في صدر ليلى عندما خيّرها ابوها في قيس ، فتنازعها عاملا الحب والشرف . ثم اسرع العقل في التغلب على العاطفة فرفضت قيساً . وما ان خلت بنفسها حتى عاودها الضعف ، فتحسرت ولامت نفسها اشد اللوم (ف ٣ ص ٧٢) .

وشعر هذه المأساة يرتفع في مواطن عدّة كتصوير البادية ومقابلتها بالحضر (ف ١ ص ٤ ـ ٦) . ودالية المجنون عندما استفاق من اغمائه على صوت الهاتف باسم صاحبته . فان فيها كثيراً من روح قيس ، واسلوبه ، وتكراره اسم ليلى (ف ٢ ص ٤٣) . ونونيته الحسناء : تَعَالَيْ نَعِشْ يَا لَيْلَ فِي ظِلِّ قَفْرَةٍ (ف ٤ ص ٩٨) .

وكان الختام بيتاً جميلاً له وقع قوي في النفس ، فان المجنون سمع وهو يموت صوتاً من القبر ينادي :

الصوت : قَيْسُ ، لَيْلَى !

فقال :

قيس : . . . . رَنَّةٌ فِي أُذُنِي ، رَدَّدَتْ : قَيْسُ وَلَيْلَى ٱلْفَلَوَاتْ
نَحْنُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَإِنْ لَمْ تَرَنَا ، لَمْ تَمُتْ لَيْلَى ، وَلَا ٱلْمَجْنُونُ مَاتْ

٢ً مساوئها ـ عني شوقي باظهار اللون البدوي عناية تذكر فنجح في مواضع كثيرة ، ولكنه لم ينج من التعثر في بعضها . كتعريف ليلى بقيس بن ذريح لسامى وهند ، ومصافحتها اياه . فهذا التعريف فرنجي الطريقة ، لم يعهده العرب ولا المسلمون من بعد (ف ١ ص ١) . وكذلك نعت قيس بالأديب ، مع ان هذه اللفظة لم تكن معروفة بهذا المعنى ، في صدر الاسلام ، وانما هي من وضع العباسيين .

وهناك اشخاص عديدون لا قيمة لادوارهم في المأساة كدور قيس بن ذريح ،

ودور الغريض واصحابه، ودور الاموي وقرية الجن . فكلهم متطفلون يفسدون على القصة تساوقها وارتباطها، حشرهم شوقي حشراً ليملأ فراغ الفصول بالحوادث .

والعقدة غير بارعة الاحكام والحل لاطراد سيرها التاريخي، وسيطرة الحوادث التافهة عليها ، وقلة خطر الدسائس، وضعف المفاجآت . فان دسيسة منازل ما ولدت حتى ماتت . وشعرنا بانتهاء المأساة عند ما أبت ليلى ان تذهب مع قيس ، واذا بالمؤلف يجددها ليميت العاشقين (ف ٤ منظر ٢) . ولم يكن في نقل بشر خبر موت ليلى الى المجنون ما يثير النفس لضعف الاداء والمناقلة . فهذه المأساة رديئة الفن المسرحي في الجملة، واسوأ ما فيها تطفل الحوادث واحتشادها .

قمبيز

(١٩٣١ م)

« مقدمة الى الامير فاروق، مذيلة بنظرات تحليلية، مثلت على مسرح رمسيس في السنة نفسها . »

١ موضوعها

استقى شوقي موضوعه من تاريخ مصر القديم، في القرن السادس قبل المسيح . ومداره ان قمبيز ملك الفرس ارسل يخطب نفريت بنت امازيس فرعون مصر . فابت الاميرة ان تترك موطنها الى بلاد غريبة . وكان من المحتم ان يثير رفض نفريت غضب قمبيز فيغزو مصر . فحفز حب الوطن اميرة مصرية اخرى الى تقديم نفسها لقمبيز باسم نفريت، وهي الاميرة نتتاس بنت أبرياس فرعون مصر السابق (ف ١) .

وكان في الجيش المصري قائد يوناني، اسمه فانيس، قد خان مصر والتحق بالجيش الفارسي . فأخبر قمبيز بحقيقة زوجه ، وانها نتتاس لا نفريت ، فغضب الملك، وعول على غزو مصر واخضاعها (ف ٢)

وكان امازيس قد مات ، وتملك بعده ابنه بساماتيك . فيغزو قمبيز مصر ، ويفتتحها، ويخضع بساماتيك ويأخذ عليه العهود . وتنتحر نفريت تكفيرا عن ذنبها الى مصر . ويعلم قمبيز ان بساماتيك نقض العهد، واخذ يؤلب القرى والمدائن ويدعوهم الى الثورة، فيأتي به، ويهدده، ويأمر بسجنه . وتدخل عليه زوجه نتتاس تستعطفه في مصر، فيطردها . فتلتفت الى فانيس وتقول له متهكمة :

مَوْلَاكَ كَمْ تَخْدَعُهُ ، مَوْلَاكَ كَمْ تَسْخَرُ بِهْ !

فيثور قمبيز، ويقتل القائد اليوناني . ثم يقتل احد قواده لانه اشار عليه بالرفق؛ ويقتل بعده العجل أبيس معبود المصريين . ثم يستيقظ ضميره ، وتبدو له اشباح قتلاه

وفيهم اخوه واخته، فيطبق عليه الجنون ، فينتحر . ويسدل الستار على اربع جثث صريعة .

٢ منزلتها

١ محاسنها — اعطانا شوقي صورة صادقة تنطق بعصبية نتتاس لمصر ، فان وطنيتها ملموسة في جميع اجزاء المأساة . وكذلك احسن وصف حالة مصر قبل الفتح الفارسي، وتقلب العنصر الغريب على الجيش المصري، ولاسيما العنصر اليوناني، وضعف الروح الحربي في نفوس المصريين ، وانغماسهم في الترف واللهو . ووفق في تمثيل جنون قمبيز وشجاعته ووحشيته .

٢ عيوبها — في هذه المأساة عيوب كثيرة ، فان العرض في الفصل الاول، استوعب خمسين صفحة، ومجموع صفحات القصة مائة وخمس وعشرون . وهو مقسوم الى ثلاثة مناظر شغلها المؤلف باشياء يستغنى عنها كشكوى نفريت لابيها في المنظر الاول . ووليمة الوفد الفارسي وما تخللها من سحر واحلام، في المنظر الثالث . فان الشكوى باردة، حقيرة الاثر . والوليمة متطفلة لا عمل لها الا ان تقطع سير العمل القصصي ، وان بدا فيها اللون المحلي قوياً .

والفصل الثالث جُعل منظرين، اولهما لا يزيد على صفحة واحدة، حيث تبدو نفريت على ضفاف النيل، تذكر بابيات سخيفة انانيتها، وما جرّت على مصر من الويل والحرب، وتلقي بنفسها الى النيل . وكان الاولى بالمؤلف ان يحذف هذا المنظر البارد، لانه اشار اليه في المنظر الثاني .

وفي القصة شخصان شأنهما خطير، وليس لهما عمل يذكر . احدهما نفريت هذه، والثاني تاسو حبيبها وحبيب نتتاس . واذا كان المؤلف اضطر الى اظهار نفريت لتأثير رفضها في محور المأساة، فما شأن تاسو وما تأثيره ؟ فقد جعل الاميرتين تتهالكان على حبه، ولم يخلق له عملاً جديراً بهذا الحب . والأقبح ان وجوده شوه جمال التضحية، وهبط بسموها . فان نتتاس تعترف وهي في بلاد الفرس ، انها هجرت وطنها من

اجل تسو الذي هجرها ؛ مع ان المأساة قائمة على رمز التضحية الوطنية :

وَمَنْ هَجَرْتُ وَطَنِي ، لِأَجْلِهِ حِينَ هَجَرْ

والعقدة غير متينة الاحكام، فانها تشتد وتنحل، دون ان تبعث في النفوس خوفاً او تشوقاً . فقد مهّد لها المؤلف في الفصل الاول بزواج نتتاس بدلاً من نفريت . وجاء فانيس بلاد فارس في الفصل الثاني، فاشياً سر هذا الزواج، فعرف قمبيز الحقيقة، وعرفت نتتاس افتضاح امرها ، ومضى كل هذا بسرعة الخاطر ، وثباته ؛ فضعف شأن الدسيسة ، وضاع اثر المفاجأة . وفي الفصل الثالث تظهر مصر مفتوحة ، وقمبيز مالك عليها فلا يبقى من تلك العقدة الرخوة الا ان يهيج قمبيز ، ويفرش المسرح بالضحايا، ثم ينتحر .

علي بك الكبير

او دولة المماليك

(١٩٣٢ م)

« قدمها المؤلف الى مؤتمر الموسيقى الشرقيـــة في القاهرة في ١٤ اذار ١٩٣٢ .
« ومثلتها فرقة فاطمة رشدي على مسرح الكورسال في الشهر نفسه، والسنة نفسها .
« وذيلتها جريدة البلاغ المصرية بنظرات تحليلية . »

١ موضوعها

جرت حوادث هذه المأساة حوالي سنة ١٧٧٠ م . مكانها الفسطاط والصالحية وعكا . وموضوعها مستمد من تاريخ مصر يوم كانت ولاية عثمانية، والسلطان فيها للمماليك، يتولون مشيخة البلد، واليهم يرجع الامر والنهي . وكان شيخ البلـد يومئذ علي بك الكبير، فطمع في الاستقلال بمصر، فثار على الدولة العثمانيـة وهي مشتغلة بمحاربة روسيَة . وكاد يظفر بامنيته، لو لم يخنه اقرب الناس اليه؛ صهره محمد ابو الذهب، ومملوكه مراد بك . فالتجأ الى ظاهر العُمَر صاحب عكا، فاعانه هذا على استرجاع ملكه، وامده بالعسكر، ولكن نجمه كان قد افل فاخفق في مسعاه، واسر وقتل . وحافظ شوقي على الاحداث التاريخية كل المحافظة الا انه زاد عليهـا خبر الجارية أمال وزواج علي بك منها ، وتعشق مراد بك لها ، دون ان يعلم انها شقيقته، وخيانته مولاه من اجلها . والحقيقة ان مراد بك كان يهوى نفيسة امرأة علي بك، وخانه من اجلها، ولكنها لم تكن شقيقته كما جعلها شوقي في قصته .

٢ منزلتها

أ ما لها ـ في المأساة تصوير بليغ لدولة المماليك، واستبدادهم وغدرهم، ثم

لتمرد الجارية امال على الرق عندما عرضها ابوها للبيع واراد علي بك ان يشتريها ؛ حتى اذا راى منها هذا التمرد اعجب بها وتزوجها حرة . وفيها صور شتى لشجاعة علي بك وحزمه واقدامه، وكرم اخلاقه، وعطفه على الفقير .

٢ ما عليها ـ تقوم العقدة القصصية على موضوعين احدهما الموضوع التاريخي وهو ثورة علي بك واخفاقه، والاخر الموضوع الادبي، وهو حب مراد لامال ، وحبها له، وجهلهما انهما شقيقان . ولا يخفى ما في هـذا الازدواج من ضعف الفن لان موضوع المأساة في الاصل علي بك الكبير، فعليه وحده كان ينبغي ان تبنى العقدة، وتتسلسل منها الحوادث والمفاجآت الى ان تنحل . واما حب امال ومراد فهو موضوع آخر يصلح لمأساة مستقلة فامتزاجه بثورة علي بك لا مسوغ له البتة .

واظهر المؤلف أمال بمظهر الزوجة العفيفة التي تحافظ على شرف بعلها ، فلم تخنه مع حبها لمراد . غير انه لم يوقعها في اخطار جسيمة واشراك ودسائس لتثير الروع والاعجاب في النفوس . وكان التعارف بينها وبين اخيها بارداً لا يبعث الحرارة في الصدر، فان والدهما مصطفى النخاس عندما انذره الموت، رأى من الخير ان يتعارفا ليكف الاخ عن التصدي لاخته . ولكن شوقي لم يفلح في ارسال هذا الانقلاب على جلال شأنه، فجاء غثًّا متثاقلاً . وسبب ذلك ان مراداً سبق والده الى التعريف ، فنفى عن الموقف جماله الطبيعي (ف ٣ ص ١١٢) .

ويفرغ المسرح في الفصل الثالث حين يخرج مراد وأمال بجثة والدهما، ويدخل بعدهما علي بك مجروحاً . وفراغ المسرح دون اشارة من الخارجين تدل على مجيء اشخاص آخرين من العيوب التمثيلية عند اصحاب الفن .

وعلى الجملة فعيوب هذه المأساة اكثر من فضائلها .

اميرة الاندلس

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في اول تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ م »

١ موضوعها

هذه قطعة من تاريخ الاندلس في زمن ملوك الطوائف ولدت حوادثها ونمت في اشبيلية عاصمة العبّاديين بالاندلس . وانتهت في أغمات بلد على مقربة من مراكش بالمغرب الاقصى . وموضوعها ان الاميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية، زارت قرطبة بثياب غلام، فرأت فتى في السوق يشتري كتباً، فحادثته وحادثها، على انها فتى مثله، وافترقا وقلبها مشغول بهواه . وخطبها سير بن ابي بكر وزير يوسف ابن تاشفين ، امير المرابطين . فردت يده، وبحثت عن فتاها حتى عرفته فاذا هو حسّون بن ابي الحسن التاجر الاشبيلي، فزارته في داره متنكرة بالزي الغلامي الذي عرفها فيه . فرحب بها، وفيما هو يروي خبر مقتل اخيها الظافر في قرطبة، اغمي عليها وانسدل شعرها، فتبين حقيقة امرها، وتعشقها كما تعشقته .

ثم غزا يوسف بن تاشفين الاندلس ، وازال عنها ملوك الطوائف واعتقل المعتمد ابن عباد وأسرته، وارسلهم الى اغمات . الا بثينة، فقد سباها مغربي، فعرف ابو الحسن التاجر مقرها، فاشتراها، وجاء بها الى ابنه حسون . فابت ان تتزوجه الا برضى ابيها وامها، فسار بها الى اغمات حيث تم الزواج .

٢ صفتها

قد يصح على هذه المسرحية ان نسميها مناظر تمثيلية ، لما فيها من المشاهد والفصول المستقلة المتقاطعة . واما ان نسميها مأساة بالمعنى الفني المعروف، فهذا تجوز

عظيم لا مسوّغ له . واي مأساة تدعى ؟ وليس فيها عقدة معروفة، ولا قصة متسلسلة الحوادث، موحدة العمل . وانما هي اخبار مبثوثة لا يكاد يجمع بينها جامع . اخبار ابن عباد على اختلاف حوادثها ، ونواحيها، جمعها شوقي من التاريخ على علاتها، ووسمها بسمة المآسي بالرغم من انف الفن . فكان الاختلاط والاضطراب وضعف التأليف اعظم ميزاتها .

ولا نحاول ان نتوسع في تحليلها ونقدها، لانها لا تستحق هذه العناية، وانما نعرض ما فيها من تراكم الحوادث وتقاطعها ليكون المطّلع على بينة منها . فالفصل الاول يشتمل على ثلاثة مناظر لا يحتاج موضوع القصة الى سوى الاول منها . اما الثاني ففيه وليمة الوفد الاسباني، ومقتل ابن شاليب وزير الفنس ، فلا معنى لاقحامه في المأساة . والمنظر الثالث منقطع عن الاول والثاني بنزهة نهرية خارجة عن الموضوع .

اما الفصل الثاني فخارج عن الموضوع برمته، فما سرقة كنوز طليطلة ونكبة ابي الحسن التاجر من قوام المأساة، بل كلاهما يستغنى عنه .

والفصل الخامس يحتوي ثلاثة مناظر، احدها بالاندلس وفيه سبي بثينة ونجاتها ، والآخران في اغمات . فلو اكتفى شوقي بالاخيرين لكان اولى . لان بثينة روت لابيها خبر سبيها ، فلا حاجة الى ذكره قبلاً ، لولا شغف المؤلف بالاكثار من الحوادث المختلفة ليملأ بها الفصول .

وهذه المسرحية نثرية، واضحة الانشاء، سهلة العبارة، خالية من التكلف الذي تعمده شوقي في اكثر نثره .

عنترة

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ »

١ موضوعها

وقعت حوادث هذه المأساة في اواخر العصر الجاهلي، في احياء بني عبس وعامر، ببادية نجد . وموضوعها مستقى من سيرة عنترة بن شدّاد العبسي، وما كان من حبه لعبلة بنت عمه مالك، وكلفها به لشجاعته وفصاحته، وشهامة نفسه؛ مع انه عبد اسود انكره ابوه، وابى عمه تزويجها به .

فاتفق مرة ان غزي الحي، وسبيت النساء، ونهبت الاموال . فاستغاث شداد بابنه، والحقه بنسبه، فكرّ، واستنقذ السبايا والنعم، وهزم الاعداء . ولكن والد عبلة لبث مكابراً لا يرضى به صهراً، ولا يردّ يد ابنته عن طالب، رجاة ان يتخلص منه، جاعلاً رأسه صداقها . وعنترة يفسد عليه خططه، وينزل بأخطاب الويل والحرب، حتى تزوجها بالرغم منه .

وهذه الحوادث اقتطفها المؤلف من مواضع شتى في السيرة، وغيّر في الاسماء وبدّل، وزاد من عنده، حب ناجية لصخر العامري خطيب عبلة، وزواجها بحيلة مفتعلة . وذلك ان عشرين فارساً من بني عبس، كلّفوا حراسة عبلة، في طريقها الى بني عامر، ليتزوجها صخر، فتصدى لهم عنترة، وانقذها، بعد ان مكّن سيفه منهم فقتل بعضهم، وفر الباقون . وكانت ناجية، وهي فتاة من عبس، تحب صخراً، فخلعت عليها عبلة خمارها ووشيها، واركبتها هودجها، وارسلها عنترة الى بني عامر مع بعض اصحابه، فدخلت خباء صخر وهو يظنها عبلة .

وفيما بنو عامر يولمون ولائم العرس، هبط عليهم عنترة، فذعروا، وتطايروا من

امامه . وكانت عبلة معه، فقضى العبسيون عن ابيها، بزواجها من عنترة . وقضى عنترة على صخر بان يتزوج ناجية، فاذعن مستخذياً، وقامت الافراح .

٢ منزلتها

ليست هذه المأساة، بخير مآسي شوقي، ولا بشرهن، فهي بارعة في تحليل الاشخاص والعادات، الا ما كان من دعوة عبلة الى الوحدة العربية، ومكافحة الاستبداد الاجنبي . مشحونة كغيرها بالحوادث الطفيلية، ضعيفة الارتباط، مبتذلة المبارزات . بيد انها لا تخلو من المشاهد الرائقة كتحرير عنترة، ودفاع عبلة عن حبها متمردة على ابيها واخويها، ودعوتها العرب الى الاتحاد . ثم المفاجأة التي كان بها حسن اختام .

نظرة عامة

في مآسي شوقي

شوقي والتاريخ

بنى شوقي مآسيه على حوادث التاريخ ، وادخل في بعضها الاساطير والخرافات « مجنون ليلى . قمبيز . عنترة . » غير انه كان يراعي الجانب القصصي احياناً ، فيغير في الاحداث التاريخية ويبدّل، ويقدم ويؤخر . الا ان الاختراع ضعيف في الجملة، فالتاريخ هو المسيطر على العقد والمفاجآت المسرحية . ويلام شوقي انه لم يتورع من تشويه الحقيقة التاريخية في بعض المواضع . فقد جعل عبلة « عنترة » تدعو الى الوحدة العربية وخلع نير الاعاجم . مع ان الجاهلي لم تخطر في باله هذه الاشياء، ولم يتجاوز القبيلة بعصبيته . وجعل ابن عوف يشفع لقيس، مع ان الذي شفع له نوفل بن مساحق « مجنون ليلى » وليس من داع قصصي يسوّغ هذا التغيير .

ومآسيه على لونين من التاريخ احدهما مصري « كليوباترا ، قمبيز ، علي بك الكبير » والآخر عربي « مجنون ليلى، اميرة الاندلس، عنترة . »

شوقي وقوانين ارسطو

لم يتقيد شوقي بوحدتي المكان والزمان بل كان ينتقل حراً من موضع الى آخر ، وربما استغرق هذا الانتقال شهراً او اقل من شهر، او اكثر . ولئن اباح للكاتب المسرحي ان يتمرد على ارسطو في هاتين الوحدتين ، لم يبح له ان يفتئت على وحدة العمل كما فعل شوقي في مآسيه .

الفصل

عني شوقي بالاكثار من الحوادث في فصول مآسيه، فاذا هي عنده أظهر من

تصوير الحياة وتضارب العواطف والاهواء . وفاتها الارتباط والتساوق ، فاضعفت العقدة، وافسدت العمل ، وهبطت بالفن التمثيلي هبوطاً مشئوماً لا حد له . فأنى تيبتها تجد معها المعرّة والضرر، ولولاها لكانت سقطات شوقي هينة يسيرة ، ولما نعيت عليه مآسيه . واليك البيان :

١ً يتطفل على الموضوع خبر دخيل يرافقه ولا يمتزج به « مصرع كليوباترا » .

٢ً تتوزع العقدة بين خبرين لا يتحدان اتحاداً قوياً ، فيبدو عليها الضعف والاسترخاء « علي بك الكبير » .

٣ً يُحشر في العرض حوادث غريبة عن العمل، لا علاقة لها بما يأتي بعدها « مصرع كليوباترا، اميرة الاندلس » .

٤ً يعترض الفصول اشخاص طفيليون لا قيمة لادوارهم، وحوادث خارجة عن الموضوع، لا عمل لها الا ان تقطع العمل : « مجنون ليلى ، قمبيز، عنترة، اميرة الاندلس» .

٥ً تستأنف المأساة بخبر جديد بعد انحلال العقدة « مجنون ليلى » .

فاتفاق الحوادث المختلفة على العمل، اودى بوحدته ، وحال دون العقدة ، فقطع اوصالها، وصدّ الجاذبية عنها، فلم يتسلسل تيارها في الفصول .

واذا اضفنا ضعف المفاجآت المختلقة، وخنوع اكثرها للتاريخ، وسيرها في ركابه، تبينت جلياً ضآلة تأثير العقدة في النفوس .

ونهاية مآسي شوقي فواجع ونكبات، وقتلى وصرعى، ما عدا عنترة واميرة الاندلس .

الاخلاق

وفق شوقي في تصوير اخلاق اشخاصه وعاداتهم، توفيقاً يحمد عليه ، ولاسيما في مصرع كليوباترا، ومجنون ليلى، وقمبيز ، وعلي بك الكبير . فأرانا الحب والبغض، والشجاعة والجبن ، والوفاء والخيانة ، والظلم والحلم ، والشرف والوطنية ، وجمال العواطف وقبحها . الا ان اشخاصه ليسوا باشخاص الانسانية ، يرافقون الاجيال والاحقاب، وانما هم يحيون ويموتون في عصورهم .

الحب

يحتذي شوقي على مثال كورنه في اظهار الحب وتصويره، فهو مقيد بالعقل ابداً، خاضع للواجب . فكليوباترا لم تتحرج من خذل حبيبها مراعاة للسياسة المصرية . وليلى رفضت قيسا محافظة على التقاليد البدوية . وورد خنق عاطفتـه ملبيا داعي الشهامة والمروءة « مجنون ليلى » . وأمال حبست نفسها عن مراد وفاء لزوجها « علي بك الكبير » . وعبلة ابت ان تزف الى عنترة دون رضى ابيها . وبثينة لم تتزوج حسوناً الا بعد ان استسلمت الى ارادة والدها « اميرة الاندلس ». على ان هذا الحب لا يبدو عظيماً بخضوعه للواجب الا في مجنون ليـلى ، ويعود ذلك على ضعف اثر التضحية، اما لحقارة العقبات التي تحيط بها، « علي بك الكبير » . واما لقلة خطرها، « كليوباترا » . او لحسن نتيجتها، « عنترة، اميرة الاندلس » .

والحب في مآسي شوقي لا تتصور فيه الغيرة، مع مـا لها من القوة في توجيهه وإلهابه . وهو خالٍ من الظرف والنعومة والدلال . وخالٍ من تصوير اللوعة والحزن، وتفاعل العواطف في حالة البعد والحرمان .

الخلفيات

تشتمل مآسي شوقي على مغازٍ خلقية نبيلة ، كالتضحية في سبيـل الوطن « كليوباترا، قمبيز » . وفي سبيل الشرف « مجنون ليلى، علي بك الكبير » . وكالسعي الى الوحدة القومية، والاستقلال، وخلع نير الغريب « عنترة، علي بك الكبير » . فكأنه يمثل في ذلك حالة مصر خصوصا، والشرق الاسلامي عموماً .

وفيها الثورة على الرق، وتقبيح الظلم والغدر « علي بك الكبير » . وفيها وخز الضمير، والم النفس النادمة « قمبيز » . وفيها مغبة الاثم، وعقاب الجريمة « كليوباترا، قمبيز » .

وفيها تصوير بليغ للشجاعة والمروءة والوفاء والحلم ، وعزة النفس، وعلو الهمة ،

وسواها من السجايا الحسنة . وفيها كثير من المواعظ وآداب النفس، التي طالما شغف بها شوقي وبثها في شتى قصائده .

الشعر

غلب النوع الغنائي على شوقي حتى في مآسيه، فاصطبغ بـه اشخاصه فاذا هم غنائيون مثله، يحتفلون بالقصائد الوجدانية الموسيقية، اكثر من احتفالهم بفن التمثيل . وقد ارتفع شوقي في كثير من هذه القصائد، فكانت له المقطعات الجميلة، والابيات المقلدة، والوثبات الرائعة، والايجاز المحكم في تأدية المعنى .

وشعره يرافق المواقف العاطفية، فيلين في موضع اللين، ويشتد في موضع الشدة، فاجتمعت له الرقة والجزالة، والنعومة والصلابة . وتطفو عليه المعـاني، والصور والتشابيه البدوية، في قصص البادية « عنترة، مجنون ليلى » . وهو على تقلب احواله رائق الديباجة، واضح الغرض، بعيد من الغريب المستوحش .

ولشوقي الفضل الذي لا يجحد في اخضاع الشعر للتمثيل، بعد عصيانه عـلى متقدميه . فقد حرره من رق الخليـل، فخالف في الانواع . فكانت له القصائد، والمقطعات، والتوشيحات، والمسمّطات، والمزدوجات . وخالف في الاوزان فكان يتنقل من بحر الى آخر في المشهد الواحد . وخالف في القوافي فكان يثب من رويّ الى رويّ متى شاء . فاتسع له مجال القول، وانطلق عنده عنان الفكر والخيال .

ما أُدرك عليه

كان شوقي كثير المعارضة للمتقدمين، راوية لاشعارهم، فقاده ذلك الى التوكؤ على معانيهم سواء في معارضاته او في سائر اقواله . فكثرت عنده المعاني المطروقة، والصور المقلدة، تحتشد حولها وجوه واجيال من طوائف الشعراء . وقد يحاول اخفاء سرقته في اخراج المعنى عن اصله فما يستقيم له الامر كقوله يرثي الملك حسيناً الهاشمي :

لَكَ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ مَآتِمْ، قَامَ فِيهَا أَبُو ٱلْمَلَائِكِ هَاشِمْ

فهذا المعنى مأخوذ من قول ابن النبيه :

مَأْتَمَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ لٰكِنَّهَا عُرْسٌ عَلَى ٱلسَّبْعِ ٱلطِّبَاقِ ٱلشِّدَادْ

وقول ابن النبيه اجود واصح . فقد جعل الارض في مأتم لان الميت فارقها . وجعل السماء في عرس لان الميت حلّها . اما شوقي فاراد ان يولد من المعنى شيئاً جديداً لم يقله سابقه، فجعل الارض والسماء في مأتم على السواء . وهذا لا يصح الا اذا كان طريق الميت الى النار، رحم الله الحسين .

ويدرك عليه في هذا البيت قوله : قام فيها، والصواب قام بها . يقال قام بالامر لا قام فيه . وقوله : ابو الملائك والصواب ابو الملوك او ابو الاملاك . ولُقِّب هاشم ابا الاملاك لان منه خرج ملوك العباسيين والطالبيين . واما الملائك فجمع ملَك اي الروح السماوي . وغلط شاعرنا في جعله هاشماً يقوم بمأتم الحسين في السماء لان هاشماً مات جاهلياً، ولم يدرك الاسلام، فليس له ولاية عند الله، فترتفع منزلته في الجنة، فيتولى مثل هذه الحفلات .

والعثرات اللغوية كثيرة في شعر شوقي نجتزئ منها بقدر قليل قال :

وَأَحْمَرَّ مِنْ خَفَرَيْهِمَا خَدَّاكِ

والصواب، من خفرهما اذ ليس لكل من خديها خفر يختلف عن خفر الآخر . وقال :

أَنَا مَنْ بَدَّلَ بِالْكُتْبِ الصِّحَابَا ، لَمْ أَجِدْ لِي وَافِياً إِلَّا الْكِتَابَا

ووجه الكلام : انا من بدل الكتب بالصحاب . وقال في قميز :

أَسَفاً عَلَى الْفِتْيَانِ أَيْنَ حَمَاسُهُمْ ، قَتَلَ النَّعِيمُ حَمِيَّةَ الْفِتْيَانِ

وانما يقال الحماسة لا الحماس ، والحماس شجر . وقال في علي بك الكبير :

بَعْضُ الثِّجَارِ الْجَوَالِبِ

والجوالب لا يستعمل الا مع النساء ، او غير العاقل . وقال في كليوباترا :

أَثَرَ الْبُهْتَانُ فِيهِ ، وَانْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ

فانطلى الزور عليه من كلام العامة . وقال فيها :

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ انْتَبَهْنَا نَرَى الْأُسْطُولَ أَزْيَنَ مَا تَرَاءَى

يقال : اصبح فلان : دخل في الصباح . ولا يقال اصبح الصبح . وقال :

بَطَلَ الشَّرْقِ قَدْ بَكَتْكَ الْمَعَالِي ، وَرَثَاكَ الْوَفِيُّ وَالْأَخْصَامُ

والخصم لا يجمع على اخصام .

ويؤخذ عليه اكثاره من استعمال ذا للاشارة شأن المتنبي وهي ضعيفة في الشعر .

ولم يسلم من الغلو المستكره كقوله يصف قذائف الاتراك :

قَذَائِفُ تَخْشَى مُهْجَةُ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَتْ مُصْعِدَاتٍ ، أَنَّهَا لَا تُصَوَّبُ

وله معانٍ بادية السخف والزراية كقوله في رثاء محمد علي زعيم الهنود المسلمين :

وَقَبَاؤُهُ نَهْجُ الْهُنُودِ فَهَلْ تُرَى دَفَنُوا الزَّعِيمَ مُكَفَّناً بِعَبَائِهِ

وربما خرج على اصول العروض وقوانينه ، فألحق العيوب المستكرهة بقوافيه كتائيته في لبنان ، فانها مشوبة بسناد الردف . او استباح الاوزان فكسرها كقوله :

مَنْ نَسِيَ السَّلَفَ وَخِدْمَتَهُ ، لَمْ يَذْكُرْ فِي غَدِ الْخَلَفَا

فقد اورد القبض اي حذف الحرف الخامس ، فجاء تفعيل الجزئين الاولين فاعلُ ، فاعلُ . والقبض لم يسمع في هذا البحر .

اسلوبه

لا تخطئ اسلوب شوقي اذا تتبعته في تعابيره، والفاظه وصوره وانتقالاته، على ما في شعره من رسوم ووجوه لشعراء مختلفين. فاسلوبه بادي الشخصية وان تكاثرت عناصره الغريبة، وشخصيته بينة الطابع، وان تكن في جملتها مستعارة. فلشوقي الديباجة المشرقة، والرنة الموسيقية، والاستهلالات البارعة، والالفاظ البرّاقة الصخابة البليغة الوقع في النفوس. والتشابيه المترفة الناعمة، يستمدها من الطبيعة الباسمة، والقصور الضاحكة، ومن وسوسة الحلى والجواهر، ومن الحياة الزاهية المبتهجة التي يشعر بها كل الشعور: «كأنّ اسمها البشرى او العيدُ.»

ويفرط في ذكر عيسى ومريم والملائكة والانبياء، والصحابة وعظماء التاريخ، والاسلام والمسلمين، والتوراة والانجيل والقرآن، والصليب والهلال، والجنة والخلد، والحور والولدان، والشمس ويوشع، والاخلاق، والعبقرية، والرفيف والرفرف، والضجيج، والبناء والحائط والشراع، والجناح.

ويكثر في كلامه من الاستفهام:

رِبَاعُ ٱلْخُلْدِ وَيْحَكَ مَا دَهَاهَا ؟ أحقٌّ أَنَّهَا دَرَسَتْ أَحَقُّ ؟

وربما انقطع عن الخبر ليثب الى الاستفهام تعمداً:

رَفَعُوا لَوْلَبَهَا فَٱنْدَفَعَتْ ، هَلْ رَأَيْتَ ٱلطَّيْرَ قَدْ زَفَّ وَحَامَا[1]

ويحفل شعره بالاشارات الى الحوادث التاريخية المشهورة، وخصوصاً ما يتعلق منها بالاديان، وبتاريخ الاسلام. ولا يخلو من غموض، اما لالتباس ضمائره، او لقصر الفاظه عن اداء معانيه، او لبعد استعاراته وكناياته، او لتعسفه في ابراز فكرته. فهو من هذا القبيل يشبه المتنبي وابا تمام.

---

(١) لولبها: الضمير يعود على الطيارة. زف الطائر: رمى بنفسه او بسط جناحيه ليطير.

وقصائده متعددة الاغراض، وان دل عنوانها على غرض واحد . فقد يمدح ، او يرثي، او يصف طيارة، فيدخل في مدحه ورثائه ووصفه، السياسة والتاريخ، والاجتماع والنصائح، والوطنيات والدينيات، وغير ذلك مما يحدث عنه كيمياء عجيبة التركيب، تخرجها شاعرية غريبة الوثبات، مكهربة التوليد، ملوّنة الانتاج .

منزلته

مسحت ربة الشعر احمد شوقي بزيت العبقرية، ونضحته بماء الخلود، ثم القته الى الشرق شاعراً ضنت بامثاله قروناً طوالاً . وحرصت على تنشئته ، فاتاحت له ثقافة حسنة رفعت مستوى تفكيره، وذللت له اسفاراً عديدة، تعهدت بالغذاء موفور خياله . الا ان الهة القدر خانتها فيه، وعكست آمالها من حيث حققت آماله . فما ان انتفض جناحاه، وزفّ للطيران في افق الوحي الطليق ، حتى لوّحت اليه بقفص من ذهب، فاغرته به، وخطفت ابصاره بلمعانه . فعشا الى ضيائه لا يبصر ما عداه ، وارتضى السجن الموصد على الفضاء الفسيح ، والتنزّي في القضبان على التحليق في الافلاك . فطوى جناحيه وهما على اشد ما يكون حاجة الى الانطلاق . واذا به في قصر الامير لا يرى من الشعر غير المدح والرثاء. وما يشبه المدح والرثاء . فجنى عليه البلاط ما جنى من قبل ، على المتنبي والبحتري وابي تمام . وصرفه كما صرفهم الى شعر الحفلات والمآتم . فكان شاعر الامير وامير الشعراء، والشاعر المترف المتنعم ، وكان ايضاً شاعر العبقرية المسجونة، وشاعر التقليد والمحاكاة .

وشاء القدر ان ينفى عن مصر، ثم عاد اليها لا ليتصل بالقصر، وقد انقطعت ما بينهما الاسباب ، وانما لينشد تلك الحرية التي اضاعها في شبابه ، وليتصل بالشعب ويلمس جراحاته بعد ان كان لا يتبينها الا عن بعد. فاجتمع له في الوطنيات، والدفاع عن مصر والاسلام والشرق شيء يحمد عليه .

وكأنه اراد ان يستعيض مما خسره وهو في البلاط ، فنشط الى الاغراض التي باشرها في صباه، فنظم اساطير القرون، ونظم القصص التمثيلية . فكانت اواخر سنيه اخصب ايامه، واشرفها انتاجاً . وانه وان لم يبلغ بالتمثيل غاية الفن والاتقان، لقد فتح طريقه للشعراء، وذلل لهم البحور والقوافي . وكان كالفرس الكريم يجيد الاحضار مهما يطل عليه المجال . وقلما وفت الشاعرية لصاحبها كما وفت له في شيخوخته .

ولو قُيِّضت لها الحرية في الشباب كما قُيضت لها في المشيب لجاءت بالعجب العجاب. ولأدّى صاحبها رسالة عبقريته بجذافيرها .

وطارت لشوقي شهرة في حياته، لم يطر مثلها الا لافذاذ الشعراء المتقدمين. فان منزلته عند الامير جعلته قبلة الانظار، وحديث المحافل . فكان اسمه يتردد على الافواه ويجول في الخواطر. وقصائده لا تنشر في الصحف الا متوجة بمقدمات الثناء والاطراء . ولم يكن النقد الادبي قد نهض يومئذ، فكانت كل قصيدة له عصماء، وكل نفثة من نفثاته سحر البيان . فكثر رواة شعره، والمعجبون به، وقل من نظر الى انتاجه، فرآه دون ما يرجى من شاعر مثله .

فلما تناءى شوقي عن عابدين، وعاد من الشعب، كان النقد قد تقدم تقدماً محسوساً، فانبرى الادباء في مصر ولبنان وسورية واميركة، يروزون اقواله، ويتلمسون مواطن الضعف فيه ، وينعون عليه تقليده، فتصدى لهم جماعة من نصرائه ينقضون اقوالهم، ويذودون عنه، ويبالغون في تفضيله . حتى عقد بعضهم الجوائز لمن يعارضه ويبذه[1] . فاحتدم الجدال في ما له وما عليه، واتسع مجال القول على خصومه ومريديه، فكان خلافهم فيه سبباً قوياً لتوطيد شهرته، كما وطد الخلاف من قبل شهرة المتنبي والبحتري وابي تمام . اضف الى ذلك مبايعته على امارة الشعر في حفلة حافلة بالشعراء والادباء. وطبع اثاره طبعاً عاماً متقناً، وطبعاً مدرسياً خاصاً، مما سهل لها سبل الانتشار. ثم حفلة تأبينه بعد موته، وما كتب عنه من المقالات والدراسات. ولا ينبغي ان نجحد فضل المغنين، ولاسيما عبد الوهاب المصري فانه اطار اشعاره التي غنى فيها، فسارت في الحواضر والبوادي، ورددتها قوالب الحاكي، وتغنى بها المغنون، وحفظها النساء والاولاد والرجال .

---

(١) عقد نعوم المكرزل منشئ جريدة الهدى النيويركية جائزة قيمتها مائة دولار، لمن يعارض شوقي في اربع قصائد مختارة، ويفضله فيها. وخص من نقاده صاحب هذا الكتاب، وايليا ابي ماضي، ومحبوباً الشرتوني . ثم اضيف الى الجائزة عشرون دولاراً تبرع بها احد المهاجرين من لبنان . ولكن لم يتقدم احد من هؤلاء الثلاثة للمعارضة، لان الناقد غير الشاعر ولان القصائد المختارة قيلت في اغراض مخصوصة، مضى عليها الزمان .

ولكن الشهرة وحدها لا تخلد صاحبها طويلًا إلّا تدعم بعناصر الخلود الحقة، وشوقي شاعر توافرت لديه عناصر العبقرية، فله الخيال الخصب المديد، وقوة الوصف والتصوير، ودقة الشعور بشباب الحياة وبهجتها. والوثبات العجيبة المحلقة، واللمحات السريعة الخاطفة. وأدب النفس الانسانية، واتساع عاطفتها واحساسها. وبراعة المعنى الطريف، وعمق مدلوله. وجمال اللفظ الانيق وهلهلته، كانما ركب من نغم الآلات. وله الشعر الرائع في الوطن والاسلام، والتاريخ والاجتماع، والحكم، والامثال الجارية على السن الناس. وهو شاعر عصره يمثله بسياساته، وفتنه، واحزابه، وفوضى مجتمعه واخلاقه.

ولئن غلب القديم على شعره بتأثير حياته، فما ينكر جديده في شتى اوصافه، واجتماعياته وقصصه التمثيلية، واساطير الماضين وسواها. فهو بحق واسطة عقد الاوائل والاواخر. وحسبه منزلة انه رفع قدر مصر في الشعر، ولم تكن قبله تعد شاعرًا منها في طبقة الفحول. فكان نابغتها الاوحد وامير الشعراء. وشاعر الشرق والاسلام.

الكتّاب المحدثون

عصر الانبعاث

ميزة النثر

كانت لغة النثر في صدر الانبعاث كلغة الشعر، ضعيفة التركيب، متثاقلة الاداء، مصروفة الى الصناعة اللفظية. وكان الغموض يرافقها على الغالب، ولاسيما في الترجمات، لاستمساكهم بالالفاظ، دون المعاني. ثم بدأت ترتفع وتنجلي ديباجتها بعد منتصف القرن الماضي، وظهرت نهضتها في مقامات الشيخ ناصيف اليازجي، ثم في ترسل اديب اسحق[1].

الا ان جمهرة الكتاب لبثوا يترسمون طريقة القاضي الفاضل والحريري في السجع والتزيين. بيد انهم حاولوا اطراحها في بعض اغراضهم، ومنهم من تجنبها أصلًا او قصرها على الترسل وانواعه.

ولما نشأ كتاب القرن العشرين اقلعوا عنها جملةً الى المرسل المطبوع. واقتصر المتكلف المسجوع على طائفة من الشيوخ حملوا معهم اسلوب القرن الماضي. ثم على طائفة اخرى من الجامدين الذين لا خطر لهم في النهضة.

وكيف دار الامر فالنثر كان اسرع تطورًا من الشعر، واعجل تفلتاً من اغلال التكلف والتقليد. لان الكتاب ادركوا روح العصر وحاجة ابنائه، فجاروا حياتهم في سيرها، وانطلاقها الى الامام. في حين كان الشعراء لا ينفكون عن التلفت الى الوراء.

---

(١) منشئ بليغ ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وترعرع في بيروت. وطارت له شهرة في مصر. جمعت نخبة اقواله واشعاره في كتاب اسمه الدرر. توفي ببيروت سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ).

ويعود الفضل في تقدم النثر، وتحرره الى اسباب عدة: منها انتشار الثقافة الغربية، وظهور النقد الادبي الحديث . ومنها مزاولة الصحافة، والترجمة ، واطلاع الكتاب على صحف الاعاجم، ومصنفاتهم، واساليبهم . ومنها نشر المخطوطات العربية القديمة لبلغاء الكتاب المطبوعين كابن المقفع، وابن خلدون، والامام علي، وابن عبد ربه ، وابي الفرج الاصفهاني، والجاحظ . فقد اقبل عليها الادباء وتدارسوها، فراقتهم اساليبها . ورأوا فيها ما يسد بلغتهم، ويعينهم على اداء افكارهم، في مختلف الابحاث . فتلمذوا لها، وجفوا الطرق المتكلفة التي يضيع العمر في تنميق الفاظها وتزيينها . وليس بوسعها ان تقضي حاجة العصر بما فيه من آداب وعلوم وفنون .

واختلطت هذه الاساليب بعضها ببعض من كثرة الانسحاب عليها ، ومازجتها الاساليب الدخيلة امتزاجاً يختلف بين القوة والضعف ؛ فنشأ عنها طرق حديثة متعددة اشهرها ثلاث : طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي، وطريقة مصطفى لطفي المنفلوطي، وطريقة جبران خليل جبران[1] .

واشتد تأثير الثقافة الغربية بعد الحرب العامة ، فجنحت طرق الكتاب في كثرتها الى اساليب الفرنجة، فاصطبغت بالوانها اصطباغاً بيناً سواء في فنون التعبير، او بعض وجوه التركيب . وظهر الضعف على طائفة منها لان اصحابها قلّ حظهم من البلاغة العربية، فطمت عليهم العجمة، وانحدرت ببيانهم اشأم انحدار .

واقادت اللغة الفاظاً جديدة، قضت بها الحضارة والمخترعات والعلوم . فمنها ما نقل بلفظه الاعجمي وعُرّب . ومنها ما وضعت له اصطلاحات من صلب اللغة . ومنها ما بقي حائراً بين لفظه الدخيل ووضع عربي جعل له، ولم يأخذ به جمهرة المنشئين . وشاعت الفاظ اقليمية ، حملتها الجرائد والكتب ، فالتبست من طول الاستعمال بالفصيح المأنوس .

---

(١) طريقة جبران قوامها تصوير خيالي جامح ، والفاظ ملونة مبلورة ، وجمل شعرية مقطعة، فيها شبه باسلوب التوراة . وكان لترجمة التوراة اثر ظاهر في نثر بعض الكتاب المسيحيين ، ومنهم جبران .

ومال الكتاب الى شيء من الاسهاب في تعابيرهم . وآثر بعضهم المساواة بين اللفظ والمعنى، الا المصريين فانهم على الاجمال تورطوا في التطويل والتكرار . وسرت عدواهم الى نفر من حملة الاقلام في سورية ولبنان .

ويمتاز النثر الحديث بوضوحه، وسلاسة قياده لاقتبال الابحاث المختلفة، مهما كانت عميقة متشعبة الاغراض . ولم يتفق للغة مثل هذا الوضوح ولا تلك المرونة في عصر من العصور .

اغراضه

اتسعت اغراض النثر الى انواع العلوم والفنون على اختلافها . فشملت الترسل والخطابة، والصحافة والقصص والتمثيل، والابحاث العلمية والاجتماعية والادبية بما فيها من نقد وتحليل . فبلغ بها النثر غاية بعيدة، وسد ثلمة كبيرة في الادب العربي القديم .

الترسل

لقي الترسل حظوة كبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد ان ارتفعت لغة الكتاب . فاعتمدوا عليه في الاخوانيات والوصف والمقامات، ومقدمات الكتب . ولم يضنوا به على الصحف السياسية، والابحاث العلمية . والتزموا فيه على الغالب، السجع ومزاوجة الالفاظ ومجانستها، وتحليتها بالصور البيانية، والانواع البديعية، وتجميلها بالاستشهادات، والتلميحات، والاشارات .

وجاروا المتقدمين في اكثر ابتداءات رسائلهم واختتاماتها، وادخلوا الادعية، والقاب التعظيم وعبارات التفخيم . ولم يربأوا بانفسهم عن التزلف وخفض الجانب ، ولاسيما في كتبهم الى اصحاب المراتب والمناصب؛ وعلى الاخص اذا كان هنالك حاجة يستنجزونها، او عتبى يلتمسونها :

« كتابي الى السيد السند، »

« كتابنا ايد الله الامير، »

« الى اعتاب ولي النعمة . »

على ان الترسل لم يلبث ان نبذ هذا التكلف المقيت بعد ان سادت الثقافة الغربية، وتحررت اساليب النثر . فاقتصرت الرسائل على ذكر الحاجات ، واقتصدت في التحيات والادعية . وانصرفت مقدمات الكتب الى نوع من الدرس والتحليل بدلاً من السجع ورصف العبارات الفارغة . واكتسب الوصف دقة وشمولاً واستغنى عن مترادفات الالفاظ والتعابير التي لا شأن لها الا ان تظهر ناحية واحدة من الموصوف . واهمل فن المقامات ولم يبق له ذكر يذكر . فاصبح الترسل على الاجمال يضع اللفظ والمعنى في ميزان واحد، ويجعل كل جملة تختص بمعناها، بعد ان كانت القيمة فيه لصناعة الالفاظ، ولتقليب الجمل على المعنى الواحد .

ومن مشاهير المترسلين الشيخ ناصيف اليازجي وولده ابراهيم، واديب اسحق ، والشيخ محمد عبده، وابراهيم المويلحي، والشيخ علي يوسف، والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي . ونجتزئ هنا بالكلام على اثنين منهم هما اليازجي الابن، والمنفلوطي .

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ — ١٩٠٦ م و ١٢٦٤ — ١٣٢٤ هـ

حياته

هو الشيخ ابراهيم ابن الشيخ ناصيف اليازجي، نصراني من طائفة الروم الملكيين. ولد في بيروت، وترعرع في بيت ركن العلم اليه، فألفه صغيراً. وتوسم فيه والده مخايل النجابة، فتعهده بعنايته، ولقنه اوليات اللغة وفنونها، وحبب اليه آدابها. فاقبل عليها يتزيد منها بالدرس والمطالعة، حتى تفقه اسرارها واستجلى حقيقتها ومجازها، واستكانت اليه شوارد الفاظها. فاصبح فيها علماً من الاعلام، وحجة غير مدافع.

ونظم الشعر صبياً، ولكن لم ينصرف اليه، وانما كان يروض نفسه عليه في السوانح. بيد انه تفرغ للنثر، وزاوله باعتناء، حتى برع فيه، وعد من كبار المنشئين.

ومال الى الصحافة، فكان اول عهده بها في جريدة النجاح[1] اذ تولى انشاءها سنة ١٨٧٢. ولكن لم يطل بها امره لان دخلها لم يكف خرجها. فتركها في السنة نفسها، وذهب الى مدرسة اليسوعيين في غزير. وكانوا يريدون ترجمة التوراة، فدعوه اليهم، واناطوا به تهذيب عبارتها. فاشتغل بها نحو تسع سنوات، منها في غزير ومنها في بيروت. فاخرجها بلغة انيقة، بليغة التعبير، ولاسيما العهد العتيق لانهم اطلقوا يده في تنقيحه اكثر من العهد الجديد.

---

(١) النجاح: جريدة سياسية علمية تجارية. كانت تصدر على عهد الشيخ مرة في الاسبوع، بعشرين صفحة. وكان يديرها يومئذ في بيروت صاحبها يوسف الشلفون، ورزق الله خضرا.

وكان وهو في بيروت يعلّم البيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية . ثم راجعه الحنين الى الصحافة، فاختار العلمية على السياسية، واصدر مجلة الطبيب سنة ١٨٨٤ يشاركه فيها الدكتور بشارة زلزل، والدكتور خليل سعادة . وكان يكتب فيها أماليه اللغوية فطار له ذكر باللغة، بعد ان عرف ببلاغة الانشاء . واقفلت الطبيب بعد سنة من صدورها، لقلة الاقبال على المباحث العلمية .

وكانت الصحافة قد تحولت الى مصر لانطلاق حرية القلم فيها، فيمم الشيخ شطرها سنة ١٨٩٣ في جملة اللبنانيين المهاجرين . وفي سنة ١٨٩٧ انشأ بها مجلة البيان مع زميله الدكتور زلزل . ثم حجباها بعد سنة، وانفصلا . واصدر الشيخ بعدها مجلة الضياء سنة ١٨٩٨، وظل يتعهدها بقلمه البليغ مدة ثماني سنوات حتى مات . وكانت وفاته بالسرطان اصابه في الكبد، ومات عزباً .

وفي سنة ١٩١٣ نقل رفاته الى بيروت فدفن فيها . وصنع له اللبنانيون في البرازيل تمثالاً من الشبه، وارسلوه الى بيروت . فبنيت قاعدته في محلة باب يعقوب . ورفع الستار عنه سنة ١٩٢٤ في حفلة حافلة شهدها ممثلو الحكومة الوطنية، والسلطة الفرنسية المنتدبة .

صفاته واخلاقه

وصفه جرجي زيدان في مجلة الهلال قال ما ملخصه : كان ربعة القامة، نحيف البنية، عصبي المزاج، حاد البصر، ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، حلو المفاكهة، شديد الحرص على كرامته، عفيف النفس، ظاهر الانفة حتى الترفع . ضاق عيشه، ولم يرض اصطناع التملق ليرتزق .

وكان صادقاً في اقواله واعماله، لا يحلف ولا يحلف، اميناً في ما ينقله من الاقوال، ينسب الفضل الى صاحبه . وبالضد، اذا صحح مقالة لاحد، سكت عنها، ولكن اسلوبه ينم عليه .

وكان باراً لأبيه، احسن اليه بعد موته، وزاده شهرة باتمام كتبه، وشرحها .

علومه ومواهبه

كان الشيخ يعرف من اللغات الاجنبية ، الفرنسية، ويلمّ بالعبرية والسريانية. وكان بارعاً في الرياضيات وعلم الفلك، وله مشاركة في العلوم الطبيعية والفقه الحنفي. وكثيراً ما جرت المباحثات بينه وبين علماء الفلك الفرنسيين . واشتغل بحل المشكلة الرياضية المشهورة، وهي قسمة الدائرة الى سبعة اقسام، وتوصل الى نتيجة تقرب من الصواب، وبعث بها الى المجمع العلمي الفرنسي . وهو من اعضاء الجمعية الفلكية في باريس، وانفرس، والسلفادور .

وكان ماهراً في صناعتي الحفر والتصوير اليدوي، جميل الخط، قاعدته فارسية .

آثاره

ليس لليازجي من الآثار ما يعادل شهرته العلمية، ويعود ذلك على بطئه في العمل، ثم على تنوقه في عبارته، وعنايته بتنخلها وتحكيكها . فانه لم يكن ينشر مقالة الا بعد ان يراجعها مرات، ويتحرّى صحة مفردها ومركبها، ويغير فيها ويبدل. ولعل خوفه من النقد كان يدفعه الى زيادة التدقيق، لعلمه ان له خصوماً يتربصون به ليتتبعوا سقطاته . ولا بد ان مناظرته للشدياق في الذود عن والده علمته ان يحتاط هذا الاحتياط[1] . ومع ذلك فآثاره التي تركها ما بين تأليف وشرح وتصحيح تدل على مبلغ علمه وفضله .

---

(١) تصدى احمد فارس الشدياق لنقد الشيخ ناصيف اليازجي بعد وفاته سنة ١٨٧١ . فانبرى الشيخ ابراهيم يدافع عن ابيه في مجلة الجنان ، وينتقد الفاظاً وردت في مقدمة سر الليال لاحمد فارس . وكان الشيخ يومئذ في الرابعة والعشرين ، والشدياق في السبعين ، وله شهرة طائرة ، وكعب عالٍ في اللغة . فلم يستطع الشيخ ان يبزه ، ولكنه وقف في الدفاع عن ابيه موقفاً نبيلاً .

فاما مؤلفاته، فمنها في النثر مجموعة رسائل بخطه طبعت على الحجر وضمت الى ديوانه . ثم ما كتبه في الطبيب والبيان والضياء من المباحث اللغوية والعلمية والادبية . ثم تعاليق على محيط المحيط للبستاني جمعها ونشرها في مصر الدكتور سليم شمعون، وجبران النحاس . ثم نُجعة الرائد في المترادف والمتوارد ، جرى فيه مجرى الالفاظ الكتابية ، على اعتبار المعنى في التنسيق . ولكنه جعل مدار الكلام على الانسان، وما يتعلق به من الصفات والافعال، وما يكتنفه من الاشياء، ويعرض له من الشؤون . ووصف ما يجده في مزاولة الامور، وما ينتظم به مجتمعه من احكام السياسة والقضاء . وقسمه الى اثني عشر باباً، كل باب يتفرع منه فصول . مثال ذلك الباب الاول : في الخلق وذكر احوال الفطرة وما يتصل بها . وفصوله تبحث في الخلق، وقوة البنية وضعفها، وحسن المنظر وقبحه، والسمن والهزال، والطول والقصر، والاطوار والاسنان، والحواس وافعالها وما يتعلق بها . الا انه مات قبل ان يتمه، والذي ظهر منه ثمانية ابواب طبعت في جزئين .

ومنها في الشعر ديوان مكتوب بخط يده، طبعه على الحجر حبيب اليازجي ابن اخيه خليل ، وضم اليه مجموعة الرسائل . وشعره متين محكم، ولكن اكثر اغراضه يجري على الطريقة التقليدية من مدح يتقدمه غزل بدوي ، ورثاء اشبه بالمدح، وتواريخ شعرية في التهنئات وفي ما يكتب على الضرائح . وله قصائد اجتماعية وطنية، في دعوة العرب الى ترك التخاذل الطائفي وحضهم على الثورة، وخلع نير الاتراك . وقصيدة يصف بها الزُهَرة وصفاً علمياً .

واما شروحه، فاشهرها شرح ديوان المتنبي . وكان والده قد بدأ به في حواشٍ علقها عليه، فاتمه الابن وذيله بنقد لغوي لشعر ابي الطيب .

واما تصحيحاته، فاعظمها تنقيح عبارة التوراة . ثم تهذيب تاريخ بابل واشور لجميل المدور . وتصحيح كتب والده في الصرف والنحو، واختصارها .

وقيل انه حاول ان يؤلف معجماً في المأنوس من كلام العرب الاوائل ، فحالت الحوائل دون تأليفه .

ومن آثاره اصطلاحات وضعها للمعاني الفنية الحديثة، وفي الضياء شيء كثير منها . وقاعدة للحروف المطبعية ، حفرها بيده، شاعت في مصر وبيروت واميركة .

ميزته

لم يرتفع الشيخ بنظمه كما ارتفع بنثره . فما نعده في طبقة الشعراء المقدمين، وانما يسير في طلائع بلغاء الكتاب، ويستوي على عرش ائمة اللغة الحاذقين .

وله في الكتابة اسلوب معروف، ولاسيما حين يعالج النقد اللغوي، فان طابعه الخاص لا يقتصر على الطريقة الانشائية وحدها، بل يتعداها الى شخصيته المتهكمة اللاذعة، الباسطة سلطانها على من تنتقده، المتحكمة به تحكم القوي بالضعيف . وسنحاول ان نظهر هذا الطابع في اسلوب الشيخ مما تناولناه من آثاره المتفرقة في مجلاته وخصوصاً الضياء، التي ظهر فيها نضجه وسمو انشائه .

ابحاثه واغراضه

تناول الشيخ في ترسله ابحاثاً مختلفة . منها الرسائل، واغراضها شكر وتهنئة، وعتاب واعتذار، وتعزية . ومنها المباحث اللغوية، كأماليه في اللغة، واللغة والعصر في فلسفة نشوء الالفاظ . والمجاز وانواعه . ونقد لغة الجرائد ومغالط المولدين، والعرب الاولين، والمعاجم اللغوية وشعر المعاصرين . وكتب الاب لويس شيخو ولاسيما مجاني الادب . ونقد على شعر المتنبي بين فيه اسباب غموضه وخفاء معانيه، واظهر ما به من الحسنات والسيئات . وعاب على شارحيه خلطهم واضطرابهم في تفسيره . وصحح اوهامهم واقال عثراتهم .

ومنها المباحث الادبية، كما في كلامه على الشعر وتعريفه، ونقد معانيه والفاظه . ومنها المباحث الاجتماعية، كنقده للجرائد وابانة مواطن الضعف في ابحاثها السياسية

والاجتماعية، وما تحمل من الضرر في نشرها بذور التعصب بين الطوائف . ومنها المباحث الفلكية والطبيعية، كمقالاته في الزُهرة، والقمر، والتنجيم، والجبال، والرياح، والبصريات، وهلم جرًا .

اسلوبه الانشائي

للشيخ انشاء متين بليغ، رائق الديباجة، واضح المعاني، بعيد عن الصِيَغ الشاذة والتراكيب الجافية . بريء من الغموض والالتباس حتى في ادق مباحثه اللغوية والعلمية . وربما حلاه بالاستشهادات من شعر وآيات وامثال .

وجملته خطابية انشائية في الغالب، متَّزنة العبارة، رصينة محكمة . يميل بها الى الاسهاب من غير تطويل، ويعاقبها على المعنى الواحد دون اسراف .

ولفظه محكك مختار، خالٍ من الغريب المستوحش، مصوغ من معدن واحد، غير متقلقل ولا متنافر . وله تعابير مخصوصة لا يفتأ يرددها إما في ربط الجمل وشدها، واما في الخروج والانتقال . فهي اشبه بدعائم يعتمد عليها، ومفاتيح يتصرف فيها . فمنها : لا جَرَم، وبيْن، وبل، وفضلًا عن، وزد على ذلك، وبديهي، وليت شعري، وأيم الله، وبالتالي . فهذه الالفاظ واشباهها لها حظوة كبيرة في انشائه .

واسلوبه، يبعثه احياناً مسجعاً، واحياناً مرسلًا . فاما المسجَّع فيأتي به في رسائله، ومقدمات كتبه . وربما جاد به على مقالاته الصحفية، متوجاً بحثًا من ابحاثه، كما توَّج مقالة الزُهرة . فقد استهلها استهلالاً شعريًا، فسجع وتخيل، حتى اذا بلغ امنيته، عاد الى البحث العلمي في انشاء مرسل لا سجع به ولا خيال .

وفي هذا النوع من ترسله تكثر الفنون البيانية والبديعية ولاسيما التشبيه والاستعارة ومراعاة النظير كقوله : « وخفَّت اليه طلائع الإجابة من كل وادٍ حتى اصبح مِضماراً لسوابق الافكار، وسوابح الاحلام . »

والكلام هنا على القُطر المصري، انه دعا الادباء اليه فلبَّته جموعهم . فلما قال : « طلائع الاجابة »، جعل الاجابة جيشاً على سبيل الاستعارة . ورشحها ليزيدها قوة

فكان القطر المصري لها ميداناً . وراعى النظير فجعل بهـا السوابق والسوابح من الخيول . وجرّدها فكانت خيول الافكار والعقول . وادخل عليها التشبيه الاضافي : سوابق الافكار وسوابح الاحلام .

والتشبيه الاضافي كثير في ترسل الشيخ اذا نمق ، وكذلك التشبيه التمثيلي الذي يأتي بصورة المحاكاة . كقوله : « الحمد لله الذي جعل العلمَ ضياءً للبصائر ، كما جعل النور ضياء للنواظر . . . يُقلِّب احوالَ الارض ، كما يُقلِّبُ الدرهم بين الأنامل . »

واليازجي شديد الحرص على اظهار الحقائق اللفظية . وحرصه هذا ، حمله على الاحتفال بالترشيح ليلبس الالفاظ المستعارة ، والمشبه بها ، الاثواب التي حيكت لها ، فيعطيها قوة على قوتها ، ولا سبيل الى ذلك بغير الترشيح . فلما استعار الجيش للإجابة ، جعل القطر له ميداناً ، لان الجيش لا بد له من ميدان تصول فيه خيوله وتجول . ومثل هذا قوله في العلم : « وزَخر في كل وادٍ تيّاره . » فقد جعل العلم كالنهر الفياض بصورة الاستعارة . ثم رشحها فجعل لها تياراً يزخر في كل واد .

وجاءت استعاراته وتشابيهه بل شتى تعابيره في الجملة ، قوالب جميلة نحتتها ايدي الاقدمين ، فأخذها عنهم واحسن انتقاءها ، وتأليفها ، وافرغ فيها صوره ومعانيه . وسبب ذلك سعة اطلاعه على مذاهب الكلام عند العرب ، وتصنيفه نجعة الرائد في المترادف والمتوارد .

واما انشاؤه المرسل ، فتتقل فيه الصور البيانية والبديعية ، والقوالب الموروثة ، ولكن لا يعدوه اللفظ الانيق وحسن اختياره . وهو افيض طبعاً وأمرن جانباً ، وأسلس قياداً من المسجوع . ويزداد قوة ومضاء بظهور شخصية صاحبه في مواطن الانتقاد ، فيصطبغ بالوان من السلطة المتحكمة ، والاعتداد المكين بالنفس ، والتهكم الحاد ، والقرص والتأنيب . فمن ذلك قوله في لغة الجرائد :

« يقولون : زُفَّ فلان على فلانة ـ هكذا مُعدّى بعلى ـ فيعكسون الاستعمال ، لانه يقال زفّ العروس الى بعلها ، اي اهداها اليه . ولا يقال زفّ الرجل الى المرأة . الا ان يكون هذا من مقتضيات هذا العصر الذي استَنوَقت جِمالـه ، واصبحَ

ونساؤه رجالُه . حتى رأينا الرجلَ يأخذُ المَهرَ ، ورأينا المرأةَ تتطاولُ الى النَهي والامر . »

وحبه للنقد، والتنطس في سقطات الادباء، والإدلاء بالرأي، والمباهاة بالمعرفة، حمله على الاستطراد في كلامه . فبينا هو يتكلم على لغة الجرائد اذا به ينتقل بصلة الغلط المشترك الى نقد الكتاب والشعراء المتقدمين كقوله :

« ترى اكثر كُتّابنا اليوم يقولون : لا يَخفى بأن الامرَ كذا، ويسرّني بأن يكونَ زيدٌ كذا، وهلمَّ جرًّا . مع انهم لو استعملوا المصدرَ في ذلك كله ، لم يكن لهذه الباء محلّ عندهم . ومن الغريب ان ممن استُدرج بهذا عنترة العبسي في معلقته المشهورة حيث يقول :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ فِي ٱلحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ٱبْنَيْ ضَمْضَمِ

وقولُ من قالَ ان الباء تُزاد على مفعولِ خشيَ ليس بشيء . لانه لو استُعملَ الاسمُ هنا لم يُقَلْ خشيتُ بالموت . وانكر ما جاء من مواضع زيادتها قولُ ابن حجّة الحموي، رواه لنفسه في خزانة الادب :

مُنَعَّمَةٌ لَفَّاءُ ، مَهْضُومَةُ ٱلحَشَا ، تَكَادُ بِأَنْ تَنْقَدَّ مِنْ رِقَّةِ ٱلخَصْرِ

فزادها في خبر كاد، وهو من المواضع التي لا تدخلها أن إلّا شذوذًا، فضلًا عن إشكال دخولها في هذا الباب من اصله . فما عتّم ان زاد هذه الطينة بلّةً بدخول الباء . » اه

واليك مثالين آخرين من اسلوبه احدهما من المسجوع، والثاني من المرسل . قال يصف الزهرة :

« هي مَلَكُ جُندِ الدُّجى، بل قائدُ مُعَسكرِ الأنوار . بل إلهة الجمال استوت على عرشٍ من النُضار . اذا بَرَزت في ثوب بهائها فاكفَهَرَّتْ لها الشمسُ من الحَسَد . بل غشيتها حمرةُ الخجلِ بَعد ما علتها صُفرةُ الكَمَد . فأقبل الهلالُ وقد انحنى بين يَدَيها وسَجَد . وأطافت بها حورُ الكواكب . كأنهن أترابٌ كواعب . فوقفن

لخدمتها متضائلات أمامَ عَظَمَة جلالها . وقد أرخين شُعورَهن من حولها فشَبَن [١] من جمالها . فما كادت تتجلى لهن حيناً حتى توارت عنهن بالحجاب . ويسرن في أثرها متتابعاتٍ حتى بَرقَعهنَّ الصُبحُ بأبيضِ الجِلباب .

واذا رأيتَها بارزةً في طليعةِ الكواكب . وقد تجلّت في فَلَكِها حينَ لا يبدو طالعٌ ولا غارب . فاستلّت من الهِلال سيفاً استقبلت به نحر الظلماء . ثم نادت في جَيْشِها فإذا به قد طبَّق نواحي السماء . فبرز الرامي [٢] . فأوتر قوسه وانتَصَبَ للنِضال . ووضع الجَبّارُ [٣] يدَه على سَيفِه ونادى يا لِلنِزال . وأشرَعَ السِماكُ [٤] رُمحَه فخفق فؤاد العذراء [٥] . واطلق المرّيخ [٦] سهمَه فاذا هو مُضرَّج بالدماء . وتتابع سائرُ الجيش بسلاحِه فلا ترى الا وميضاً وبريقاً . وأسِنَّة قد غاصت في كَبِدِ الدُجُنَّة فمزّقتها تمزيقاً . فما أقبل جَيشُ الصباح الا والأُفق مخضوبٌ بدمِ الدُجى . وقد بلغ سيلُه الرُبى بل جاوز الرُبى . » اه

وينتقل الى البحث العلمي فيترك السجع والخيال الشعري :

« لا جَرَم انه اذا كان بَعدَ الشمس والقمر نجمٌ حريٌّ بالعبادة فأحرى النُجومِ بذلك الزُهرَةُ لِما أنها اعظَمُ الكواكبِ نُوراً الخ . . . » اه

وقال في تعريف الشعر وهو من انشائه المرسل :

« إنَّ النَثْرَ هو القالَبُ الطَبيعيُّ للكلامِ الموضوع للإبانةِ عن المعاني التي تتَمثَّل في النفس . يتخاطبُ به العالمُ والجاهلُ ، والذكيُّ والبليدُ ، والكاتبُ والأُميُّ . فوَجبَ ان يكونَ بحيث تتَفاهمه هذه الطبقاتُ كلُّها . ويعبَّر به عن المقاصد بأبيَنِ الصور وأوضحها . وذلك يَقضي ، ولا جَرَم ، بان يُستعمل لكل مَعنىً اللفظُ الموضوعُ له . بحيثُ يُنتَقل من اللفظ الى المعنى من غير واسطة . وبخلافه الشعرُ فانه من

---

(١) شبين من جمالها : اي زدن منه ، وذلك اضآلة انوارهن بالاضافة اليها . والاشياء تكشف باضدادها . (٢) من البروج الاثني عشر . (٣) الجبّار : برج في السماء ويعرف بالعذراء والسنبلة والجوزاء . (٤) السماك : ويعرف بالرامح : كوكب نيّر في جهة الشمال امامه كوكب صغير يقال له راية السماك ورمحه (٥) العذراء : الجوزاء . (٦) المرّيخ : من السيارات السبع معروف بالحدّة والحرب .

الكلام الذي يُقصد به ما وراء مدلولِ اللفظ من مُناغاة النفس، ومناجاة الوِجدان فتُورّى فيه المقاصد تحت الصُور الخَيالِيَّة . وتُبرزُ المعاني تحت ثوبٍ من المجاز او الكِناية ونحوهما . ولذلك اختُصَّ بمخاطباتِ البُلغاء وطبقات الكتّاب والمُتأدِّبينَ . ونُحيَ فيه منحى البلاغةِ في المعنى ، والتأنق في الالفاظ والاساليب . وأكثِرَ فيه من التفنّن بالانواع البديعيَّةِ مما يَجمع بعض اطرافِ المَعنى الى بعضٍ بما يربُطها من تَناسُبٍ او تَضادٍ او غير ذلك بحيثُ تتألَّفُ منه صُوَرٌ كاملةٌ على حدِّ ما يَفعَلُ المصوِّرُ في تصوير الاشباحِ ، والمغني في تأليف النَغَم . والمقصودُ من كلِّ ذلك الاستيلاء على قُوَى النَفس وإلباسُ المعاني المتأدية اليها من طريقِ الحسِّ او العقل، ثوباً من الخيالاتِ بعدَ تلوينهِ باللونِ الذي يُريدُه الشاعرُ تَبَعاً لغَرضه .

وبَيِّنٌ أن هذا الذي ذكرناه من تأثير الشعر غيرُ خاصٍّ بالكلام المنظوم . ولكن كلُّ ما تَضَمَّنَ شيئاً من الاغراضِ المذكورةِ وأثَّر في النفسِ تأثيرَها عُدَّ شعراً . وقد قدَّمنا أن غالب شعر الأقدمين [1] لم يكُن على وزنٍ ولا قافيةٍ . وانما كان الشعرُ عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه، وجَزالة الفاظه، ونوع اسلوبه » اهـ .

منزلته

علمنا ان آثار اليازجي لا توازي شهرته العلمية، ومنزلته في اللغة وآدابها . فكيف طارت له هذه الشهرة، واستوت تلك المنزلة على قلة انتاجه وقِلَّ مصنفاته ؟ هذا ما نحاول البحث فيه لنستجلي تلك الشخصية القوية التي أمت الكتاب واللغويين في اواخر القرن التاسع عشر، واوائل العشرين . وذهب لها صيت لم يذهب مثله الا للاقلين من معاصريها . وبلغت من ثقة الخاصة بقدرتها اللغوية، مبلغاً يمتد الى حد بعيد، حتى عدت حجة مكينة لا تقرع . ووُضع صاحبها في طبقة اشياخ اللغة المتقدمين، وربما فضّلوه على كثير منهم .

---

(١) يريد هنا بشعر الاقدمين ، الشعر الوارد في بعض اسفار التوراة والنبوءات .

بدأت شهرة اليازجي يهب ريحها، ولما يزل رخص الانامل ، طريّ العود . فقد كانت مقارعته لاحمد فارس الشدياق أشبه بمقارعة بديع الزمان الهمذاني لابي بكر الخوارزمي . فلفتت إليه الانظار، وتحدث به الناس، وعطف عليه النصراء .

ثم كانت ابحاثه اللغوية والعلمية، فنقد المعاجم وبيّن ما فيها من سقط ونقص وخلل . وصبّ على الكتاب والشعراء، غارة منتشرة اصابت الاخضر واليابس من المتقدمين والمحدثين، ولم تعفّ عنه وعن ابيه . وظهرت في نقداته قوة الحجة، وبراعة الاستنتاج والتعليل . فتهيبه الادباء، واقروا له بالفضل والتقدم . ولم يخل من خصوم وحسّاد يناصبونه، ويزيدون في شهرته، وامتداد ذكره .

وكذلك مباحثه العلمية جعلته موضع الاعجاب والاحترام عند اهل زمانه . وذلك لاتصاله بعلماء اوربة، واعتداد هؤلاء بآرائه واقواله .

وكان تأثيره في النهضة قوياً، لانه في نقده لغة الجرائد نبه الكتاب على مغالطهم، وحملهم على التماس الالفاظ الفصيحة، والتراكيب الصحيحة في كتاباتهم . ورأوا في نجعة الرائد معيناً حافلاً، يستسقونه على ظمإ، فيجود لهم بشتى الالفاظ، والتعابير المترادفة ، فيستعينون بها حين يبتذل كلامهم من كثرة الاستعمال ، وتضيق مذاهبه في وجوههم . وكان انشاؤه البليغ نموذجاً لكثير منهم يترسمونه ويطبعون على غراره . وافاد اللغة بالمصطلحات التي استحدثها للمعاني الجديدة، وبالحروف التي وضعها للطباعة والنشر . فشهد الناس بفضله ، وبايعوه بالامامة ، وخلّدوا ذكره ، فكان اول اديب عربي نصب له تمثال في حاضرة .

المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤ م و ١٢٩٣ — ١٣٤٣ هـ

حياته

هو مصطفى بن محمد لُطفي المَنفَلُوطيّ . ولد في مَنفَلُوط من صعيد مصر، واليها انتسب . وكان في الحادية عشرة عندما حفظ القرآن . فبُعث الى القاهرة، وادخل الازهر، فمكث فيه عشر سنوات، يدرس علوم الدين واللغة . إلا انه كان ميالاً الى الادب، وليس في الازهر منه ما يروي الغليل . فكان يفترص السوانح، لينظر في الكتب الادبية، مع ان قانون الجامع لا يسمح بها . فكان شيوخه اذا ظفروا بكتاب منها في يده، عنفوه، وعاقبوه، وهو لا يرده عنها تعنيف ولا عقاب .

وكان افضل الكتب عنده، العقد الفريد، والاغاني، وزهر الآداب، ودواوين المتنبي والبحتري وابي تمام والشريف الرضي . وافضل الكتاب، عبد الحميد، وابن المقفع، وابن خلدون في مقدمته، وابن الاثير اذا لم يسجع .

ولما ترك الازهر انضم الى حلقة الشيخ محمد عبده، ولزمه فافاد من معارفه في الادب والاخلاق والحكمة والطبيعي . وبعد وفاة الشيخ الامام (١٩٠٥م) عاد الى منفلوط، ومكث بها برهة سنتين، يراسل المؤيد باسبوعياته . ثم رجع الى القاهرة، وثابر على التأليف والكتابة في الصحف حتى مات .

وكان محازباً لسعد زغلول باشا، فبرّه سعد بمناصب الحكومة . ومات وهو رئيس لفرقة من كتاب مجلس الشيوخ، ومشاهرته لا تقل عن خمسين جنيهاً .

اخلاقه وصفاته

كان رضي الطبع، هادئ البوادر، رزيناً متوقراً، على شيء من الانقباض. وكان رقيق الفؤاد يتألم للمآسي البشرية، ويعطف على البائسين، ويبرّهم بما تصل اليه يده. وربما شكا اليه صديق خلّة، او تبينها في وجهه، وعلم انه يكتمها منه حياء، فما يتأخر عن مساعدته؛ وقد يقتسم ما في محفظته من الدراهم بينه وبينه.

وكان له زوج، فاصابها رمد اضعف بصرها، فلم يدخر وسعاً في تسليتها والحدب عليها، حتى انه كان يكلّفها اعمالاً لا يقوم بها الا المبصرون ليوهمها انه لا ينكر عليها من نظرها شيئاً.

وكان مصرياً يكره الاحتلال الانكليزي، ووفدياً يحازب سعد زغلول، وشرقياً يمقت المدنية الغربية، ومسلماً يتعصب لدينه، ويدافع بحماسة عن الاسلام والمسلمين.

آثاره

ترك المنفلوطي آثاراً غير قليلة بين موضوع ومترجم: منها النظرات ثلاثة اجزاء، وهي اسبوعياته التي كان يكتبها في المؤيد، وفيها ما هو منقول ليس من وضعه.

ومنها العبرات جزء واحد، وهي مجموعة اقاصيص، بعضها مترجم عن الفرنسية، واجمله الضحية، او ذات الكاميليا لديماس الصغير.

ومنها قصص اخرى نقلها على حدة، وهي الشاعر او سيرانو دي برجراك لادمون رُستان. وفي سبيل التاج لفرنسوا كوپه. ومجدولين او تحت ظلال الزيزفون لالفنس كار. والفضيلة او پول وفرجيني لبرنردان دي سان پيير.

وكان يجهل الفرنسية، فكانت هذه القصص تنقل اليه بلغة غير مهذبة،

فيلخصها، ويتصرف فيها على هواه، ويخالف الاصل، فيجعل التمثيلية منها غير تمثيلية، كما اصاب قصتي الشاعر وفي سبيل التاج .

وله في الشعر شيء قليل، اغراضه مختلفة، متفرق في الصحف . وله مختارات المنفلوطي، مجموعة شعرية اختارها لطلاب المدارس، ولم يطبع منها الا جزء واحد مع انها تبلغ ثلاثة اجزاء .

ميزته

لا نحاول ان نستخرج ميزة المنفلوطي من شعره، فانه ضعيف لا يعتد به . ولا من قصصه وفصوله المنقولة، فانها لا تمت اليه بغير الالفاظ والتراكيب . وان يكن غير فيها وبدّل، فليس في تغييره وتبديله زيادة على الاصل او اختراع جديد وانما هو مسخ وتلخيص . ونحن نريد ان يكون الكلام فيه شاملاً خياله وتفكيره وتعبيره وهذا لا يتأتى لنا الا اذا درسنا مباحثه، واقاصيصه التي هي من وضعه ليكون حكمنا عليه اصح واعدل .

اغراضه وخصائصه

تشتمل مباحث المنفلوطي على فصول ورسائل وكلمات متعددة الاغراض، فمنها الاجتماعية، ومنها الاسلامية، ومنها الادبية، ومنها الرثائية . وكلها مجتمعة في كتابه النظرات . ومنها القصصية وهذه بعضها ينضم الى المقالات الاجتماعية في النظرات، وبعضها الآخر يستقل في العبرات .

الاجتماع

عني الكاتب عناية خاصة بالمباحث الاجتماعية، يريد بها اصلاح الاخلاق، وتطهير المجتمع من المفاسد . وأغري بتمثيل البؤس والشقاء والدعارة، وذكر الانتحار والمنتحرين . والتحدث عن سقوط الفتيان والفتيات، والخيانات الزوجية، والفضائح العيلية . فتكاد لا تقرأ فصلًا في النظرات الا وقعت فيه على خبر عاشق انتحر من يأسه . او طلاب ارادوا الموت لسقوطهم في الامتحانات . او فاسق لقي في جزاء فسقه موتاً شنيعاً . او زوجة خانت زوجها، فساء مصيرهـا . او زوج أغار امرأته بسوء سيرته، واهمل تربية ولده باشتغاله عنه، فلاقى مغبة اثمه بنشوز قرينته، وفساد ولده . او فتاة خدعها فتى عن نفسها، واغراها بمصاحبته بعد ما وعدها بالزواج، ثم تركها : « وفي صدرها هم يضطرم، وفي احشائها جنين يضطرب . » او غير ذلك مما يفصّل نقائص المترفين، واستهتارهم بالمعاصي، وادمانهم الخمر والميسر، وجورهم على الفقير البائس، والضعيف الجاهل، بحيث يُتمثل المجتمع الانساني اقبح تمثيل .

والمنفلوطي في اجتماعياته يحنو على المرأة، ويشفق على ضعفها، وينعى على الرجل قسوته، وظلمه لها، ويدعوه الى معاملتها بالحسنى . ويقبّح الطلاق اذا جاء عن ملل وحب للتجديد . ويروي عـلى حسن المساكنة قصة رجل[1] رمدت زوجه، فضعف بصرها، فازداد عليها عطفاً، وبها تمسكاً . وكان يدخل السرور الى قلبهـا بان يعتب عليها في امور لا يؤاخذ بها الا المبصرون؛ يريد ان يوهمها انه لا ينكر من امرها شيئاً .

واذا سقطت المرأة وساءت سيرتها لا يقسو عليها بل يحاول ان يجد لهـا العذر بايقاع الذنب على صاحبها؛ اما لانه اكرهها على السقوط، او لانه خدعها ومنّاها بالوعود . ولكنه يرى ضرورة حجابها لانه في نظره صيان لعفافها .

---

(١) الرجل هو المنفلوطي نفسه، والمرأة زوجته .

وهو شديد الكره للمدنية الغربية، وما جاءت به الى الشرق من اخلاق وعادات، لا ينفك يحمل عليها، ويشوّه محاسنها، ولا ينظر منها الا ناحية العيوب والرذائل. فالشرور، والفواحش، وامراض الاخلاق والابدان، وتجارة الاعراض، وانتهاك الحرمات، كلها بضاعة اجنبية، اصدرها الغرب الى الشرق. ولولا المدنية الغربية لسلم الشرق من هذه الآفات. فخير له ان يبتعد عنها كل الابتعاد، ولا يقتبس منها الا العلوم والفنون. بل خير له ان يبقى جاهلاً من ان يغوص في لججها، ويقذفه تيارها.

وغير خفيّ ما في هذه الآراء من مجازفات لا يسلم بها العقل الصحيح، ولا يرتضيها العلم. لان هذه الآفات حليفة المدنيات في كل زمان، لا ينفرد بها مصر عن آخر. وقد كان لها الشرق ملعباً فسيحاً في حضارته القديمة، قبل ان تتولد المدنية الغربية الحديثة. ولكن المنفلوطي يستمد ابحاثه وآراءه من اخبار الصحف اليومية وتعليقاتها، ومن احاديث الناس وتعليلاتهم. فلا غرو ان يكون صدى لما يسمع من سخطهم على المدنية الغربية، واسناد جميع المفاسد والمصائب اليها. وان يردد اقوالهم في الانتحار والمنتحرين، والتهتك والحجاب، والخمر والميسر، والغني والفقير والضعيف والقوي، فيصيب مرة ويخطئ مراراً.

وانه، وان اراد الاصلاح الاجتماعي، بهذه المباحث، لقد تورط في بعض الاغراض تورطاً يلام عليه، بحيث اصبحت الغاية لا تبرر الواسطة. فاكثاره من ذكر الانتحار، وسقوط الفتيات والفتيان، والخيانات الزوجية، وتصوير المجتمع باقبح الصور، مضر بالاخلاق اكثر مما هو مهذب لها. فان الفتى الذي يقرأ نظراته لا يرى في اهل زمانه الا شروراً وخبائث، فيتشاءم بهم وينقم على الانسانية، او يصبح وفي نفسه استسهال للمعاصي، واندفاع الى طلب الملاذ. وكثيراً ما تخلو نظراته من العبرة المتوخاة فما تجد فيها غير سرد الحوادث الشائنة، وربما ظهرت الموعظة، ولكن اثر اللذة النفسية غالب عليها. فمقالة «الزهرة الذابلة» تدفع الفتى الذي اصابه الصمم الكامل الى اليأس والانتحار. مع ان هذا الفتى لجأ الى الكاتب مستغيثاً به ليسمع كلمة تعزية تشجعه على احتمال مصابه، فملأ سمعه وصدره يأساً وقنوطاً. وكذلك «مدرسة الغرام» فيها من الافراط في ذكر اللذة، ما تتضاءل دونه كل موعظة.

وهكذا « الملاعب الهزلية » فانها اجدر بان تكون للهو لا للنصيحة لما فيها من الشواهد المجونية المضحكة . وامثال هذه الاشياء كثير .

على اننا نظلم الكاتب اذا لم نذكر بعض ما له من الفصول الحسان ، « كالوفاء » في المحافظة على الزوج اذا اصيبت بعاهة او بلاء . و« يوم العيد » في باب الاحسان . و« عبرة الدهر » وفيه خبر رجل خان امرأته ، واهمل تربية ابنه ، فلقي مغبة عمله في سقوط امرأته ، وفساد اخلاق ابنه . و« البعوض » في تشبيه اذاه باذى الانسان . و« البائسات » في ذكر المرأة المصرية ، وتزويجها صغيرة للتخلص منها ، وما تلاقي في زواجها من الشقاء .

واجتماعياته في الغالب لا تتعدى البيئة المصرية ، والرجل المسلم والمرأة المسلمة . فغايته التي يرمي اليها ، هي اصلاح المجتمع المصري الاسلامي خاصة . واليك بعض ما جاء في « البائسات » :

« زرتُ منذ ايامٍ حاكم بلدة في منزله . فرأيتُ بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسةً عليلةً ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعيها ، وهماً في نفسها . وتُديرُ في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة ، كانما هي مركبةٌ على زئبقٍ رجراج . فسألتُ : ما شأنها ؟ فعلمتُ أنَّ اهلَها زوّجوها وهي في هذه السنِّ ، وعلى هذه السذاجة ، من رجلٍ وحشيِّ الخَلْق والخُلُق ، فامتنعت عليه ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرَّت منه الى منزلِ اهلها فتَمّوا منها هذا الإباء الذي سمّوه بَلادةً ، وغفلة . واعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفارّ من سجنه اليه مرةً اخرى . وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد اهلها الى قسوتهم وجَبْرُوتهم . فلما اعياها الامر خرجت الى الطريق العامة ، هائمةً على وجهها ، لا تعرف لها مَذْهباً ولا مُستَقَرّاً حتى رُفع امرُها الى ذلك الحاكم ، فأمر باستدعائها ، وآواها الى منزله ليخلّصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذِراعي وجَبهة الاسد[1] .

---

(١) كذا ، ووجه الكلام : ذراعي الاسد وجبهته .

ان المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها الا جهلها وضعف مداركها .

متى بلغت الفتاة سن الزواج ، سواء أكان على تقدير الطبيعة او على تقدير اولئك الجهلاء ، استثقل اهلها ظلها ، وبرموا بها ، وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقومة والقعدة . ورأوا انها عالة [1] عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً ، وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب ، اي خطيب كان يحمل في جبينه آية البشرى باخلاص منها .

فان كانت ذات جمال او مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر ، وفجائع التطليق ، والا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلاما جثمانية تطفئ نور شبيبتها ، وتذبل زهرة حياتها . وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءا بالكذب والكيد ، والخبث والرياء . وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام . »

---

(١) العالة : جمع عيل ، وهو زوجة الرجل واولاده الذين ينفق عليهم . وجمع عائل وهو الفقير . فاستعمالها هنا للمفرد غلط .

الاسلاميات

وهذه المباحث من حقها ان تُدرج في باب الاجتماع لانها منه . وانما جعلنا لها هذا الباب لتأثرها القوي بالدين، واصطباغها بالعاطفة الاسلامية صبغة يخضع دونها العقل والتفكير، وتتأجج عليها الغيرة الملتهبة بالتعصب للاسلام والمسلمين. وقد وقف بها الكاتب مواقف مختلفة ، فمن خطيب عسكري يدعو المسلمين في طرابلس الغرب الى جهاد الايطاليين ، ويحضهم على الصبر واستهانة الموت ، ويطعن على عدوهم المتحصن باساطيله ومعاقله . ومن نادب متفجع على الطرابلسيين، يذرف الدمع على ابطالهم في نكبتهم، ويدعو المسلمين الى اغاثتهم . ومن محامٍ ديني يعلم ان اللورد كرومر جنف على الاسلام، وزعم انه لا يصلح للمدنية، فيغضب، وتثور عصبيته، ويحمل على الدين المسيحي حملة منكرة، ويطعن فيه طعناً قبيحاً غير مكتفٍ بالرد على مزاعم اللورد ، مما دلّ على ضيق صدره في مواقف الجدال . ومن مصلح، غيور على الدين ، يرى ما دخل عليه من امور ليست منه ، فافسدته ، فيذرف «دمعة على الاسلام» الذي خالطه الشرك، وهو دين التوحيد؛ ويدعو زعماء الاصلاح الى تطهيره من الشوائب ، ويذكّر المسلمين بماضي عزهم ، وامجاد ملوكهم وعظمائهم . فمن قوله في ذلك :

« نبّئني عن الاسلام اين مُستقَرُّه ومكانه، واين مَسلَكُه ومُضطرَبُه ؟ وفي ايِّ موطنٍ من المواطن حلَّ ، ومعهدٍ من المعاهدِ نَزَل ؟

افي الحاناتِ والمواخيرِ التي يَغَصُّ بها الفَضاء، وتَئِنُّ منها الارضُ والسماء والتي ينتهك فيها المُسلمونَ حُرُماتِ دينهم بلا خجل ولا حياء كانما هم يشرَبُون الماء الزُلال ؟

ام في حوانيتِ الباعةِ حيثُ الغِشُّ الفاضحُ، والغَبْنُ الفاحِشُ مُزَخرَفاً بالاقوالِ الكاذبةِ، والأَيمانِ الباطِلة ؟

ام في مجالس الاحكام حيثُ للدينار الاحمر السلطانُ الاكبرُ على سلطانِ العدلِ وسلطانِ الذمّةِ، وسلطانِ الشرائع ؟ اللّهمَّ الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها « العدلُ أساسُ الملك » او « إذا حكمتم بينَ الناسِ ان تحكموا بالعدلِ » .

ام في المساجد حيث يعتقد المصلّون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عامٍ، وكانت تلك الاعوامُ مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم، لكفّت تلك الحركات التي يسمّونها صلواتٍ، ويحسبونها حسناتٍ لغفران السيئات ؟

ام في مجالس المتصوّفة حيثُ الالعابُ الجمبازيّةُ [1] والحركاتُ البهلوانيّةُ [2] والسّرقاتُ باسم العاداتِ، وانتهاكُ الحرمات بعنوان البركاتِ ؟

إن اراد المصلحونَ لأنفسهم نجاحاً، وللاسلام صلاحاً، فليبدأوا عملَهم بتهذيب العقائد الدّينية، وتربية النّشءِ الحديثِ تربيةً إسلامية لا تربيةً ماديّة . أي انهم يدخلون إلى الاصلاح من بابِ الدينِ لا من بابِ الفلسفة . الخ . . . »

الادب

حاول المنفلوطي الابحاث الادبية في جملة اغراضه، فكتب في ادوار الشعر العربي، وفي تعريف الشعر، وفي نقد حافظ وشوقي، والبكاء على الادب الحديث، وفي نقد النحاة وجمودهم، والكتاب وغموض بيانهم . وغير ذلك من الفصول الادبية المختلفة، فكانت ابحاثه على الاجمال، قليلة العمق تفتقر الى ثقافة ادبية صحيحة، ودقة نظر، وبراعة في التحليل الا انها لا تخلو من قوة وايلام في النقد والتجريح، على صدق في الشعور، واخلاص في العقيدة . واحسن ما كتب في الادب بحثه في تعريف الشعر، وحملته على النحاة، وكلامه على البيان وغموض الكتاب . قال في تعريف الشعر :

---

(١) لعله اراد الجمنازية معربة عن Gymnase وهو مكان الالعاب الرياضية .

(٢) البهلوانية : نسبة الى البَهْلَوان وهو الذي يمشي على الحبل، فارسية معربة .

« ما كلُّ موزون شعراً ، ولا كلُّ ناظمٍ شاعراً ، فالوزن ملكةٌ تَعلَقُ بالنفس ، من طول ترديد المنظوم والتغنّي به ، مُقطّعاً تقطيعاً يوازنُ تفاعيلَهُ . فهو نغمةٌ موسيقية ، ولحنٌ خاصٌّ من ألحان الغناء ، يتمثل في قول الملك الضليل : « قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ . » كما يتمثّل في قول الخليل : « فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن » ويتراءى في اوتار الحلقِ الناطقِ كما يتراءى في اوتار العود الصامت .

اما الشعر فامرٌ وراء الانغام والاوزانِ ، وما النظمُ بالاضافة اليه إلّا كالحلى في جيد الغانية الحسناء ، او الوشي في ثوب الدّيباج المُعلَم . فكما إن الغانية لا يَحسُنها عَطَلُ جيدها ، والدّيباج لا يُزري به أنه غيرُ مُعلَم ، كذلك الشعرُ لا يذهب بحسنه ورُوائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرقُ بين الشعر والنظمِ ، وها انت تَرى أَلَا صِلةَ بينهما غيرَ تلك الصِّلَةِ الاصطلاحية التي لا مَنشأَ لها سوى ما اعتاده الناسُ من أنهم يَنظِمونَ ما يَشعِرون به . وتلك الصلةُ هي التي خَلَطت بينهما وعَمّت[1] على كثير من الناس أمرهما . وهي التي أدخلت النَّظّامين في عِداد الشعراء ، وألقت عليهم جميعاً رداء واحداً لا يُستطاعُ معه التمييزُ بينهما الا للقليلِ من الناقدين . »

الرثاء

وكان هذا النوع من اغراض الكاتب في مقالاته ، فرثى بعض الاشخاص من ذوي المكانة الادبية والسياسية كالشيخ علي يوسف وجرجي زيدان ومصطفى كامل . وليس في ذلك كله غناء ، الّا رثاءه لولده « الدفين الصغير » ورثاءه لشبابه « الاربعون . » واجمل ما في « الدفين الصغير » وصف ندمه على اعطائه الدواء المرّ وهو يختبط بين براثن الموت ، مبغوم لا يطيق الافصاح :

« سأنام يا بُنَيَّ بعد قليل على فِراش مثل فراشك ، وسيعالجُ مني المِقدارُ ما عالج

---

(١) عمّت من عَمّى : أخفى المعنى .

منك . وأحسَبُ أن آخرَ ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها، وخطوبها وأحداثها، هو الندمُ العظيمُ الذي لا ازالُ اكابدُ ألمه على تلك الجرَع المريرة التي كنت أجرّعكَ إياها بيدي وأنت تجود بنفسك، فيربدُ وجهُكَ، وتختلجُ اعضاؤك وتدمع عيناكَ . ومالك يدٌ فتستطيعَ أن تمدَّها إليَّ لتدفعني عنك، ولا لسانٌ فتستطيعَ أن تشكو إليَّ مرارة ما تذوق .»

القصة

تحتلُّ القصة ارحب صدر في آثار المنفلوطي، فهي ممتزجة باجتماعياته، منتظمة اقاصيص في العبرات، مستقلة في كتب خاصة . ومنها ما هو مترجم، ومنها ما هو موضوع . وسواء ترجم او وضع لا يأنس الا بالقصص الكئيبة الباكية، قصص البائسين من العشاق، والمحزونين الذين نكبتهم الارزاء . قصص اولها عذاب وشقاء، وآخرها يأس فموت او انتحار .

بكى المنفلوطي في اجتماعياته، ولم ترقأ له دمعة في قصصه . وكان البكاء قد اصبح زيًا من ازياء الادب الحديث، ترسم فيه الكتاب والشعراء مذهب الطبيعيين من ادباء الفرنجة . وشغفوا به، اذ رأوه يتلاءم مع روح الشرق، في حرمانه الحرية، ومكابدته الاذى والضيم، وفي انحلال اخلاقه، وانتشار الخلاعة والفساد في امصاره . فالمنفلوطي في بكائه لم يخرج عن سنّة ابناء عصره، الا انه افرط في ذرف دموعه، وبالغ في تحبيبه وتشاؤمه، وتورط في اختيار موضوعاته الاجتماعية، وقصصه الغرامية، فاذا به كيفما جنته، رسول الموت، ونذير الشقاء .

بيد انه على عنايته بالقصة وضعاً وترجمة، لم تهيّئه الطبيعة لان يكون قصّاصاً بارع الفن، فضعف تأثيره في النفوس، الا ما كان من قصصه المنقولة . وهي على جمالها في الاصل، خسرت بالترجمة غير قليل من فنها وسحرها، لانها كانت تصل الى الكاتب على ذمة الناقل، فيتصرف فيها ويلخصها كما يشاء .

ونقص الفن عند صاحبنا ناتج عن ضعف الثقافة اولاً . ثم عن ضعف العناصر القصصية : كسعة الخيال، ودقة النظر في مراقبة الاشياء وحسن تصويرها، وتحليل العواطف والاهواء، وبث الحياة والحركة في الاشخاص، وصدق اللون المحلي، وبراعة المفاجآت والانتقالات، وقوة الجاذبية التي تغمر القارئ في تسلسلها من بدء القصة الى ختامها .

فثقافة المنفلوطي ازهرية محدودة، ان اتسعت فالى قراءة الصحف والمجلات وبعض الكتب العربية القديمة . وخياله ضيق لا ينطلق في افق علوي فسيح، فلم تجاوز قصته سرد الخبر، كما وعته الحافظة، على شيء من التفنن في التعابير والتشابيه . ولم تجاوز اعطاء النصائح، والقاء المواعظ المملّة، كما ناجى بها الذهن وارتضاها المنطق .

ولئن وصف بعض الاشياء المادية واحسن وصفها، وتشبيهها، ليعجز ان يتنبه لدقائق الامور ويصورها، وان يتصل بالنفس الانسانية، ويغوص على كنوزها ويستجلي اسرارها، ويزج شواعرها بشواعر قرائه ، ويعطيها حياة من حياتهم وحركة من حركتهم . ولم يظلمه محمود تيمور حين قال : ان اشخاص قصته اشباح لا ارواح .

وقصصه الموضوعة على الاطلاق، ناصلة اللون المحلي لا ينميها مصر من الامصار، بعاداته، ولا بازيائه، ولا بطبيعة اقليمه .

والمفاجآت باردة في الجملة، ولاسيما المواقف التي تحتاج الى تمثيل العواطف، والبوادر النفسية، فانها مقضوبة مغصوبة، كانما جُذبت على الرغم منها جذباً . وانت تشعر عندها، بانقباض وخيبة وغيظ، شأن الذي يقع على غنيمة مشتهاة، فتفلت من يده . مثال ذلك موقف المرأة المتهمة امام القاضي الذي خدعها، وسلب عفافها . فقد كانت واعظة منطقية اكثر مما هي عاطفية ثائرة، ذلك بان الكاتب شقّ عليه تصوير نفسيتها، فجعلها تتكلم بنفسيته :

« جاء يومُ الفصل في أمرها، فسيقت الى المحكمة، وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها . فاخذ القاضي ينظُر في القضايا، ويحكُم فيها بما يشاء حتى اتى دورُ الفتاة . فما وقفت بين يديه، ووقع بصرُها عليه، حتى شُدِهت عن نفسها، وألمَّ بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برُشدها . ذلك انها عرفته، وعرفت ان ذلك الفتى

الذي كان سبب شقائها، وعلّة بلائها . فنظرت اليه نظرة شزراء، ثم صرخت في وجهه صرخةً دوّى بها المكان دوياً وقالت :

رويدك يا مولانا القاضي، ليس لك ان تكون قاضياً في قضيتي، فكلانا سارقٌ، وكلانا خائنٌ، والخائنُ لا يقضي على الخائن، واللصُّ لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعَجِب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضِب لهذه الجرأة العجيبة . وهمَّ ان يدعوَ الشُّرطي، لاخراجها، فحسرت قِناعها عن وجهها ، فنظر اليها نظرةً ألمَّ فيها بكل شيء، فشَعَر بالرِّعدة تتمشَّى في اعضائه . وسكَن في كرسيه سكون المحتضَر في سرير الموت . وعادت الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

انا سارقةُ المال، وانت سارق العِرض ، والعرضُ اثمنُ من المال . فانت اكبرُ مني جنايةً، واعظم جُرماً .

ان الرجل الذي سرقتُ ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداده او الاعتياض منه . اما الفتاة التي سرقتَ عرضها، فلا عزاء لها، لان العرض الذاهب لا يعود . » اه

وغير خفي ما لهذه المواعظ الباردة من اثر سيّئ في مثل هذه المواقف الحارة .

ولم يكن في انتقالاته اكثر توفيقاً منه في مفاجآته، فان كثيراً منها يبدو عليه التطفل والتعمل، لانه لم يهد له تمهيداً طبيعياً ينقذه من التكلف .

واما الجاذبية التي يرفعك بها الكاتب البارع الى افق سحري، فلا حظّ لها البتة عند المنفلوطي . وانما هو يسير بك سيراً عادياً، في منبسط من الارض، فيسليك مرة ويضجرك اخرى، ولكنه لا يستولي على شواعرك ولا يستهويك .

واذا انت تركته لا يعلق بنفسك من اشخاصه وحوادثهم شيء . فقصصه في مجموعها ، ضئيلة الاثر، لم يكتب لها النجاح ، ساذجة التأليف، فيها شبه باخبار العشاق عند العرب : حب، فيأس، فشهقة، فانتفاضة، فوفاة . ولولا الذي نقله عن الفرنسية كالضحية، ومجدولين، والفضيلة، لما بقي له شيء يذكر .

اسلوبه الانشائي

لم يتمكن اسلوب الازهريين من نثر المنفلوطي، فيعتمد على الصناعة اللفظية وما ينبغي لها من تسجيع وتجنيس، ونكت بديعية . ذلك بان الكاتب لم يتثقف ثقافة ازهرية خالصة، وانما تلمذ بنفسه لبلغاء الكتاب المطبوعين، فاثرت فيه اساليبهم، فانطبع انشاؤه عليها، ولم يجنح الى التكلف المستهجن حتى في رسائله . ثم لا جرم ان القصص التي نقلها عن الفرنسية، قد احدثت في اسلوبه الوانا جديدة، وكان لها يد فعالة في توجيه انشائه وتليينه .

بيد انه بقي له شيء من تراث الازهر، يحتفظ به في كتابته، وهو الافراط في استعمال المترادفات، ومعاقبة الجمل على المعنى الواحد، والاسهاب المديد الذي تفيض معه الالفاظ كالوابل المنهمر . وأُوتي ديباجة مشرقة، ونغمة موسيقية، فكان في اسهابه وترادفه، كمن يتظرف في مزاوجة لفظه، ويستطرب بوقع نبراته :

« دارت الايام دورتها، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدُها، وما يحمل بدنُها، وما تشتمل عليه غرفتها، من حِلًى، وثياب، وأثاث . . . اه

« فلم يزل يمسَحُها، ويَرُوضها حتى هدأ رَوعها، وعاد اليها رُشدها . وعلمت أنها ليست بين يَدَي الرجل الذي تخافه . فنظرت اليه نظرةً هادئة، ساكنة، لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدّثت عما وراءها من لواعج الاحزان، وافانينِ الاشجان . » اه

وله براعة في اصطناع التشابيه المحسوسة والكنايات والاستعارات والاشارات، فيعطيك بها صوراً حسنة للاشياء المادية التي يريد نعتها . ومما يجدر ذكره انه كان يجتنب جهده القوالب الموروثة المتداولة، فما تجد منها في كتابته الا نزراً يسيراً . وربما اتخذ تشابيهه وصوره من الفنون العصرية المستحدثة كقوله :

« وكنا مُولَعين بالتقليد، ولَعكُم بـه، لا نكاد نعرف لانفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة . بل كانت تمرُّ بنا جميع الصُوَر على اختلاف انواعها والوانها، فنلتقطها بأسرع مما يلتقط « الفِلمُ » صورَه . كأن فضاء حياتنا معمّلٌ

لتجاريب الحياة واختباراتها . » اه.

ومن تشابيهه الجميلة :

« لم تستطع يدُ الموت ان تمحو كل آثار جماله . بل بقيت منه بعد الموت بقيَّة كتلك البقية من الرائحة العَطِرة التي يستنشقها الانسانُ في الزهرة الذابلة . » اه.

ومن تشابيهه مع حسن التعليل :

« فأبغضتُ الكاذبين بُغضَ الارض للدم . »

ومن اشاراته التمثيلية :

« وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبَث بها عبَث النكبا. بالعود . وليس في يدها ما تتقيه به الا أسمالٌ تتراءى مِزَقُها فوق جسمها العاري كانها السياط فوق اجسام المستعبَدين في عهود الاستبداد . » اه

ومن كناياته :

« فرأيت حوله مجتَمَعاً حافلاً تصطكُّ فيه الاقدام بالاقدام، وتمتزج فيه الانفاس بالانفاس . » اه

وربما ضرب الامثال القصيرة لايضاح فكرته كقوله :

« فانا اسير بينهم سَيْر رجل بدأ يقطعُ مرحلةً لا بدَّ له ان يفرغَ منها في ساعة مُعيَّنة . ثم عَلِم أنَّ على يمين الطريق التي يسلُكها روضةً تعتنق اغصانها وتشتجر افنانها . وان على يساره غاباً تزأر أسوده، وتعوي ذئابه، وتفحُّ افاعيه وصِلاله . فمضى قُدُماً لا يلتفت يَمنةً مخافةَ ان يَلهُوَ عن غايته بشَهَوات سمعه وبصره . ولا يَسْرةً مخافة ان يهيجَ بنظراته فضول تلك السباع المُقعية، والصِلال الناشرة، فتعترضَ طريقه . » اه

وكثيراً ما يستشهد بالشعر، ابياتاً كاملة، او انصاف ابيات . وقد يحلله فيجعله نثراً كقوله يناجي القمر :

« ها أنا ذا يُخيَّلُ الي اني ارى صورته[1] في مرآتك . وكأني اراه يبكي

---

(١) اي صورة حبيبه .

من اجلي كما ابكي من اجله، فازدادَ شوقاً اليه، وحُزناً عليه . فأبقَ في مكانك طويلاً، تَطُلْ وَقفَتُنا، ويدُمْ اجتماعُنا[1] . » اه

وله تعابير محبوبة عنده لا يفتأ يعود اليها في كل سانحة :

« الفَيْنة بعد الفَيْنة . اخدع نفسي عن نفسي . بين جَنْبَيْها نار تضطرم ، وجنينٌ يضطرب . في ليلة من ليالي الشتاء، حالكة الجِلْباب، غُدافيَّة الإهاب . »

ومن خصائصه ردّ الجمل على نفسها للمشاركة في العمل : « واخدعه عن نفسي، ويخدعني عن نفسه . لا يلوي على احد، ولا يَلوي عليه احد . »

وله استعمالات غير مستحبة : منها ضعيفة نابية : « فان شيئاً من ذلك لم يكن[2] » . ومنها مصرية عامية : « مفاليك فِلَاكة . » ومنها اتخذت لغير معناها : « مُتَمَدِّين بمعنى مُتَمَدِّن » . ومنها ما يقتضب بها الكلام اقتضاباً ولاسيما في المواقف العاطفية، والمواقف التي تحتاج الى تفصيل ، او تحليل نفسي . ويكون اقتضابه على الاخص بقوله : « فألَمَّ بكل شيء . ففهمتْ كل شيء . » وقد اكثر من هذا الاستعمال في كتابته، مع قلة توفيقه به، حتى تبغَّض : مثال ذلك كلامه على المرأة التي اراد زوجها ان يبلو امانتها ، فاتفق مع احد تلاميذه عليها ، ثم تماوت . وتمارض التلميذ ، فهامت به المرأة، فزعم لها ان لا سبيل الى شفائه الا بان يطعم دماغ ميت ليومه . فجاءت بفأس لتفلق رأس زوجها، وتستخرج دماغه . فلما دنت من السرير فتح عينيه . فاليك كيف يقتضب الكلام عندما يصل الى وصف تأثير هذه المفاجأة في نفس المرأة، وما كان من امرها في هذا الموقف الرهيب :

« ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألّا تتزوج من بعده .

---

(١) قال الشاعر :

إلى الطائرِ النَّسْرِ أنظُري كلّ ليلة ، فإني اليه بالعَشِيّةِ ناظرُ (*)
عسى يَلْتَقي طَرفي وطَرفك عندَهُ فَنَشْكُو اليه ما تَجُنُّ الضمائرُ

(*) الطائر النسر او النسر الطائر : كوكب . (٢) درج كتاب مصر المعاصرون على هذا الاستعمال المستهجن . وانسحب على اذيالهم بعض صحافيي سورية ولبنان . ووجه الضعف هنا في الابتداء بالنكرة دون مسوّغ، وغرابة تأخير الفعل من غير ضرورة .

ولم تكد تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها . فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركة وراءها . فالتفتت فرأت الضيف[1] والخادم واقفين يتضاحكان . ففهمت كل شيء . »

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس في يدك . اليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ! . فصارت تنظر اليه نظراً غريباً . ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها . » اه

فما كان اغناه عن « فهمت كل شيء »، وبرودة استعمالها في هذا المكان .

واسلوبه على الغالب خبري ممتزج بالخطابي لما فيه من المواعظ، والنجاوى، والتعريفات الخطابية البديهية . والتعريف الخطابي سهل المتناول يلجأ اليه الكاتب خديعة وتمويهاً ليؤثر في النفوس، ويستفزها اذا فاته عمق التفكير، وقوة التحليل، ودقة النظر . فمن ذلك قوله في الغد :

« الغد، شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رجيماً . بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حللت اجزاءها وبعثرت ذراتها، فاصبحت كأنها هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد، بحر خضم زاخر يعب عبابه . وتصطخب امواجه . فما يدريك أن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الانظار حتى لو ان انساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أيضعها على عتبة القصر ام على حافة القبر .

الغد، صدر مملوء بالاسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقطه العقول، وتستدرجه الانظار، فلا يبوح بسر من اسراره إلا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال . » اه

وانشاؤه على الاجمال، هادئ الخطوات لين الملامس، الا في مواقف العصبية

---

(١) الضيف : هو التلميذ نفسه .

الدينية . مشرق الديباجة واضحها ، فيه رونق وماء ، وحلاوة وانسجام ، ورقة وتظرف .

منزلته

كتب المنفلوطي قصصاً جميلة نقلها عن الفرنسية ، وانشأ في الصحف مقالات تناول بها الحياة الاجتماعية في بؤسها ومرض اخلاقها ، وآثر الفقير والضعيف ، على الغني والقوي . ونقر على الوتر الاسلامي الحساس في الدعوة الى الاصلاح ، واستعادة المجد المفقود ، فكان لاقواله اثر في نفوس الشبان خاصة ، لان حديث الحب والشقاء والموت والانتحار يثير عاطفتهم الملتهبة . وفي نفوس المسلمين عامة لان حديث الاصلاح والمجد القديم ، هو النغم الحلو الذي تستخف نبراته شواعر كل مسلم .

وأعجب الناس بجمال انشائه ، وسهولة تعبيره ، فجلسوا اليه يطالعون قصصه ومباحثه ، فكانت له شهرة في حياته لا تنكر . الا انها اخذت تتضاءل بعد موته لاتساع الثقافة الغربية ، ونهضة النقد الادبي . ولولا جمال انشائه ، وقرب عهده ، لما ثبتت له شهرة الى اليوم ، لان ابحاثه الاجتماعية ، ومنها الاسلامية ، ضعيفة في الجملة ، غير حقيقة بالخلود ، وان احدثت في حينها تأثيراً . وهكذا شأن القصة عنده ، موضوعة كانت او مترجمة . فضعف فنها ، وانتشار الادب الغربي كفيلان بمحوها .

وان كان للمنفلوطي من فضل ، فانه يعود على تلطيفه اذواق الكتاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلى خروج اسلوبه من الجزالة القديمة الى النعومة الحديثة . ومن السجع المصنوع ، الى المرسل المطبوع . ومن القوالب التليدة ، الى التعابير الطريفة . وانه وان لم يبلغ في تفننه واختراعه طبقة الكتاب المجيدين ، لقد ارتفع بحسن انشائه ، الى المنزلة الاولى بين المترسلين .

الخطابة

بلغت الخطابة من الضعف في ازمنة الانحطاط مبلغاً زرياً . وكادت تقتصر على قوالب محفوظة تتلى في الجمع والاعياد . فلما نشأت المدارس الحديثة، جعلت لها شأناً رفيعاً في مناهجها . ودأبت تحمل الطلاب على المباريات الارتجالية، ليتعودوا ذلاقة اللسان، وتستوسق لهم ملكة الفصاحة .

وكانت مدارس الرهبان اعجل من غيرها الى تعهد هذا الفن واحيائه، لاضطرارهم الى الوعظ والارشاد في الكنائس، فظهر منهم خطباء مصاقع، دانت لهم اعواد المنابر، ونهضت بهم الخطبة الدينية نهضة ميمونة .

وسبقت بيروت سائر الامصار الى الخطب الاجتماعية والعلمية، قامت بها الجمعيات التي تألفت فيها منذ سنة ١٨٤٧ . ولكن هذه الخطب كان اكثرها محاضرات تتلى مكتوبة على الورق .

وكان ازدهار الخطب الاجتماعية والسياسية في مصر بعد ان هبطها فيلسوف الشرق جمال الدين الافغاني[1] . فقد تحلق حوله الطلاب، فاخذ يبث فيهم روح الحرية والاستقلال، وجمع كلمة الاسلام . وسار على اثره تلميذه الشيخ محمد عبده[2] فكانت خطبهما ممهدة طريق الثورة العرابية، ومؤذنة بارتفاع صوت خطيبها المفوّه

---

(١) ولد في اسعد اباد ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ .) وجاء مصر سنة ١٨٧١ ومات في الاستانة ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ .) . (٢) ولد في سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ .) في محلة نصر من اقليم البحيرة بمصر . درس بالازهر ثم اتصل بجمال الدين الافغاني، وافاد منه علماً كثيراً . وكان الداعية الاكبر للاصلاح الديني، والاجتماعي في مصر . ونفي بعد الثورة العرابية، فجاء سورية ولبث ست سنوات ثم غادرها الى باريس، وانشأ جريدة العروة الوثقى مع استاذه الافغاني . ودرس في تلك الاثناء اللغة الفرنسية . ثم اجازوا له الرجوع الى مصر واسند اليه منصب الافتاء، فظل فيه حتى مات في سنة ١٩٠٥ م (١٣٢٣ هـ .) .

عبدالله نديم[١] . ثم نبغ زعيم الحزب الوطني وخطيبه المنطيق مصطفى كامل[٢] . فكان للخطبة السياسية حظ كبير في ايامه . وسلّمها من بعده الى سعد زغلول[٣] . فما عرفت العربية في الانبعاث اخطب من سعد، ولا ابلغ تأثيراً .

ولم تحرم سورية الخطباء السياسيين في جهادها الوطني ، وثورتها في طلب الاستقلال . وكان لتأليف الاحزاب والاندية والمحافل، ومجالس الشيوخ والنواب، ولتنظيم المحاكم الاهلية، وحرفة المحاماة يد بيضاء على الخطابة من علمية واجتماعية، وسياسية وبرلمانية وقضائية . على انها لم تسلم في الجملة من اللحن، وفساد مخارج الحروف .

---

(١) ولد في الاسكندرية ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ .) وتوفي في القسطنطينية ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ .) . (٢) ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) وتوفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) . (٣) هو ابن ابراهيم زغلول ولد سنة ١٨٥٦ او ١٨٥٧ م (١٢٧٣ او ١٢٧٤ هـ .) في بلدة ابيانة من مديرية الغربية ودرس في الازهر ، ثم اتصل بالافغاني واخذ عنه . وتقلب في مناصب عديدة ، وكان اكبر زعيم وطني في مصر . توفي سنة ١٩٢٧ م (١٣٤٦ هـ .) .

الصحافة[١]

ولدت الصحافة العربية على ايدي الاجانب من فرنسيين واميركيين لان هذا الفن بضاعة دخيلة لا عهد للشرق بها قبل امتزاجه بالغرب .

وكانت مصر مهد الصحف الاولى منذ دخلها نابوليون الاول، وتلتها الجزائر بصحيفة[٢] المبشر نشرتها الحكومة الفرنسية سنة ١٨٤٧ . ثم بيروت بمجلة[٣] سنوية انشأها المرسلون الاميركيون سنة ١٨٥١ .

على ان هذه الصحف ما خرجت عن كونها رسمية من قبل الحكام او دينية علمية من قبل المبشرين .

واما الصحف السياسية الاهلية ، فقد كان بدؤها في الاستانة بجريدة[٤] مرآة الاحوال لرزق‌الله حسون[٥] سنة ١٨٥٥ . ثم صارت الصحافة الى ايدي اللبنانيين فاستأثروا بها برهة من الزمن لما هم عليه من الثقافة الحسنة، ونشاط النفس واقدامها،

---

(١) ذكر الفيكونت فيليب دي طرّازي في كتابه تاريخ الصحافة العربية ان الشيخ نجيب الحداد ابن اخت الشيخ ابراهيم اليازجي هو اول من اصطلح على لفظ الصحافة، واشاع استعماله . (٢) اول من استعمل الصحيفة بمعناها الحديث الكونت رُشَيد الدحداح وكانت تسمى قبلا الوقائع او غزِتَّة معربة عن « Gazetta » او جُرْنال . (٣) المجلة لفظة اصطلح عليها الشيخ ابراهيم اليازجي للصحف الدورية التي تبحث في العلوم والفنون، ومعناها في الاصل صحيفة الحكمة . (٤) في تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرازي ان احمد فارس الشدياق اول من اطلق لفظ الجريدة على الصحف المنشورة . والجريدة لغةً الصحيفة يكتب عليها . (٥) نصراني من طائفة الارمن الكاثوليكية ولد بحلب نحو سنة ١٨٢٥ وتعلم بلبنان العربية والفرنسية والتركية والارمنية ، واللاهوت والرياضيات . وسافر الى الاستانة، وانشأ بها جريدته في اثناء حرب القرم، ومات بلندرة سنة ١٨٨٠ .

فرفعوا منارها في بيروت[١] ، واوربة[٢] ومصر واميركة[٣] . فكان لهم الفضل الاكبر في بعثها واحيائها .

ولم تنشط مصر الى هذه الصناعة الا بعد ان ازدهرت في لبنان، مع انها ولدت بها دون غيرها . فمر عهد محمد علي، وتلاه عهد عباس ثم سعيد، وليس في القطر جريدة او مجلة الا الوقائع الرسمية . فلما انتهى الحكم الى اسماعيل، ومضى يبسط كفه للادباء، ويعنى بتعزيز الاداب والعلوم، بدأت تتحرك الاقلام وتنجم الصحف . فظهرت اليعسوب في القاهرة سنة ١٨٦٥ لمحمد علي باشا الحكيم، وابراهيم الدسوقي، وكانت مجلة طبية . ثم انزمان لعبدالله ابي السعود سنة ١٨٦٦ اول جريدة سياسية اهلية . ثم نزهة الافكار لابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال سنة ١٨٦٩ .

وتسامع الادباء اللبنانيون بعطف اسماعيل على الادب . وشاقهم ما في مصر

---

(١) كانت اولى الجرائد في بيروت حديقة الاخبار لخليل الخوري (١٨٥٨) ونفير سورية (١٨٦٠) ومجلة الجنان (١٨٧٠) للمعلم بطرس البستاني . والجنّة لولده سليم (١٨٧٠) والبشير للاباء اليسوعيين (١٨٧٠) والجنينة لسليم البستاني (١٨٧١) . وثمرات الفنون اول جريدة اسلامية انشأها جمعية الفنون سنة ١٨٧٥، واعضاؤها من ادباء المسلمين واعيانهم . ومجلة المقتطف للدكتور يعقوب صروف، والدكتور فارس نمر (١٨٧٦)، والطبيب للدكتور بوسط الاميركي (١٨٧٧) تعاقب في ادارتها وتحبيرها جمهرة من الكتاب منهم الشيخ ابراهيم اليازجي . ولسان الحال لخليل سركيس (١٨٧٧) وديوان الفكاهة لسليم شحادة وسليم طراد (١٨٨٥) وهي اول مجلة قصصية . والاحوال لخليل البدوي (١٨٩١) والمشرق للاباء اليسوعيين (١٨٩٩) . (٢) كبرجيس باريس في عاصمة فرنسة للكونت رُشَيد الدحداح (١٨٥٨) . والجوائب في الاستانة لاحمد فارس الشدياق (١٨٦٠) ومجلة مصر القاهرة في باريس لاديب اسحق (١٨٧٩) والمستقل في غلياري عاصمة سردينيا ليوسف باخوس (١٨٨٠) والبصير في باريس لخليل غانم (١٨٨١) . (٣) اخذ اللبنانيون في المهاجرة الى اميركة في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين بعد ان ضاق عليهم الرزق في موطنهم فاثاروا في مهاجرهم تيارًا ادبيًا وانشأوا صحفًا كثيرة بينة الرقي، منها ما يظهر يوميًا بثماني صفحات . واقدم جرائدهم كوكب اميركة لنجيب عربيلي انشأها في نيويورك (١٨٩٢) . واول جريدة يومية الهدى لنعوم المكرزل انشأها سنة (١٨٩٨) مجلة شهرية في فيلادلفيا . ثم نقلها الى نيويورك وجعلها نصف اسبوعية، ثم جعلها يومية بثماني صفحات كبار .

من فضاء رحب، ورزق واسع، فيمموا شطرها يحملون اليهـا علماً صحيحاً، ورقياً ناضجاً، فانسلكوا في دواوينها ومتاجرها يديرونها ويحسنون تنظيمها، واقبلوا على الصحافة يضطلعون بعبئها، ويدربون عليها المصريين . فنهضوا بهـا، ودفعوها الى الامام، منفردين بادارتها اكثر من عشر سنوات، حتى برع الوطنيون في مصر . فهبّوا الى انشاء الصحف، ولكنهم لم يستغنوا عن اللبنانيين في تحبيرها، فساهم هؤلاء في كل جريدة ظهرت الى ذاك العهد . وكانت الاهرام اولى الجرائد اللبنانية انشأها في الاسكندرية سليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٦ . وانتقلت الى القاهرة سنة ١٨٩٢ . ثم المحروسة في الاسكندرية لاديب اسحق وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ .

وكان اسماعيل على ميله الى نشر الاداب يضيق صدره عن احتمال النقد، فلقيت منه الصحافة عنفاً وشدة، فالغى نزهـة الافكار، ونفى الشيخ ابا نظّارة[1] . وكاد يودي بالاهرام، لو لم يشدّ ازرها ممثل فرنسة .

وبولغ في ارهاق الصحافة زمن توفيق عندما ذر قرن الثورة العرابية، فوُضع قانون المطبوعات سنة ١٨٨٠ فنال الصحف بشر كبير، فمنها ما الغي، ومنها ما حبس لمدة معلومة .

ولبثت الحرية الفكرية موءودة حتى وقع الاحتلال الانكليزي، فبعثها اللورد كرومر من رمسها، فاقبل الكتاب عـلى انشاء الصحف وفيهم المصريون . وهاجر جماعة من لبنان الى مصر يلتمسون بها هذه الحرية، بعد ان حرمهم اياها عبد الحميد . وكان في جملتهم الدكتور يعقوب صروف، والدكتور فارس نمر، وشاهين مكاريوس، فانشأوا المقطم سنة ١٨٨٩ . وصدرت المؤيد في السنة نفسها يديرهـا الشيخ احمد ماضي والشيخ علي يوسف . واتخذت لها سياسة تعاكس سياسة المقطم وهي اول جريدة اسلامية مصرية ذات شأن .

وكانت الصحف يومئذ قد ازدادت واختلفت مذاهبها السياسية، فمنها الاحتلالية،

---

(١) هو يعقوب بن رافائيل صنوع من اليهود ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ وانشأ فيهـا جريدة هزلية سماها « ابو نظارة » وتكنى بها . ومات في باريس سنة ١٩١٢ .

كالمقطم والزمان والنيل . ومنها مصرية فرنسية كالاهرام والمؤيد . ومنها مصرية خالصة على شيء من انصاف المحتلين كمرآة الشرق والوطن . ومنها مصرية عثمانية كحقيقة الاخبار، والفلاح .

وفي سنة ١٨٩٢ اهمل قانون المطبوعات ، فبلغت الصحافة غاية ما ترجوه من الحرية والانطلاق، فنهضت نهضة محسوسة، وتضاعف عددها . ثم ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لمنشئه مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني، فبعث في صدور المصريين روح مقاومة المحتلين لاجلائهم عن مصر . فتبدلت سياسة انكلترة منذ اليوم، واعتمدت على خطتي الارهاب والمداهنة، بعد الود والصفاء .

وقبض العميد اللورد كتشنر على خناق الصحافة، بعدان تأذى من تطرف الصحف الوطنية، ومجاوزتها حد الاعتدال، فاقفل اللواء والعلم ومصر الفتاة وسواها، وتصاعب في السماح بانشاء جرائد جديدة .

ومضت فترة في الحرب الكبرى والصحف مسالمة الاحتلال ، بعد ان بسطت انكلترة حمايتها على مصر . فلما خمدت نيران الحرب، هب المصريون وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ينادون بالاستقلال والغاء الحماية، فعادت الصحف الوطنية الى رفع الصوت، ومناهضة السياسة البريطانية، فعبّرت اصدق تعبير عن امماني المصريين ورغائبهم على اختلاف احزابهم وسياساتهم .

وقد تقدمت صحف مصر بعد الحرب تقدماً عظيماً، جارت به صحف اوربة، في جرمها وترتيبها وتصويرها، وبرقياتها واخبارها . وصار بعضها ينجم يومياً باثنتي عشرة صفحة كبيرة او بست عشرة صفحة شأن الاهرام . وارقى جرائدها ومجلاتها، واكثرها انتشاراً، اللبنانية منها كالاهرام، والمقطم، والمقتطف[1]، والهلال[2] .

اما الصحف اللبنانية في بيروت فقد تقهقرت تقهقراً مشؤوماً في عهد عبد الحميد ولم ينبض لها وتر الا بعد ان نودي بالدستور العثماني، سنة ١٩٠٨ . فعادت الى النهوض

---

(١) نقل المقتطف من بيروت الى القاهرة سنة ١٨٨٥ . (٢) الهلال مجلة ادبية علمية تاريخية انشأها جرجي زيدان في القاهرة سنة ١٨٩٢ .

والانتشار، وكثرت حتى لم تقتصر على بيروت بل جاوزتها الى المدن والقصبات في لبنان . وكذلك الصحف السورية والعراقية[1] ، لم يكن لها شأن قبل الدستور، وهي في الاصل دون الصحف البيروتية رقياً . فتقدمت على اثره تقدماً بيناً، وانتشرت، وعمت شتى المدن والامصار بعد ان كانت لا تصدر الا عن كبريات الحواضر . وانقسمت في تحزبها مع العثمانيين فكان منها الاتحادية ، وكان منها الائتلافية .

ولما نشبت الحرب العامة اصاب الصحف في الولايات العثمانية فترة وخمول لما نال حرية الفكر من الضغط والارهاق، ولما اصاب البلاد العربية من ضيق وفاقة، فلم يبق منها الا عدد يسير جارى السياسة التركية على جورها وفسادها، فانتفع ورزق الحياة .

ولم تفق من خمولها الا على نداء داعي السلام، فهبت من رقدتها، وتمطت بعد انقباضها، وقطعت شوطاً حسناً في مضمار النهضة، ونظمت نقاباتها، فعظم شأنها، وصار بعضها يصدر يومياً بثماني صفحات . وعنيت بتصوير الاشخاص والحوادث[2] وتفرعت

---

(١) ظهر في دمشق قبل الدستور ثلاث جرائد وثلاث مجلات : سورية الرسمية انشئت سنة (١٨٦٥) . ودمشق لاحمد عزت باشا العابد (١٨٧٩) . والشام لمصطفى واصف (١٨٩٦) . ومجلة مرآة الاخلاق لسليم وحنا عنحوري (١٨٨٦) . والشمس لجورج متى وجورج سمّان (١٩٠٠) . والمقتبس لمحمد كرد علي (١٩٠٦) . وظهر في حلب اربع جرائد ومجلة : غدير الفرات الرسمية (١٨٦٧) . ثم الفرات الرسمية (١٨٦٩) . والشهباء لهاشم العطار، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٧) . والاعتدال لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٩) انشأها بدلاً من الشهباء . ومجلة الشذور لعبد المسيح انطاكي (١٨٩٧) . وظهر في القدس جريدة واحدة : القدس الشريف الرسمية (١٩٠٣) . وكان في بغداد جريدة واحدة ومجلة واحدة وهما الزوراء الرسمية (١٨٦٩) . ومجلة زهيرة بغداد للاباء الكرمليين (١٩٠٥) . وفي البصرة جريدة البصرة الرسمية (١٨٩٥) . وفي الموصل جريدة الموصل الرسمية (١٨٨٥) . ومجلة اكليل الورود للاباء الدومينكيين (١٩٠٢) .

(٢) من الجرائد المصورة التي انتشرت بعد الحرب « البيان » لصاحب هذا الكتاب انشأها سنة ١٩٢٣ اسبوعية بثماني صفحات، ثم باثنتي عشرة صفحة، ثم بعشرين . وحجبها سنة ١٩٣٠ . وكانت ابحاثها تشتمل على سياسة وادب ونقد وقصص .

موضوعاتها الى سياسة واخبار وادب ونقد وعلوم وفنون. ومنها ما اختص بفن واحد كالصحف الادبية، والرياضية ، والتجارية، والزراعية، والهزلية . الا انها ما برحت مقصرة في الجملة عن الصحف المصرية في انتشارها، وثروتها، واتقانها وصراحة سياستها، وسرعة اخبارها . بيد ان لبنان كان وما برح اخصب تربة لانتاج الجرائد والمجلات ولانجاب كتابها[1] .

---

(١) قال الفيكونت دي طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية » الجزء الرابع : « لكننا اذا اعتبرنا عدد الصحف في كل دولة بنسبة عدد سكانها ومساحة ارضها فيكون لبنان اسبق جميع البلدان في ميدان الصحافة العربية . فانه يحوي من السكان ثمانمائة وخمسين الف نسمة طبقاً لاحصاء سنة ١٩٣٢ ومن الصحف اربعمائة وستاً وعشرين صحيفة . اي ان لكل الفي نسمة صحيفة واحدة في الجمهورية اللبنانية . بينما نرى غيرها من كبريات الدول العربية تصيب فيها الجريدة الواحدة نحواً من ستمائة الف نسمة » اه .

منزلتها وتأثيرها

لا يخفى ما للصحافة صاحبة الجلالة من الاثر البليغ في نهضة الشعوب وتقدمها. وقد كان لها يد بيضاء على البلاد العربية إبان يقظتها . فهي التي قاومت الاستبداد والمستبدين، وآزرت الحريـة والاحرار . وبعثت الروح الوطني في صدور الشعوب الشرقية الخاملة المتواكلة . وهي التي ربطت الشرق بالغرب، واطلعت المشارقة على حضارة الاوربيين وعلومهم، وفنونهم واختراعاتهم، وسياساتهم واحوالهم . فاستفاد منها العالم والجاهل، وشملت بفضلها الخاصة والعامة . فاذا هي نعم الاستاذ والمربي، والمرشد والمنير .

وكانت الرقيب الساهر على الحكام والمسيطرين، تنتقد اعمالهم، وتنبههم على خطاياهم، وتدلهم على طرق الاصلاح والفلاح .

وكانت لغتها السهلة الحلقة الوسطى بين اللغة الفصحى واللغة العامية، فقرّبت بينهما بعد تباعد، فاصبح العامي يستاغهـا، ويراها دانية الى فهمه . والخاص لا ينكرها، ولا يضيق بها صدراً . وهذّبت العامية فنفت عنها كثيراً من الالفاظ الدخيلة المرذولة، واصلحت غير قليل من الالفاظ التي افسدها التحريف . وراضت الفصحى، فالانت اساليب الكتابة، وذللت شوامسها لمختلف الابحاث، واوضحت غوامضها، وزفّت اليها الفاظاً ومصطلحات جديدة، قضت بها الحضارة العصرية، وما فيها من علوم وفنون . واطرحت الالفاظ الحوشية، والتعابير البدوية الجافية . فوسّعت المعجم اللغوي من حيث ينبغي ان يتسع، وضيقته من حيث ينبغي ان يضيق .

على ان هذه الفوائد التي اتت بها الصحافة قام ازاءها من الاضرار ما يعادلها . فقد كثر الاقبال على حرفة الصحف، ووافقه ترخيص من الحكومة في انشائها، فطما سيلها، وفاض حتى جاوز الحد، وافضى الى تبرم الناس به، والى ان يتعاطى الصحافة غير اهلها . فاحترفها المتكسبون المحتالون، وجعلوها اداة للتعيش بالتهويش، ونهش

الاعراض، والتحرّش، والهراش. واتخذوا من سياستهم تجارة ومكسباً. يناصرون حكومة على حكومة، وحزباً على حزب، وشخصاً على آخر لا لعقيدة صحيحة، وانما للكسب والارتزاق.

وفيهم من يبدّل سياسته كما يبدّل قميصه، جارياً مع المنهل الاعذب. فتراه اليوم يحارب رئيس حكومة، او يطعن على شركة، او يقاوم رأياً. ثم تراه في الغداة وقد اختلفت لهجته، وراح يتراجع عن موقفه بخفة وانتظام الى ان يصير في جانب الرئيس الذي يحاربه، والشركة التي يطعن عليها، والرأي الذي يقاومه.

وربما ضربوا على وتر الطائفية، وهيجوا التعصب الديني، ونادوا بحقوق مللهم، ولا مآرب لهم الا الزلفى، والاستكثار من القراء.

ومنهم من يطلب الربح والانتفاع بالطرق الماجنة فيحشو صحيفته باخبار الفحش والدعارة وقصص الحب الشائن، وصور الخلاعة المغرية، فيستهوي بذلك الفتيان الاغرار، واهل البطالة والفساد.

ومثل هذه الحالة يدعو الى الاسف فحري بالحكومات ونقابات الصحف ان يتداركوا هذه الفوضى المنتشرة، فان اضرارها جسيمة، وفي التغاضي عنها اثم عظيم.

ويلام الصحافيون عندنا انهم فرديون في اعمالهم، يستقل كل واحد منهم بجريدة على قصر يده، وقلة ماله، وقعود الاحزاب عن مناصرته. فلا يلبث ان تعضه الحاجة، فيضطر الى النكوص خاسراً، او الى اراقة ماء وجهه. فلوا اجتمعوا شركات منظمة، تستند الى رؤوس الاموال، لتسنى لهم ان يخرجوا جرائد قوية راسخة البنيان، آمنين الحاجة، ولكان لهم شأن غير شأنهم اليوم.

ولم تكن جرائد مصر اقوى من جرائد لبنان وسورية والعراق على الاجمال، الا لانها غنية باموالها، واحزابها، وتعاون الجماعات على اصدارها. مع ان سواد كتابها غرباء عن مصر، وجلهم من لبنان.

والصحافيون كثير عددهم، لا يتأتى لنا ان نحيط باسمائهم، فانه لم يظهر كاتب في الانبعاث الا اشتغل بالصحافة او ساهم في انشاء الصحف. فنحن نجتزئ بذكر من كان لهم الفضل المتقدم على نهضة الصحافة ورقيها كالمعلم بطرس البستاني، اول من

انشأ مجلة جامعة، زاهرة بابحاثها[١] . وابنه سليم اول من اصدر جريدة يوميـــة[٢] . واديب اسحق اول من نهض بالانشاء الصحافي، ورفع مستواه . والشيخ ابراهيم اليازجي، اول من هذب لغة الجرائد، وطهرها من الفساد . ونكتفي بدرس آثار ولي الدين يكن، لما فيها من عبرة وذكرى لاصحاب هذه الحرفة؛ ولما في شخصيته العجيبة من المزايا التي يجمل بالصحافي ان يتحلى بهـــا، الا وهي الجرأة والصراحة، والنزاهة والاخلاص .

---

(١) ولد المعلم بطرس البستاني في الدُّبَيّة من لبنان سنة ١٨١٩ وتعلم في مدرسة عين ورقة العربية والسريانية واللاتينية والايطالية، والمنطق والتاريخ، والجغرافيـة والفلسفة واللاهوت والحق القانوني . ثم هبط بيروت، واتصل بالبعثة الاميركية وقرأ عليهم الانكليزية واليونانية والعبرية، وطرفاً صالحاً من العلوم العصرية . وانشأ مجلته الجنان سنة ١٨٧٠، سياسية علميـة ادبية تاريخية، تظهر مرتين في الشهر . وله غيرها اثار كثيرة سياتي ذكرهـا . وتوفي في بيروت سنة ١٨٨٣ . (٢) ولد سليم البستاني في عِبَيْه سنة ١٨٤٨ وقرأ العلوم العربية على الشيخ ناصيف اليازجي . واتقن التركية والانكليزيـة والفرنسية . وعين ترجماناً لقنصلية الولايات المتحدة . وكان الساعد الايمن لابيه في ادارة المدرسة الوطنيـة، وتأليف دائرة المعارف، وتحبير الجنان . انشأ الجنة سنة ١٨٧٠ صحيفة نصف اسبوعية تبحث في السياسة والتجارة، وتتناول الانباء البرقية على حسابها . ثم انشأ الجنينة سنة ١٨٧١، اربع مرات في الاسبوع، فتم له بها وبالجنينة التي ظلت تصدر مرتين في الاسبوع، اول جريدة يومية . توفي سنة ١٨٨٤ ودفن في بيروت .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ ـ ١٩٢١ م ١٢٩٠ ـ ١٣٤٠ هـ

حياته

هو ولي الدين بك ابن حسن سريّ باشا، ابن ابراهيم باشا يَكَن[١] . كان جده هذا ابن اخت محمد علي باشا صاحب مصر . وامه اميرة شركسية . فهو اصيل الجدين، طيب العرقين . ولد في الاستانة ، فقدم به ابوه الى القاهرة، وهو طفل في الثالثة . وتوفي الاب والطفل لم يجز السادسة، فكفله عمه علي حيدر باشا يكن ناظر مال مصر، وادخله مدرسة الانجال التي بناها الخديوي توفيق في عابدين لتعليم اولاده واولاد بعض الامراء والاعيان . فقرأ فيها العربية والتركية، وشيئاً من الانكليزية والعلوم . ثم توفّر على الفرنسية في مدارس اخرى، فاحكمها، والمّ باليونانية .

واولع بالشعر والصحافة، فنظم وكتب وهو دون العشرين . وعرفت بواكير نفثاته جريدتا « القاهرة الحرّة[٢] » و« النيل[٣] ». ودعي سنة ١٨٩٣ ليكتب للامير في الديوان الاجنبي . ثم ترك الديوان ، وانشأ سنة ١٨٩٥ جريدة المقياس ، مشاركاً فيها يوسف فتحي .

ورحل ما بين سنة ١٨٩٥ و١٨٩٦ الى الاستانة، فاقام ثمانية اشهر عند عمه محمد فائق بك يكن من اعضاء مجلس الشورى . وانعم عليه عبد الحميد بالرتبة الثانية، وعاد الى مصر مزوداً برضاه وعطفه . ولم يكن يومئذ في صفوف الاحرار، بل كان يقاومهم، ويدافع عن السلطان . فلما جاء الاستانة، وشاهد مصارع الارمن، ومكايد

---

(١) يَكَن : لفظة تركية معناها ابن الاخت . (٢) القاهرة الحرّة انشأها عارف المارديني سنة ١٨٨٥ . (٣) النيل : انشأها حسن حسني باشا الطُويراني سنة ١٨٩١ .

رجال الدولة ودسائس الجواسيس، ووشاياتهم، قفل وفي نفسه الم عضوض، وفي صدره غلّ على عبد الحميد، ورجاله، ودواوينه. فانشأ جريدة الاستقامة سنة ١٨٩٧، وجعل يحمل فيها على اعوان الظلم، وزبانية الشر، ويدعو الى اصلاح الخلل، وتطهير الفاسد. فاحفظت كتاباته الباب العالي، فمنع جريدته من دخول ولاياتـه، فضاق كسبها، فاضطر الى حجبها. ولكنه لم يهجر الصحافة بل شرع يكتب في المشير[1] والمقطم والقانون الاساسي[2].

وكان عبـد الحميد يجهد في استرضاء الاحرار واسكاتهم، فيدعوهم اليه، ويعدهم بالاصلاح القريب ونشر الدستور، ويخصهم بالخطط العاليـة. فدعي ولي الدين في جملتهم، فشخص الى الاستانة سنة ١٨٩٨، فجعـل عضواً في مجلس ادارة الجمرك، ثم في مجلس المعارف الاعلى. الا انه كان عـلى خصام متصل مع رجال الدولة لما يرى من فساد اعمالهم، وكذبهم واحتيالهم، وصلف النافذين منهم. فجافى ناظر المعارف، ومدير اوراقها، واهان رئيس كتاب عبد الحميد، ونعته «بالباشكاتب الكاذب». وطعن عليـه في بعض الصحف الاجنبية. وشتم ابا لحية[3] حاجب عبد الحميد، وكتب في الصحف المصرية منددا بابي الهدى صنيّ السلطان، وانفـذ الناس لديه. فاحاطت بمنزله الجواسيس، وكثرت فيه الاقوال والوشايات، واتهمه ابو الهدى بالاشتراك في جمعية سرّية. وسعت به دار الامارة في مصر، ففتش منزله، وصودرت اوراقه، وفيها ما لا يروق عبد الحميد. فاسودّت صحيفته عند السلطان، بل ازدادت اسواداً. فبينا هو ذاهب يستدعي طبيباً لامرأته النفساء، عرض لـه شرطي في بعض الطريق، واراد سوقه كرهاً الى المتصرف، فضربه ولي الدين، وما

---

(١) انشأها سليم سركيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤، وخصها بالطعن على الحكومة المستبدة، ومطالبتها بالاصلاح. ثم نقلها الى القاهرة سنة ١٨٩٥. ثم الى نيويورك سنة ١٨٩٩ بعد ما لقي من حكومة مصر حبساً وارهاقاً، وحكم عليه في بيروت بالموت غيابياً.
(٢) جريدة سياسية انشأها صالح حمال في القاهرة سنة ١٨٩٨. وكانت تظهر بالتركية والعربية، ويكتب فيها مع ولي الدين الكاتب التركي محمد قدري. (٣) محمد باشا الجركسي، ويكنى بابي لحية.

زال يضربه حتى انتهيا الى دار المتصرفية . فلامه المتصرف على عمله، واسمعه خشن الكلام . فلطمه والقاه على الارض ، فصدرت الارادة السنية بحبسه، فحبس، ثم بنفيه فنفي .

وكان منفاه في سيواس من اعمال الاناضول، فحملته السفينة الى صَمْسُون، ومنها اقلته عربة تقطع به الاودية والجبال في الوحول والثلوج حتى بلغت سيواس يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢، فدخلها، واهله لا يعلمون عنه شيئاً . فكتب اليهم فوافوه .

وكان من عادة الحكومة الحميدية ان تشغل كبار المنفيين بالمناصب فعين ولي الدين حال وصوله معاوناً لمدير اوراق الولاية ، وجعل راتبه خمس عشرة ليرة عثمانية . واتفق ان ولي امر سيواس رشيد عاكف باشا، من المصلحين الاحرار، فلقي كاتبنا حظوة عنده . وكان يجد من عطف السيواسيين، ومصاحبة الاجانب فرنسيين واميركيين وقراءة القصص، ونظم الاشعار ما يرفه عنه وحشة المنفى حتى اعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعفي عنه فرجع الى الاستانة، ومنها الى مصر .

وعاد يكتب في المقطم والاهرام والمؤيد والرائد المصري[١] والزهور[٢] . ونشر كتبه : خواطر نيازي، والصحائف السود، والمعلوم والمجهول . ثم انشأ جريدة الاقدام في الاسكندرية سنة ١٩١٢ . ثم عينته حكومة مصر كاتباً في وزارة العدلية، فبقي في منصبه هذا الى اواخر سنة ١٩١٤ . فلما ولي العرش السلطان حسين كامل دعاه اليه وجعله كاتباً في ديوانه، فنعم ولي الدين في قربه، وخصه باحسن مدائحه .

على ان الدهر ما بسم له الا ليعبس في وجهه، وما صافاه الا ليكدّر عيشه، فلم يلبث ان استطال عليه الربو ينتابه بين ساعة وساعة، ويقطع انفاسه . وتمكن منه داء الصدر[٣] فأذابه عضواً فعضواً . فترك منصبه في القاهرة سنة ١٩١٩، وجاء

---

(١) انشأها نقولا شحاده اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦ . (٢) مجلة سياسية ادبية انشأها في القاهرة الشيخ انطون الجُمَيّل ، والشيخ امين تقي الدين اللبنانيان سنة ١٩١٠ . (٣) روى لنا ابراهيم سليم النجّار ان ولي الدين مات مسلولاً . والنجار صحافي لبناني من دير القمر، انشأ في القاهرة جريدة الكلمة الحرّة سنة ١٩١٠ . وكتب في جرائد عديدة في مصر ولبنان وسورية .

حلوان مستشفياً، فتوفي فيها وهو على اشد ما يكون من ألم وفاقة ، بعد ان رزئ بثاني ولده، غلام في الخامسة عشرة من عمره ، وبامه وشقيقته . وكان آخر ما نظمه بيتان وجدا بجانب السرير وهما :

يا جسداً قد ذاب حتى انمحى، إلّا قليلاً عالقاً بالشقاء
اعانك اللهُ بصبرٍ على ما ستعاني من قليل البقاء

ونقل جثمانه الى القاهرة، ودفن في مقبرة الاسرة اليكنية، في قرافة الإمام عمر بن الفارض. واقيمت له حفلة الاربعين، فلم يشهدها الا بعض اصدقائه، واكثرهم لبنانيون . وتخلف عنها سواد الادباء المصريين، فكأنهم ينقمون عليه سياسته الاحتلالية، وشذوذه عن تقاليدهم وعاداتهم، فانتقموا منه بعد مماته، واهملوه حتى ان تواريخهم الادبية لم تذكره في عداد كتاب النهضة وصحافييها .

صفاته واخلاقه

كان نحيل الجسم، عصبي المزاج على قوة ، جريئاً مقداماً ، جلداً على المصائب، آنفاً على غير تكبر، بل كان يكره المتكبرين ويحتقرهم، ولا يتنكب عن اذلالهم .

وكان صريحاً من غير تحفظ ، صادقاً لا يعرف الخداع والكذب ، ولا يطيق مصاحبة المخادعين، والكاذبين . ولطالما لقي الاذى بسبب صراحته وصدقه .

وكان حسن المودة، محمود المخالقة، مرهف العاطفة، دقيق الحس، متنبه اللحظ، سريع التأثر، خفيف الروح، لطيف النكتة، حلو التهكم .

وكان كريماً لا يبخل بما تملك يده، راغباً عن المال والرتب والالقاب . وقد سنحت له فرص كان بوسعه ان يغتنمها وينال مراتب ابائه واعمامه، الا انه اعرض عنها وأفاتها في سبيل عقيدته الحرة، ورأيه في الاصلاح . فحُق له ان يقول :

تركت الغِنى لا عاجزاً عن طلابه، وأنزلتُ نفسي من منازل مَجتِدي
وهذي، بحمد الله ، مني براءةٌ ، فيا أُفقُ سجِّلها، ويا أنجُمُ اشهدي!

وكان يكره التعصب الديني، وينابذ اصحابه، وينفر من التقاليد، ويتعمد اطراحها . فقد تزوج امرأة مسيحية يونانية، فخرق بها تقاليد اسرته الارستقراطية، وسمى ابنه جان وابنته فيكتوريا، فخرق بهما التقاليد الاسلامية . وثار على اساليب الاقدمين في انشائه، فخرق تقاليد المحافظين . وكان الى ذلك لا يصوم ولا يقيم الصلوة في اوقاتها .

وكان عثمانياً صادقاً الا انه لا يجد فرقاً بين عربي وتركي، وبين مسيحي

اثاره

ترك ولي الدين آثاراً في الشعر والنثر . فاما الشعر فلم يُعن بجمعه في حياته، فجمعه بعد موته اخوه يوسف حمدي يكن، ونشره سنة ١٩٢٤، مقسوماً الى سبعة اقسام : الشعر السياسي، الرثاء والعزاء، التهنئة والمديح، الذهريات، الهجاء، الغراميات، المتنوعات . وقدّم له الشيخ انطون الجُمَيّل كلمة في حياة ولي الدين، وشاعريته، وحريته .

واما النثر فله خواطر نيازي، او صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني، ترجمه عن التركية، ونشره سنة ١٩٠٩ . مؤلفه محمد نيازي بك الرسنه لي بطل الحرية والانقلاب، ذكر فيه ما قامت به جمعية الاتحاد والترقي على يده، من الاعمال لسحق الاستبداد .

وله الصحائف السود، مجموعة مقالات اجتماعية نشرت في المقطم، بعضها باسم زهير مستعاراً، وبعضها باسمه الحقيقي . طبعت سنة ١٩١٠، انتقد فيها بعض العادات والخرافات والاخلاق، وبعض ما يقع في المجتمع من الحوادث الغريبة، والفظائع المستنكرة . فيها كثير من القصص، ومنها ما استهله بابيات من الشعر، وربما بلغت القصائد الطوال .

وله المعلوم والمجهول في جزئين انتهى طبع ثانيهما سنة ١٩١١ . احدهما يبحث

في حالة الحكومة العثمانية، وسياسة الاستانة ومصر، وقيام الاحرار على عبد الحميد وانسلاك المؤلف في صفوفهم بعد أن كان يعاديهم ، وسفره الى الاستانة، وما مر به في مجلس ادارة الجمرك ، ومجلس المعارف الاعلى ، وما جرى له مع رجال الدولة من خصام وملاحيات . يتخلل ذلك تعريف برجال عبد الحميد، وحزب تركية الفتاة، والسياسة الانكليزية في مصر . والثاني : يبحث في السبب الذي من اجله حبس ونفي . وفيه وصف سجنه، ووصف سفره الى منفاه، وذكر سيواس واهلها وتاريخها وآثارها وما لقي فيها .

وله التجاريب : ابحاث اجتماعية انتقادية في كتاب صغير، نشره فؤاد مغبغب[1] سنة ١٩١٣ . وهو كالصحائف السود مقالات ظهرت في الجرائد قبل ان تجمع ، بعضها مصدر بشعر . وفيها قصائد مستقلة .

وله، ما خلا ذلك ، مؤلفات ضاعت ولم تعرف، وفصول واشعار مبثوثة في الصحف والمجلات .

ميزته

ولي الدين شاعر، وافر الخيال، قوي الاحساس، متقد العاطفة . وله شعر وجداني جميل يستحق ان يدرس . الا اننا اخذنا على انفسنا ان نبحث في آثاره النثرية، التي تتجلى بها حياته العجيبة، وميزته الصحافية، واسلوبه الشخصي . معتمدين على المعلوم والمجهول، والصحائف السود، والتجاريب .

---

(١) صحافي لبناني في مصر .

السياسة

شغف ولي الدين بالسياسة منـذ صباه يوم علق يكتب في الصحف . وكان مذهبه في بدء امره عثمانياً حكومياً . لا يحجم عن نقد الانكليز مع حبه لهم، لانهم كانوا يحمون الاحرار اللاجئين الى مصر، ويعترف بذلك في المعلوم والمجهول:

« واما النيل فقد تغير في اواخر ايامه، وظهر تغيره للعيان، وما غيّره صاحبهُ بل غيرتُه أنا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها[1] بل استكبر حمايتها للاحرار العثمانيين، ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها، ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت انا وصاحب النيل رحمة الله عليه، ننكر على الاحرار مساعيهم، ونأبى مشاركتهم فيها . » اه

فلما رحل الى الاستانة للمرة الاولى، وشاهد ما تصنع الحكومة الظالمة، عاد الى مصر ناقماً عليها، فانضم الى الاحرار، ودفع الى المقطم اول مقالة ثائرة على الاستبداد[2] عنوانها : « نرجع الى الجواسيس » قال في آخرها :

« هذا قلم أَرَنْ القوس، صائبُ الرَمْيَة . فَلأُجرِيَنَّهُ حتى لا تبقى من دار الظلم لَبِنَة على لَبِنَة، وبياض على سواد . ولأُسيّرنَّ قوارَعـه شُزَّباً في كل قاتم الأَعماق، شاسع الأَطراف الى ان يقولَ نصيرُ الحمية : لَبَّيك، ونستريحَ واخوانَنا مما نحن فيه . » اه

واحتضنته الحكومة البريطانية كما احتضنت غيره من الاحرار، فازداد لها حباً، واصبح لا يذكرها الا بكل خير، ولا يذكر عميدها اللورد كرومر الا اشاد بفضله، ونعته احسن النعوت، ودعاه مصلح مصر، وابا المصريين المشفق؛ قـال في المعلوم والمجهول :

« ولا اظن ان رجلاً يُشفق على بنيه اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو

---

(١) التأكيد بالذات مولّدة، وانا يؤكد بالنفس والعين . (٢) كتبها في ٢٢ كانون الاول سنة ١٨٩٧ .

ابو حريتهم، ومصدر انصافهم، ومورد سعدهم الّا انه كان يخدم من لا يحبونه.» اه

ويحدثنا في مقدمة الجزء الثاني من كتابه هذا عن تأثير ثنائه على اللورد كرومر، في نفوس المصريين:

« نظر الناس في الجزء الاول من المعلوم والمجهول، فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبتُ تحتها «مصلح مصر.» فألقوا بالكتاب جانباً، واطبقوا جفونهم، وولّوا عنه هاربين. راعهم شخص ذلك الرجل الجليل على الورق، فاخذتهم سَورته، ولم تقوَ عيونهم على النظر في وجهه، فكيف بهم لو تمثّلوا بين يديه ورنَّ صوتهُ في آذانهم. وقد زعموا بعد ذلك اني صنيعة الرجل، والرجلُ لا علم له بكتابي الى يومنا هذا. وهال بعض الجرائد ما في الكتاب، فامسكت عن الكلام فيه. لم تشأ تقريظه ثقةً منها بان ستشتمها الصحف التي تشتم اللورد كرومر، ولم ترد نقده علماً منها بان ساحجها اذا دعت الى النزال، وتراضينا في هذه القضية على السكوت.

« يا حريةُ، ظننت بان سيكثر المتنافسون فيك فخفت ان ينفَسوا عليَّ، واذا هم يدّعونك ولا يعرفونك، فلن اخاف منذ اليوم رقيباً. أنا عرفتك وهمت بك هياماً فانا صاحبك من قبل ومن بعد. يريدون ان اكتبَ ما يريدون واريد ان اكتب ما اريد. اتسعت مسافة الخلاف بيني وبينهم. الشرق وطني وانا في الشرق غريب، ولا ضيرَ، ان اعرض عن مقالي اهل زماني فغداً يتهافت عليه ابناؤهم.» اه

وكان لا يتلكأ عن تنقص زعماء المصريين الذين يبثون في صدور الشعب روح مقاومة الاحتلال، شأنه مع مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني:

« ثم ظهر مصطفى كامل، وراح ينتصر بالمسيو دلونكل احد اعضاء مجلس الامة الفرنساوي، وناظر المستعمرات في فرانسا في اواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً. وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك، المسيو هانوتو، من اضداد الاستعمار الانكليزي. ولم تكن فرانسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية. فرحّب الوزيران بالشاب المصري، واستخدماه في آرابها. فكان لهما اشد من البنان طوعاً، واكبر من الظل انقياداً. فخُلق مصطفى كامل من العدم.» اه

فولي الدين يرى ضرورة الاحتلال الانكليزي، ولا يتوقع خيراً لمصر الا في

بقائه. وبحسبك ان تقرأ الفصل الذي كتبه في الصحائف السود، وعنوانه: «المحتلون يخرجون من مصر .» لتتبين كيف يخشى الشر عليها اذا تركها الانكليز، فانها في ظنه آيلة الى الفوضى والتقهقر وفساد الاحكام. ومما لا ريب فيه ان سياسته الاحتلالية هي التي جعلت سواد المصريين يعرضون عنه، ويبخسونه حقه بعد مماته .

وجملة القول ان ولي الدين عثماني صادق الوطنية، يريد لبلاده الحرية والمساواة والاخاء، ويكره العبودية والتفضيل والتفريق، لا فضل عنده لتركي على عربي، ولا لمسلم على نصراني، وانما هم اخوة متساوون تجمعهم العثمانيـة في جامعتها الكبرى. وافضلهم في نظر الحقيقة اخلصهم ولاء وخدمة للوطن .

ومصر ليست للمصريين كما يقول زعماؤها الوطنون وانما هي للعثمانيين . قال في كلامه على عبدالله نديم: « وانما احدث بيننا الخلافَ أنه كان عدوًّا للعثمانيين. وهو من قدماء من يقولون: « مصر للمصريين » ونحن نقول: مصر للعثمانيين . » اه

الا انه كان يؤثر لها الاحتلال الانكليزي، كما ذكرنا، مع بقائها ولاية عثمانية. فقد كان يعلم ضعف حكومة الاستانة ، وقصر يدها عن ضبط ولاياتها القاصية . فلا يجد خيرًا في خروج الانكليز من مصر بعد ان اصلحوا شؤونها ، ونهضوا بها ، وبسطوا الأمن في ارجائها. بل كان يشفق عليها من الرجوع الى سابق جهلها وخمولها اذا نزح عنها المحتلون .

وضعف حكومة الاستانة ولاسيما في عهد الحرية، كان يؤلم صاحبنا فهو يريد لها القوة والسلطان، فلم يحجم عن نقدها، لانهـا لم تحسن اقامة احكام الدستور، ولم تستطع حفظ ولاياتها . فأخذت منها ادرنة، واخذت منها طرابلس الغرب . ولولا امل باسمٌ في ظلال الحرية، يحدوه الى تنظّر المستقبل السعيد، لناله يأس من الحكومة الجديدة كما ناله يأس من حكومة عبد الحميد .

هذا هو ولي الدين في سياسته الحرة الجريئة ، عـلى تشعب منازعها ، في صدق عقيدته، واخلاصه لما يرتئيه خطأً كان او صواباً، سواء من الناحيـة العثمانية او من الناحية المصرية . تلك السياسة التي لقي من اجلهـا الاضطهاد والحبس والنفي، والكره والاعراض، في حياته، وفي مماته .

الاجتماع

كان ولي الدين مغرى باصلاح البلاد العثمانية سياسيًا واجتماعيًا . فكما جاهد سياسة الظلم والارهاق، ونافح عن الحرية والدستور؛ فكذلك كان شأنه في مناضلة التعصب الديني ، والخرافات والعادات العالقة بالدين . يحمل على جماعة المتعصبين ، الذين يستخدمون الدين لمنافعهم، ويسخرون الناس لمآربهم . فيتهكم بهم، ويقسو عليهم، ويبين الاضرار التي ينتجها تعصبهم، وتسلطهم على النفوس الساذجة الجاهلة . ويصور خداعهم للناس، وتظاهرهم بما هم ليس فيه . ولك امثلة على ذلك في « ليلة القدر » و « اكذوبة رمضان » من كتابه الصحائف السود . قال في اكذوبة رمضان :

« في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر الى ان يأتي اليوم الثالث من عيد الفِطر . وكان اكثر المفطرين يدّعون الصوم، ويحسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ امرُ الكذب ان يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارته . وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء امر عرض اريد قضاءه . فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الاجانب على رؤوسهم القُبّعات وبافواههم سيكاراتهم . والناس ينظرون اليهم شزرًا، ولا يقدُر احد منهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكاراتي معي . فنسيت ان اليوم من ايام رمضان . فاخرجت سيكارة جعلتها في فمي، واقمت انتظر ان يمدّ الي احد الجالسين شيئاً اشعلها به . فمشت فيَّ عيون الركب، وجعل بعضهم يَغمز بعضاً مشيرًا اليَّ بلحظه ففطنت لموضع خطائي . وقلت اداويه لكم ايها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بغتةً كمن تذكر شيئاً نسيه وقلت : « لعن الله الشيطان، كدت والله ادخن سيكارتي، وأنقض صومي » ونظرت الى رجل جالس على يميني وقلت موّنباً له : « كذا يا اخي تراني أهمّ بما يفسد علي صومي، ولا تنبهني الى ما كاد يفرُط مني عن غير عمدٍ . وانت تعلم ان الدين يقضي علينا بالنُصح لمن

سها، ولا يُعرض الا عمن تولى . » فابتسمت الثغور، وسُرّي عن القوم . »

وقال في ليلة القدر :

« وكان رجل لا يُرزق ذرّية فقال : اللهمّ املأ بيتي صغاراً ! » فانتبه في الغد على صياح ملأ بيته حتى ان ظنّ الحيطان تتصايح . فاذا هو بنحو الخمسين صبياً لا يزيد طول واحدهم على الشبر ، يجاذبون امرأته، ويتواثبون حول سريره . هذا يقول : « ابي ! » وذاك يصيح : « امي ! » وكلما حاول مع امرأته الهرب حالوا بينها وبين الباب . فرأت المرأة ان تأتيهم بشيء من اللبن في وعاء كبير لتقسمه بينهم . فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه، فعلا بكاء الآخرين . فلما ضاقت الحيل بالرجل وامرأته، رميا بانفسهما من كُوّة تُطل على الطريق، وارسلا ساقيهما للريح فراراً .

لما كنت صغيراً كنت اجلس الى بعض الشيوخ فيقصون علي هذه النوادر، وانا اكاد اموت ضحكاً . ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم : « تعالى الله عما تقولون . ايكون الحكيمُ العادلُ، يعلم ما تخفي الصدور ثم يفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد ! » فضحك الرجل حتى سال لعابُه . » اه

وكان من انصار المرأة، يريد تعليمها، ورفع حجابها، واعطاءها الحرية في اختيار زوجها . لا يرى في الحجاب فرضاً من فروض الدين، كما يقول اصحاب الرأي القديم، ويرى في عبودية المرأة وخمولها ما يقوض ركن المجتمع، ويهدم صرح السعادة الزوجية . وله في الصحائف السود فصل عنوانه « المرأة » جاء فيه :

« واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من اهل أدَنه شديد الغيرة . دخلت بيته ليلة زُفت اليه، ولم تخرُج منه ابداً، حتى اذا مرضت، وثقُل عليها المرض، واشتد الألَم دعا زوجها طبيباً، واخذ يصف له ما تشكوه . فقال انا لا اداوي على السماع، ولا بد من رؤية المريضة وفحص موضع العلّة . فابى الزوج الابي ذلك . وما مضت ايام قلائل الا وقد أزّروها في اكفانها، وشيعوها الى منزلها الابدي، من ضريح الى ضريح . » اه

وكان على نشأته النبيلة اقرب الناس الى الشعب، وابعده عن الارستقراطية في

انانيتها، واستئثارها، وتكبرها . يحارب اصحاب المناصب والالقاب، والمتكبرين وحديثي النعمة . ويذم الجرائد التي تزدلف الى ذوي السلطان بالنعوت الضخمة، والادعية الفارغة . ويدافع عن العمال والمضعوفين . ويتألم من الجهل المستحكم في العامة حتى جعلها مطية ذلولاً لاصحاب النعوت والمراتب ، يسوقونها في طريق منافعهم ويصورون لها الشر خيراً ، والنقمة نعمة، وطاعة الآمر المستبد فرضاً ، والتعصب الاعمى شريعة . وهي لجهلها تنقاد اليهم ، وتصدق ما يزعمون . قال في المعلوم والمجهول :

« وجرائدنا التركية لم تدم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس كثيرون يقرأون اللغة التركية ، والذين يقرأونها او يفهمونها من الاتراك الذين استوطنوا مصر من الازمان السالفة، لا يهمهم من السلطان الا كونه سلطاناً . وهم يعتقدون ان لا حق للأمة في مشاركة الملوك في اعمالهم . وان الرعية عبيد الملوك أمروا بالطاعة لهم، وان ظلموا، والشكر، وان أساؤوا . يتحدثون بذلك في مجامعهم، وبأيديهم السُبَح وامامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصونها حتى تستطلع حبابها . يؤتى لهم بالشاي منقوعاً . وبين يديهم جماعات من المشايخ منهم المدّعون لعلوم الكيمياء القديمة . ومنهم اولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) . ومنهم المتصوّفون من اتباع الرفاعي والكيلاني ومحيي الدين العربي والبكطاشي والمولوي . ومنهم ائمة الشرع، ورواة الاحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يُكفِّرون الاحرار، ويدعون لعبد الحميد، ويمدّون انامل اكلت اطرافها حبّاتُ السُبَح يجرّون بها دراهم أعوانهم عدّاً، بُطلاً وجشعاً ولؤماً . كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حبّ العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الحاجّ السيد الشيخ زيد مثلاً، وهو لابس عمامة كانها كيوان[1] . وفي يده عصا كأنها عمود الصبح[2] . وعليه جُبّة خضراء كأنها مُلاءة الربيع . وفي رجله خفّان اصفران كأنهما سفينتان من

(١) كيوان : زحل . (٢) عمود الصبح : ضوؤه .

النحاس الاصفر . وفي عنقه سُبحة هي اطول من ألفية ابن مالك . ثم يُصدّق ما جاء به سليم سركيس، وهو رجل مسيحيّ ما قرأ على شيخ . او يؤمن بما يقول به غيرُه من احرار الترك والعرب، وهم متعلمون في اوروبا او البلاد العثمانية على معلمين أتوا بهم من اوروبا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال اكثرهم متمسكين بتلك الآراء القديمة . . . كلُّ هذه المصائب كانت عوائق دون نجح المجاهدين من الاحرار . » اه

وهكذا فولي الدين لم يكن يفرغ من معالجة الاحوال السياسية، ومناوأة الظلّام والمستبدين، الا لينصرف الى مكافحة الآفات الاجتماعية من جهل وتعصب وخُرافات، وآراء فاسدة قديمة . لان الحرية السياسية لا يقوم لها قائم الا اذا تحررت عقول الامة من الجهل والتعصب والاستسلام والخمول . ولذلك عزا تأخر نجاح الاحرار الى هذه الآفات .

وكما ربح سخط عبد الحميد واعوانه في حملاته السياسية، فكذلك ربح سخط الطبقة الارستقراطية في انتقاداته الاجتماعية . فتجهمه واعرض عنه النبلاء والشيوخ، وذوو المراتب والالقاب . وانسحب على اذيالهم العامة في جهلهم وعبودية ارادتهم . فالى الاولين يقول : « يريدون ان اكتب ما يريدون، واريد ان اكتب ما اريد . » والى الآخرين : « انا اكتب وهم لا يفهمون . » واليهم جميعاً : « ان اعرض عن مقالي اهل زماني، فغداً يتهافت عليه ابناؤهم . »

التاريخ

لولي الدين صفة اخرى في آثاره غير صفة الكاتب السياسي، والمصلح الاجتماعي، هي صفة المؤرخ الامين الذي ينقل الحوادث بعد ان يعللها ويدقق فيها، ويفصل اسبابها، ومسبّباتها . فكتابه « المعلوم والمجهول » تاريخ جليل من وجهتيه العامة والخاصة . فيه صورة جلية عن السياسة الحميدية واعمال الوشاة والجواسيس . ودهاء الرجال النافذين كابي الهدى وعزت العابد . ومذابح النصارى، واستبداد الولاة والحكام

بهم . وقيام الاحرار يطالبون بالاصلاح، ومطاردة السلطان لهم، والتجاؤهم الى مصر محتمين بالانكليز . وعطف الخديوي عليهم بعد ان جفاه الخليفة وابى مصاهرته بايعا من ابي الهدى . ثم تغيره عليهم بعد ان توسط عزت العابد في التصافي بين التابع والمتبوع .

ويتخلل ذلك كلام على الصحافة المصرية ، ومنازعها المختلفة، وحريتها في عهد اللورد كرومر، واشتغال ولي الدين بها، ومقاومته للاحرار في بدء امره، ثم انسلاكه في صفوفهم . وسفره الى الاستانة، وتوليته المناصب العالية، وما ناله من رجال السلطان ووشاته وجواسيسه . وكيف ضرب الشرطي والمتصرف، وسجن ونفي .

ولا يغفل عن وصف الاماكن التي مر بها في طريقه الى منفاه ، شأن المؤرخ الدقيق، الى ان يصل الى سيواس فيحدثك عن تاريخها وجغرافيتها وآثارها ، وولاتها واشرافها، ورجال الدين فيها، وحالة سكانها ومبلغ حضارتهم . ويحدثك عما لقي فيها من الالم والعناء، وما اصاب من كرم اهلها، ولطف الاجانب فيها . وغير ذلك مما يتعلق به حيناً، ويخرج عنه آخر . ويربط جميع هذه الاجزاء ربطاً بديعاً محكم التنسيق، ويعرضها عرضاً قوياً، بعيداً عن جفاف التاريخ، قريباً من روعة القصة .

ولا نخطئ الهدف اذا قلنا ان المعلوم والمجهول تاريخ في قالب قصة ، وقصة في شكل مقالات صحافية . ففيه من التاريخ، استقصاء الحوادث وتعليلها، والبحث في مقدماتها ونتائجها ، ودقة في تحديد السنين والشهور ، واهتمام بذكر احوال الناس واخلاقهم ، وحضارة بلادهم ، وعلومهم وآدابهم، وغير ذلك مما يعنى به المؤرخ العصري . وفيه من القصة، طرافة الاخبار، وجمال العرض والتعبير، وبراعة الوصف ودقة النظر، وقوة الاحساس، وصدق اللون المحلي . وفيه من النقد اللاذع، والتصوير السخري، والتحزب السياسي، والاندفاع العاطفي، ما يخرج به عن صدد التاريخ والقصة، ويدنيه من المشاغبات الصحافية .

وعلى الجملة فالمعلوم والمجهول مجموعة نفيسة ، تضم سياسة عبد الحميد واعوانه في اواخر القرن التاسع عشر، وتنطوي على صفحة مجيدة من حياة ولي الدين .

اسلوبه الانشائي

لم يكن ولي الدين من اصحاب الترسل الانيق، صيارفة اللفظ، وصاغة الكلام. وانما كان كاتباً حلو الأداء، لطيف التهكم، اليم النقد، بيّن الصراحة، عجيب الجرأة، صادق العقيدة، ناطق الحجة، بارع التصوير، رائع التشبيه. وهو الى ذلك، قوي الشخصية، فريد الاسلوب، بريء من التقليد.

وطبيعي ان ينفرد باسلوب طريف، ذاك الذي نبذ التقاليد في السياسة والاجتماع، وثار على كل رأي فاسد قديم، وتألمت نفسه من الناس، وتألمت لالام الناس. فتبدو غرابته في تفكيره وتعبيره، وفي وصفه وتصويره. ويأتي انشاؤه مثالاً لتلك الشخصية الشاذة المستقلة، وصورة لنفسه المتألمة، في إبائها وحنانها.

يكتب ولي الدين فتتواثب جمله متقطعة لا تكاد تتصل، كأنها قطع من انفاسه، وتتدافع الفاظه هائجة كانها امواج صدره. تطفو عليها ظلال النبل والشقاء والتهكم، فتصبغها بصبغة نفسه. ويسمو انشاؤه مرة ولاسيما في تمهيداته، وانتقالاته، واوصافه. وينحدر اخرى، ولاسيما في احاديثه واخباره، لا يستقر من الاضطراب كأن فيه شبهاً من حياته. وهو على حالتي القوة والضعف يحتفظ بشخصيته وجدّته وحلاوته. فما يتبين فيه الضعف قوله:

« وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر دسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جاء امرأتي المَخاضُ. وما قاربت الشمسُ الا وضعت بنتاً سميتها فيكتوريا. » اه

ومثال القوة حين يمهد بين يدي الموضوع:

« انما يُعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكُرَب، وتوالي الحوادث. اما ادّعاء الودّ، والعيشُ في خَفْضِه، والحال في استقرار فذلك يتساوى فيه صادق وكاذب. وفي كرام الاعادي من يشفق على عدوّه، اذا فُلّت مِرّته[1]، ومال رُكنه. ولله أيّام الشدائد، تُعلّم من حيث تستبكي، وتَهَب الموعظة من حيث تُوجع. » اه

(١) فُلّت مِرّته: اي ضعفت قوته.

ثم حين ينتقل من الخبر الى الانشاء :

« بين نَوْحات النائحات، وبكاء الثاكلات، سكوتٌ يأتي به الاعياء، وتَقطُّعُ الأنفاس. ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلبُ عن العين، فتسكت الظواهر، وتبكي السرائر . » اه

ثم حين يصف :

« فخرجنا من توقاد على عادتنا مُبكِرين، والطيرُ في وُكُناتها، فجعلنا نتسنَّمُ الهضابَ، لا يتخلَّلُ صعودنا انبساطٌ ولا انحدارٌ. حتى رُفع لنا شامخٌ ذو هَضَبات، متصلُ الذُّرى بالسحاب، تعالته تِلالٌ من الثلج كالقطنِ المندّف . أشمُّ، صعبُ المرتقى يقصرُ دونه الجهدُ، وتنحلُّ في ترقيه العزائم. تتظالعُ فوقه الجياد والعرباتُ كأنها تسبح في سحاب جامد . » اه

واذا وصف، صور واجاد التصوير والتلوين :

« في ليلة من ليالي الشتاء، سكنت تحتها الاشياء، وتحركت الضمائر، سوداء الجلباب، بيضاء الصقيع، طرقوا باب المظلوم . » اه

واجمل ما في صوره تشابيهه الغريبة، التي تدل على دقة نظر، وتنبه للاشياء، وبراعة في تخير الالفاظ المساعدة . يتخذها اما للسخر والتشويه، واما للافصاح عما في نفسه من تأثر والم، فيشترك فيها الخيال والشعور :

« تبادلنا سلامين كمن يحثو التراب على رأسه . » اه

« وصاحبنا الكاتب داخل علينا يقود رجلًا كالجمل، على رأسه عِمامةٌ كالهودج . » اه

« وما راعني الا جنود من البقّ، تدب الي من كل ناحية . بقٌّ غُذِي انواعَ الدماء حتى اتسع وانبسط، وعادت كل واحدة منه كطابع البريد، تتبختر على الوِسادة تبختُرَ الفقيه في الجنازة . » اه

« زارني قومسير المركز فقال: « سلام ! » قلت : « سلام ! » فافتر ثغره عن تبسامة[1] كأنها تبسامة الجدث لميت جديد . » اه

---

(١) كذا في الاصل والمراد ابتسامة .

« وأتتها قصائد الصوفيَّة مطوَّلةً باردةً، مُظلمةً كليالي الشتاء . »

وله الاشارات اللطيفة الموجزة :

« فتلطَّف في التسليم، وجلس الى جانبي مرحباً ومسلماً . فلما فرغنا من مطارحة الاكاذيب[1] . » اه

« ثم مضى شهران، وفي اول الثالث زُفَّت المجهولة الى المجهول . »

وانشاؤه على الاجمال موجز، عصبي النبرات، ولاسيما في المواقف العاطفية، وتمتاز اوصافه بما فيها من الخيال الشعري الجميل .

منزلته

كان ولي الدين شهاباً من شهب الحرية في ليالي الاستبداد، تألق نوره على غفلة من الدهر، فانبسط، وما كاد حتى تخطفته الاحداث، فتجلد لها بجسم كالسيف في مضائه ونحوله . وما زال يدفعها، وتلقاه حتى اذابت آخر ذرة من شعاعه، فغار مشرقها في المغرب تاركة وراءها أثراً رائعاً كذلك الاثر الذي تغادره الشمس بعد الغروب .

كان صحافياً في زمن العبودية، زمن كثر فيه المداهنون والمتملقون، فلم يعرف المداهنة والتملق . بل صارح الظلم بالعداء، وجاهر بما لا يروق اصحابه ودافع عن عقيدته الحرة انبل دفاع، فكان عنوان الجراءة والصدق، يقول كلمته لا يخشى فيها عقاباً، ولا يرجو بها ثواباً .

وكان مصلحاً في زمن التوت اخلاق مجتمعه، وطغت عليه الخرافات، فلم يحجم عن مكافحتها، غير مبالٍ ما يلقى دونها من ازورار وايذاء .

وكان مجدداً في عهد غلب عليه التقليد، فثار على سنن المحافظين، يقول ويكتب

---

(١) الشخص الذي يسلم عليه لا يعرفه . وانما اراد هنا اظهار المجاملات الشرقية الفارغة عند التسليم .

كما يريد لا كما يريدون . مستقلّ الرأي بيّن الشخصية لا يُصدر الا عن عقيدة واخلاص .

وحسبه ان يكون للنهضة صحافيها الجري، وسياسيها الصادق، ومصلحها الحر، وكاتبها المجدد . ولئن اعرض عنه ابناء قومه في مصر حيًّا وميتًا، فإن في البلاد العربية لقوماً يذكرون ولي الدين

القصص

مضى لنا كلام على نشأة القصة عند العرب، ومنزلتها الادبية ، وكيف انه لم تأتنا عنهم قصص راقية الفن، وانما جاءنا حكايات، ومقامات، واحاديث[١] . ثم كان عصر الانحطاط، فانحدرت القصة انحداراً مشؤوماً، وآلت لغتها الى العامية، او ما يشبه العامية . واصبحت عبارة عن تعداد حوادث خارقة يشترك فيها الانس والجن، ولا تصوّر في اكثر وجوهها الحياة الطبيعية التي يحياها الانسان .

على انه ما انتشرت الثقافة الغربية في القرن الفائت، واطلع الكتاب على القصص الاعجمية حتى اكبوا على نقلها . وكان اللبنانيون اسبق من غيرهم الى محاولة هذا الفن لتقدم ثقافتهم . فترجموا قصصاً عديدة عن الفرنسية والانكليزية، وسواهما من لغات الغرب . واشهر مترجميهم سليم البستاني، ونجيب حِراد[٢]، ونقولا رزق الله[٣]، وطانيوس عبدُه[٤]، ونقولا الحدّاد[٥] .

وانشأوا المجلات القصصية ، كمجلة « الراوي » لطانيوس عبده[٦] . ومجلة « الروايات الجديدة » لنقولا رزق الله[٧] . ولم يقتصروا على النقل بل حاولوا الوضع . وكانت سوق القصص التاريخية، المتعددة الحوادث رائجة يومذاك في اوربة، فنسجوا على منوالها يستمدون موضوعاتهم من تاريخ الشرق. فألف سليم البستاني طائفة منها نشرها في « الجنان » مثل : « زنوبيا » . و« بدور » . وجاء بعده جرجي زيدان[٨]

---

(١) ادباء العرب الجزء الثاني ص ٦٣١ . (٢) ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ وتوفي بها سنة ١٩١١ . (٣) ولد في بيروت سنة ١٨٦٩ . ورحل الى القاهرة وانشأ فيها مجلة الروايات الجديدة . وتوفي بها سنة ١٩١٥ . (٤) شاعر كاتب عاش في مصر يشتغل بالصحافة وينشئ مجلة الراوي القصصية . ثم عاد بعد الحرب الى بيروت ، وظل يحترف الصحافة حتى توفي سنة ١٩٢٦ . (٥) كاتب اديب رحل الى مصر ولا يزال فيها . (٦) انشأها في بيروت سنة ١٩٠٩ . (٧) انشأها في القاهرة سنة ١٩١٠ . (٨) ولد جرجي زيدان في بيروت سنة ١٨٦١ . درس في الكلية الاميركية . وسافر الى مصر، واشتغل بالصحافة . واصدر مجلة الهلال . ووضع تآليف جمة في التاريخ ، والقصص، واللغة والعلوم . توفي في مصر سنة ١٩١٤ .

فواصل الهلال بسلسلة طويلة بناها على تاريخ العرب والاسلام : « كعذراء قريش » و « غادة كربلاء » . و « فتاة غسان » . و « العباسة اخت الرشيد » . و « المملوك الشارد » . الا ان هذه القصص اجمالاً غلبت فيها الصبغة التاريخية على الاستنباط والفن . وحاولوا ايضاً وضع القصص العصرية التي تصور حياة المجتمع، ونواحي اخلاقه، وما يحدث عنها من فضائل ورذائل . فوضع سليم البستاني : « بنت العصر » و « اسماء » و « الهيام في جنان الشام » . وكذلك فعل نقولا الحداد، في « آدم الجديد » و « حواء الجديدة » و « اسرار مصر » و « الصديق المجهول » . وهذا النوع غلبت عليه المواعظ، والدروس الخلقية، والاستنتاجات المنطقية، والاراء الفلسفية .

ثم عرض المصريون لهذا الفن فكتبوا فيه . وشاع بعد الحرب الكونية شيوعاً عاماً فشمل مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجرين . وانشئت له المجلات الخاصة، تعنى بالترجمة والوضع . غير ان الكتاب آثروا في تأليفهم، القصة القصيرة، يحاولون بها غالباً تصوير حياتهم، او حياة الاقليم الذي يعيشون فيه . وتظهر هذه العناية خصوصاً عند كتاب لبنان ومصر . اما القصص الطويلة فلم يُخرجوا منها الا نزراً يسيراً لا يكاد يذكر، فلذلك ترجى نهضة الاقصوصة قبل نهضة القصة .

التمثيل

لم يترك العرب في الدولة العباسية علماً من العلوم اليونانية الا نقلوه واطلعوا عليه، واشتغلوا به . ما خلا الادب فانهم استغنوا بما لديهم، فلم تصل اليهم ملاحم اليونان ولا قصصهم التمثيلية . ولو قدّر لها الوصول لما كان الحكم الاسلامي يومذاك ، وهو فردي مصطبغ بالدين، يعمل لاحياء التمثيل شأن الكنيسة المسيحية في القرون المتوسطة . لان التمثيل عندهم تزوير لعظماء الرجال .

ويدل تاريخ هذا الفن على أنه ينتشر غالباً في الحكومات الديموقراطية، لما فيه من تصوير ونقد للاخلاق والاعمال. واذا ظهر في حكومة الفرد اقتصر على البلاط وارادة صاحب البلاط . وهيهات ظهوره، وانتشاره ان لم يكن له حافز من صاحب النهي والامر .

فلما تقدمت الثقافة الغربية في منتصف القرن الخالي، والتمعت النهضة في لبنان، تصدى اللبنانيون لهذا الفن، والتحفوا به الادب العربي . وكان اول من عني به منهم مارون النقاش[1] فمثل رواية «البخيل» سنة ١٨٤٨ . فكانت فاتحة المسرح العربي، وحضرها قناصل الدول، وكتبت عنها بعض الصحف الاوربية .

وثما حب هذا الفن في صدور اللبنانيين فاقبلوا عليه ينهضونه ، وحفلت بـه مدارسهم[2] . وحملوه الى مصر .

وكان اسماعيل قد بنى الاوبرة سنة ١٨٦٩، واستقدم اليها فرقة فرنسية تمثل

---

(١) ولد في صيدا سنة ١٨١٧ ، وتعلم في بيروت ، فاحسن العربية والتركية والفرنسية والايطالية . وبرع في الموسيقى . وكان تاجرًا يرحـل الى اوربة . فشاهد التمثيل في ايطالية . فعاد الى بيروت وانشأ رواية البخيل، محتذيًا فيها حذو موليار ، والف فرقة تمثيلية ، ومثلها في بيتـه . ثم انشأ دارًا للتمثيل . وتابع تأليف الروايات . ومن قصصه المشهورة ابو الحسن المغفل . مات في طرسوس سنـة ١٨٥٥ . (٢) كانت الكلية اليسوعية اسبق المدارس الى هـذا الفن. بدأت بتمثيل الروايات العربية منذ سنة ١٨٨٢ . راجع الاداب العربية في القرن التاسع عشر للاب شيخو . ج ٢ . ص ٧٠ .

فيها . فلم تشهد مصر التمثيل العربي الا بعد ان هبطها سليم النقاش[١] واديب اسحق ومعهما فرقة لبنانية، فمثلت في الاسكندرية سنة ١٨٧٦ .

وكان في جملة الفرقة رجل يقال له يوسف الخيّاط، فاستقل بها، وشخص الى القاهرة، ومثّل في الأوبرة رواية « المظلوم ». وكان اسماعيل حاضراً، فظنها تعريضاً به . فتقدم باخراج الخيّاط وفرقته من مصر . ولكنها ما خرجت الا لتضطلع بالعبء بعدها فرقة سورية من دمشق على رأسها ابو خليل احمد القبّاني[٢] . فكان لها اثر حسن في احياء التمثيل العربي بوادي النيل . ثم توالت الفرق اللبنانية والسورية، على مصر، الى ان انشأ اسكندر فرح فرقته في نحو سنة ١٩٠٤، وضم اليها المغني الشيخ سلامه حجازي، فاقبل عليها الناس دون غيرها، لحسن غناء الشيخ، وجمال صوته .

على ان الفن التمثيلي لم يتقدم الا في عهد عباس الثاني، بعد ان بعث احد اللبنانيين جورج ابيض الى فرنسة ليتعلم اصول التمثيل . فعاد الى القاهرة، وألف فرقة حسنة تعهدها بالتثقيف، فكانت نهضة هذا الفن على يده . وخطا المسرح المصري خطوة محمودة، وتقدم جميع المسارح العربية، ولا يزال .

وكانت المرأة المسلمة لا تشترك في التمثيل رعاية للتقليد . الّا انها ما لبثت ان سايرت الزمن في تطوره، فاصبح من المسلمات، ولاسيما المصريات، ممثلات بارعات .

وبينا المسرح المصري يخطو الى الامام بقدم ثابتة تدفعه الحكومة ، وتمشي به الفرق العديدة، وعلى رأسها رجال درسوا اصول الفن في اوربة، كفرقة محمد تيمور، وفرقة يوسف وهبي ؛ كان المسرح اللبناني، والمسرح السوري، يرجعان القهقرى لتضاؤل الفرق التمثيلية فيهما وتقاعد الحكومات عن مناصرتها . ولولا الفرق المصرية التي تفد الى لبنان وسورية لما شهدت ملاعبها تمثيلاً راقياً، مع ان لها فضل المتقدم في احياء هذا الفن .

---

(١) هو ابن اخي مارون النقاش ، اخذ فن التمثيل عن عمه . (٢) القباني اول من احيا التمثيل في سورية ، فقد انشأ في دمشق مسرحاً ، والف فرقة، وبدأ يمثل رواياته من سنة ١٢٨٢ هـ . (١٨٦٥ م) راجع خطط الشام لكرد علي ج ٤ . ص ١٤٣ .

والكتاب اللبنانيون هم الذين اغنوا المسرح العربي، بما ترجموا ووضعوا من الروايات في صدر النهضة كمارون النقاش، وسليم البستاني، وسليم النقاش، وأديب اسحق، ونجيب الحدّاد، ونجيب حُبَيقة وسواهم. وانه، وان لم تبلغ رواياتهم على الجملة، درجة الفن الراقي في الادب والتمثيل، لقد كانت غذاء صالحاً لحياة المسرح العربي، في اول نشأته.

ومما يؤسف لـه ان التأليف المسرحي لا يزال الى يومنا هذا ضعيف الفن، ضئيل الاثر، سواء فيه الموضوع والمنقول، والمقتبس؛ فما تقع على رواية راقية الا في الندرى. ولعل مصر، ومسرحها ارقى المسارح العربية، لا تتقاعس عن اصلاح هـذا الخلل بتنشيط الكتاب الى رفع الادب والفن في القصص التمثيلي.

علوم اللغة

كان المشتغلون باللغة معظمهم لبنانيون لمضاء عزيمتهم، وحاجة مدارسهم الى الكتب الحديثة التي توافق اذواق الطلاب وروح عصرهم . فقام فيهم من يشرح ويحشي بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات ، لحسن تبويبه، وسهولة الاخذ عنه، وملاءمته للبيئة الاجتماعية . فكان من شراحه المعلم بطرس البستاني، والشيخ عبدالله البستاني ، والخوري نعمةالله باخوس[١]، والشيخ سعيد الشرتوني[٢] . ووضع الشيخ ناصيف اليازجي كتبه المشهورة كارجوزته وشرحها في النحو : « نار القرى في شرح جوف الفرا . » وارجوزته وشرحها في الصرف : « الجمانة في شرح الخزانة . » و« مجمع البحرين » ستون مقامة في اللغة وقواعدها ونكاتها . و« عقد الجمان في المعاني والبيان » . و« اللامعة في شرح الجامعة » . وارجوزة مشروحة في العروض . و« قطب الصناعة في اصول المنطق » . فاغنى المدارس، وافادها اجل فائدة . وجاء بعده رشيد الشرتوني[٣] وسعيد الشرتوني، وجبر ضومط[٤] وسواهم . فالفوا كتباً كثيرة في الصرف والنحو والبيان، متسلسلة وغير متسلسلة . وسبق اللبنانيون الى تأليف المعاجم الحديثة، والبحث في اصول اللغة وفلسفتها . فوضع المعلم بطرس البستاني معجمه « محيط المحيط » في مجلدين كبيرين، رتبه على اعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرد، وجمع فيه طائفة حسنة من المصطلحات العلمية والفنية، والالفاظ العامية المفسرة . وجعل له مختصراً في مجلد واحد سماه قطر المحيط . وحذا حذوه الشيخ سعيد الشرتوني في معجمه

---

(١) كان استاذاً في مدرسة الحكمة ، توفي سنة ١٩٢٩ م ، وكان قد اسنّ وشاخ . (٢) كان استاذاً في الكلية اليسوعية ببيروت، توفي سنة ١٩١٢ عن ٦٣ سنة . (٣) رشيد الشرتوني توفي سنة ١٩٠٦ . علم في الكلية اليسوعية ، وكتب في البشير . من آثاره المبادئ العربية في الصرف والنحو . سلسلة مطردة الصعود بحسب الصفوف . (٤) توفي جبر ضومط سنة ١٩٣٠ . من آثاره فك التقليد في الصرف . والخواطر العراب في النحو والاعراب . والخواطر الحسان في المعاني والبيان .

« اقرب الموارد » ثلاثة مجلدات كبيرة؛ ثالثها ذيل استدرك فيه ما فاته في الاولين. والف الشيخ احمد فارس الشدياق[١] كتابه « الجاسوس على القاموس » انتقد فيه القاموس المحيط للفيروز ابادي . والشيخ ابراهيم اليازجي « نجعة الرائد في المترادف والمتوارد ». والشيخ عبدالله البستاني معجمه « البستان » في مجلدين كبيرين، وجعل له مختصراً في مجلد واحد سماه « فاكهة البستان » . ووضعت معاجم مدرسية صغيرة « كالمنجد » للاب لويس معلوف اليسوعي، و « المعتمد » لجرجي عطية .

ووضع احمد فارس الشدياق كتاب : « سر الليال في القلب والابدال » بحث تحليلي في اللغة ذكر فيه الافعال والاسماء التي كثر تداولها . ورتبها بحسب التلفظ بها، ليوضح تناسبها وتجانسها . وصنف جرجي زيدان كتاب « الفلسفة اللغوية » في اصل اللغة ونشوئها .

اما سائر الاقطار العربية، فكانت تعتمد في الغالب على الكتب القديمة المطولة. وربما عني بعضهم بتحشيتها وشرحها كالشيخ محمد الدسوقي المصري[٢] وله « حاشية الدسوقي على مغني اللبيب[٣] » في النحو . و « حاشية الدسوقي على التفتازاني » في المعاني والبيان . الّا ان الكتب العصرية لم تلبث ان شملت معظم الامصار ولاسيما بعد الحرب العالمية . وتوفر على تصنيفها الادباء المسلمون، في مصر وسورية والعراق، اسوة بالادباء المسيحيين .

---

(١) احمد فارس الشدياق ، عالم لغوي كبير ، وكاتب متفنن مبتكر ولد في عشقوت من لبنان سنة ١٨٠٤ م . وكان مسيحياً مارونياً اسمه فارس تعلم في مدرسة عين ورقة . ثم اتصل بالمرسلين الاميركيين ، وانتحل المذهب البروتستانتي . ثم اتصل باحمد باشا باي تونس وانتحل الاسلام ، وتسمى « باحمد » . وطوّف في انحاء اوربة ولاسيما فرنسة وانكلترة . ثم شخص الى الاستانة ، وانشأ جريدته الجوائب . وله مؤلفات جليلة منها لغوية ، ومنها رحلات وصف بها اسفاره واحوال البلدان ؛ كالواسطة في احوال مالطة . وكشف المخبا عن احوال اوربا . والساق على الساق فيما هو الفارياق . والفارياق لفظة نحتها من فارس الشدياق . وهذا الكتاب فيه لغة واسفار ، وذكر احوال المؤلف ، وانتقاد للقسيسين . وفيه مجون كثير . وكانت وفاة الشدياق في الاستانة سنة ١٨٨٧ م . ونقل رفاته الى لبنان ، ودفن بالخازميّة قرب بيروت . (٢) توفي سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) . (٣) مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام .

العلوم الشرعية

تبدلت العلوم الشرعية في النهضة تبدلاً محسوساً، ودخل عليها انظمة جديدة اقتضتها المدنية العصرية . وكان بدء هذا التطور منذ سنة ١٨٥٦ حين شرعت حكومة بني عثمان بانشاء المحاكم النظامية، فسنت لها القوانين الحديثة على مثال القوانين الاوربية . الّا انها استثنت القانون المدني، فاستخرجت احكامه من الشرع، في كتاب « المجلة » مراعية فيه روح العصر .

وعمت هذه الانظمة جميع الولايات العثمانية الا مصر فان قضاءها استقل من عهد اسماعيل، ووضعت له القوانين الخاصة، مأخوذة في الغالب من القوانين الفرنسية . وكذلك لبنان تبدلت فيه النظم العثمانية بعد الحرب، ووضعت له قوانين جديدة استخرجت من ارقى الانظمة الاوربية .

وكان من اثر انشاء المحاكم النظامية ظهور فن المحاماة، وانشاء مدارس الحقوق، وانتشار المجلات القضائية . ونبغ جماعة من رجال القانون نذكر منهم اشهر من اتصلت بنا آثارهم : كقدري باشا[١]، وامين الشُميّل[٢] وعمر لطفي[٣]، وفتحي زغلول[٤]

---

(١) مصري تقلب في مناصب الحكومة، توفي سنة ١٣٠٣ هـ. (١٨٨٥ م) . من آثاره ترجمة قانون الجنايات عن الفرنسية، وكتاب الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية . وقانون العدل والانصاف على مشكلات الاوقاف . (٢) لبناني جاء مصر واصدر فيها مجلة الحقوق سنة ١٨٨٦ . وهي اول مجلة قضائية . توفي سنة ١٨٩٧ . من اثاره الدرة الجلية في المباحث القضائية . وترجمة نظام الحكومة الانكليزية . (٣) مصري شغل مناصب الحكومة، ووكالة مدرسة الحقوق . توفي سنة ١٩١٢ . ترك اثاراً في العربية والفرنسية فمن اثاره العربية : الامتيازات الاجنبية . والوجيز في شرح القانون الجنائي . (٤) ولد بمصر سنة ١٨٦٣ م . وترقى في مناصب الحكومة الى وكالة نظارة العدلية . وتوفي سنة ١٩١٤م . اشهر اثاره : شرح القانون المدني . وكتاب المحاماة .

في مصر . والشيخ يوسف الاسير[١] ، وسليم باز[٢] ومخائيل عيد البستاني[٣] في لبنان . ومحمود حمزة الحسيني[٤] في سورية .

---

(١) ولد في صيداء سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) . ودرس في الازهر ، وعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . وتقلب في مناصب الشرع والافتاء . من آثاره كتاب الفرائض .
(٢) لبناني من دير القمر ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ . وتلقى علومه في مدرستي غزير وعين ورقة . تولى كثيراً من المناصب الرفيعة في العدلية كالادعاء العام في لبنان ، وعضوية مجلس الشورى في الاستانة . آثاره كثيرة اشهرها شرح المجلة ، وشرح قانون المحاكمات الحقوقية ، وشرح قانون المحاكمات الجزائية ، وترجمة قانون الجزاء عن التركية وشرحه . توفي في الحدث ، ودفن بدير القمر سنة ١٩٢٠ م . (٣) هو خال صاحب هذا الكتاب ولد في دير القمر من لبنان سنة ١٨٦٨ م . وتعلم في مدرسة الحكمة . ورغب في الفقه فانصرف الى دراسته حتى نبغ فيه . تولى المناصب العالية في القضاء اللبناني كمستشارية محكمة التمييز ، ورئاسة محكمة الجنح الاستئنافية ، والادعاء العام الاستئنافي ، ورئاسة استئناف محكمة الحقوق . اشهر آثاره مرجع الطلاب في الفقه ، وترجمة قانون رسم التمغة عن التركية . توفي ودفن بدير القمر سنة ١٩٣٦ . (٤) فقيه من علماء دمشق ، تولى في سورية النيابات الشرعية ، ومنصب الافتاء . آثاره كثيرة اشهرها الفتاوى المحمودية او الحمزاوية في مجلدين . توفي سنة ١٣٠٥ هـ . (١٨٨٧ م) .

العلوم الدخيلة

نشأت الحركة العلمية في مصر قبل غيرها من الاقطار العربية، واتسعت دائرتها في زمن قصير . ويعود الفضل في ذلك الى مساعي محمد علي، وايفاده البعثات الى اوربة، وانشائه المدارس العديدة، بينها مدرسة الالسن والترجمة . ثم ازدادت هذه الحركة اتساعاً في زمن اسماعيل، فلم تقتصر على الترجمة، بل شملت التأليف . فصار الذين تثقفوا في اوربة او مصر يكتفون احياناً بالاقتباس اذا حاولوا الكتابة في علم من العلوم. فظهر في العربية كتب كثيرة بين مترجم وموضوع، تبحث في شتى العلوم والفنون، كالطب والطبيعي والرياضيات، والتاريخ والجغرافية، والقوانين القضائية، والفنون العسكرية، والاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع .

واشتهر من الذين ترجموا وألفوا في هذه العلوم جماعة منهم رفاعة بك الطَهْطاوي[1] واحمد حسن الرشيدي[2]، ومحمود باشا الفلكي[3] وسواهم .

ولبثت مصر منفردة في الاشتغال بالعلوم حتى نهض رجال البعثات الاميركية في لبنان، وانشأوا مدارسهم، وجعلوا العربية لغة العلوم فنقلوا اليها كتباً كثيرة في الطب والطبيعيات والرياضيات . الا انهم عدلوا عنها بعد حين الى الانكليزية، فسكنت

---

(١) منسوب الى طهطا في مصر . ولد سنة ١٨٠١م . وكان من رجال البعثة الاولى التي اوفدها محمد علي الى فرنسة، فتعلم الفرنسية، ومارس الترجمة حتى برع فيها . وله كتب كثيرة مترجمة ومؤلفة تبحث في شتى العلوم . توفي سنة ١٨٧٣م . (٢) هو من رجال البعثة الاولى في عهد محمد علي، طبيب مؤلف ومترجم كتباً عديدة توفي سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) . (٣) درس في اوربة العلوم الرياضية زمن اسماعيل، وترك فيها كثيراً من الآثار . توفي سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ .) .

تلك الحركة المباركة . واعظم من خدم العربية منهم بتؤلفاته العديدة الدكتور فانديك[١] ثم الدكتور بوسط[٢] .

---

(١) الدكتور كرنيليوس فانديك ، هولاندي الاصل اميركي النشأة، ولد سنة ١٨١٨، وجاء بيروت سنة ١٨٤٠، فتعرف بالمعلم بطرس البستاني، فاصطحبا وسكنا معاً . وتعلم العربي واتقنه . ثم انشأ مدرسته في قرية عبيه . والف الكتب العلمية بالعربية ، لتدريس الجبر والهندسة والطبيعيات والجغرافية . ولما انشئت الكلية في بيروت ، جعل استاذاً للكيمياء والفلك، فاخذ يؤلف فيهما ، ويعلم تلاميذه ، فترك اثاراً جليلة تشهد بعلمه وفضله . توفي سنة ١٨٩٥ م . (٢) قدم لبنان سنة ١٨٦٣ ، واتقن العربية ، ثم عين استاذاً في الكلية الطبية . فألف كتباً كثيرة في الطب والتاريخ الطبيعي، وسواهما . توفي سنة ١٩٠٩ م .

الكتب الجامعة

لم يعرف صدر الانبعاث من الكتب الجامعة الا دائرة المعارف[1] للبستاني، اول موسوعة[2] عربية، اضطلع بعبئها الافراد، مع ان هذا العمل الجبار لا يقوم به الا الجماعات . والدائرة تشتمل على كل فن ومطلب من تاريخ واداب وعلوم . مرتبة على اوائل الحروف . اصدر منها المعلم بطرس البستاني ستة اجزاء، عاونه فيها ابنه سليم . وكان قد اعدّ بعض السابع فادركته الوفاة، فأتمه سليم واتبعه بالثامن . ثم توفي سليم، فواصل العمل اخواه ونسيبهما سليمان، فاخرجوا التاسع والعاشر والحادي عشر . وهذا ينتهي بكلمة « عثمانية » ثم انقطع العمل .

وتعنى اليوم مصر بنشر دائرة المعارف الاسلامية، منقولة عن الانكليزية، مكتوبة ابحاثها باقلام كبار المستشرقين . وربما علق بعض ادباء المسلمين على هذه الابحاث .

---

(١) دائرة المعارف : لفظة اختارها المعلم بطرس ترجمة لمعنى « انسيكلوبيديا » .

(٢) موسوعة : لفظة اختارها الشيخ ابراهيم اليازجي لدائرة المعارف .

التاريخ والرحلات

كان التاريخ في بدء النهضة ساذجاً خالياً من الفن شأن التواريخ العربية القديمة. وكانت لغته اقرب الى العامية منها الى الفصحى، ولنا امثلة على ذلك تاريخ الجَبَرتي[١]. وتاريخ نابوليون وتاريخ الجزار لنقولا الترك. وتاريخ الامير حيدر[٢]. واخبار الاعيان في تاريخ لبنان لطنوس الشدياق[٣]. وتُرجم كثير من التواريخ في عهد محمد علي، نقلها رجال البعثات العلمية بعد رجوعهم من اوربة، كالطهطاوي واصحابه. وكان من فوائد اتصال الشرق وسائر الدول العربية بالغرب، واستقلال مصر، ان تتابعت اسفار الكتاب الى البلاد الاوربية والمصرية وغيرها، فاصطبغ التاريخ بالوان الرواية العيانية، فكتبت عدة رحلات منها رحلات شهاب الدين الالوسي[٤] وابراهيم النجار[٥]، ومحمد بيرَم التونسي[٦]، وفرنسيس المراش[٧]، واحمد فارس الشدياق.

---

(١) هو عبد الرحمن الجبرتي المصري، عاصر حملة نابوليون، وشطرًا كبيرًا من ولاية محمد علي، ودوّن في تاريخه اهم الحوادث التي مرت به. واسمه عجائب الآثار في التراجم والاخبار، اربعة مجلدات. توفي الجبرتي سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م). (٢) الامير حيدر احمد الشهابي، وتاريخه هذا يبتدئ بظهور الاسلام، وينتهي بوفاة الامير بشير الكبير. وكانت وفاته سنة ١٨٢٨ م. (٣) ولد طنوس الشدياق في الحدث قرب بيروت، ودرس في عين ورقة، وعين قاضياً على نصارى لبنان. توفي سنة ١٨٣٥. وتاريخه هذا يبحث في جغرافية لبنان وانساب اعيانه، واخبار ولاته. (٤) هو محمود شهاب الدين الالوسي ولد في بغداد سنة ١٢١٧ هـ. (١٨٠٢ م). وبها توفي سنة ١٢٧٠ هـ. (١٨٥٤ م). رحل الى الاستانة وسواها، وكتب اخبار اسفاره في عدة مصنفات. منها « رحلة الشمول، في الذهاب الى اسلامبول ». (٥) ولد بدير القمر سنة ١٨٢٢. ودرس الطب في قصر العيني. ثم رحل الى الاستانة، وتعاطى بها الطب مدة، ثم عين رئيس اطباء العساكر العثمانية في بيروت. ثم رحل الى اوربة ثم عاد الى بيروت وانشأ بها المطبعة الشرقية، ونشر رحلته، وتاريخ آل عثمان في كتاب سماه المصباح الساري. توفي سنة ١٨٦٤ م. (٦) ولد بتونس سنة ١٢٥٦ هـ. (١٨٤٠ م). وتوفي بمصر سنة ١٣٠٧ هـ. (١٨٨٩ م). تولى نظارتي المطابع والاوقاف في تونس، والقضاء في المحكمة الابتدائية بمصر. من اثاره صفوة الاخبار بمستودع الامصار،

وتقدم فن التاريخ في اواخر القرن التاسع عشر، بتقدم الثقافة الغربية، وتأثير المستشرقين، فعرف طائفة من المؤرخين المحققين، كالمطران يوسف الدبس[١]، وجميل المدور[٢]، وجرجي زيدان[٣] . واطرد تقدمه في القرن العشرين، الا زمن الحرب الكونية فانه لم يصنف شيء يستحق الذكر غير تاريخ لبنان وضعه جماعة من ذوي الاختصاص، دعاهم الى وضعه المتصرف اسماعيل حقي بك، فجاء احسن ما كتب في هذا الباب .

ثم استأنف هذا الفن سيره بعد الحرب، فظهرت فيه مؤلفات حسنة كتاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دي طرازي . وخطط الشام لمحمد كرد علي، وملوك العرب لامين الريحاني، ويدخل هذا في باب الرحلات . وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل .

فيه تاريخ تونس، واخبار رحلاته الى اوربة . (٢) ولد بحلب سنة ١٨٣٦، ودرس الطب، ثم رحل الى باريس ليتم علومه، وعاد منها وقد ضعف بصره . من آثاره، رحلة الى باريس وصف بها سفره . وكان ينظم الشعر ويطلب به اغراضاً جديدة . توفي سنة ١٨٧٣ .

(١) هو رئيس اساقفة بيروت الماروني، ومؤسس مدرسة الحكمة . من آثاره تاريخ سورية في تسعة اجزاء، وتاريخ الموارنة . توفي سنة ١٩٠٧ . (٢) اديب لبناني نشأ في بيروت، واستوطن مصر وتوفي سنة ١٩٠٧ . اشهر آثاره حضارة الاسلام في دار السلام، تاريخ طريف الاسلوب في الادب العربي، كتبه بلسان رحالة فارسي قدم بغداد على عهد الرشيد فوصف احوال الدولة العباسية متناولاً السياسة والادب والاجتماع . (٣) اشهر آثاره التاريخية : تاريخ التمدن الاسلامي، خمسة اجزاء، وتاريخ مصر الحديث جزءان، وتاريخ مشاهير الشرق جزءان، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

الادب والادباء

كان من اثر الثقافة الغربية في المشارقة ان نشط الكتاب الى الدراسات الادبية في اواخر القرن الماضي، يحتذون على مثال نقاد الغرب، ويطبعون في تحقيقاتهم على غرار المستشرقين . فظهرت مقدمة الاياذة لسليمان البستاني سنة ١٩٠٤ م وفيها دروس تحليلية، ومقابلات، واستنتاجات، فكانت فاتحة النقد الحديث . وسنتكلم عليها في غير هذا المكان . وتلاها تاريخ الاداب العربية في القرن التاسع عشر للاب لويس شيخو[١] وتاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان[٢] . الّا انهما قصرا الدرس والتحليل على الميزات العامة في كل عصر . ولم يعرضا لدرس آثار الشاعر او الكاتب؛ فجاء عملهما من هذه الناحية ناقصاً .

واصاب الادب فتور في الحرب الكونية ، كما اصاب غيره من الفنون . ثم استأنف نشاطه بعدها، وانتحى نواحي جديدة . منها دراسة خاصة لكل كاتب او شاعر؛ كابن الرومي لعباس محمود العقاد، وحديث الاربعاء لطه حسين، والروائع لفؤاد افرام البستاني . ومنها دراسة شاملة لادب عصر بكامله . كالادب الجاهلي لطه حسين، والنثر العربي في القرن الرابع للهجرة لزكي مبارك . ومنها دراسة تامة لتاريخ الادب في عصوره، كتاريخنا هذا، فانه اول كتاب من نوعه، اسهب في نقد آثار الادباء وفي تحليل ميزات العصور الادبية والتاريخية . فافضت هذه الدراسات

---

(١) الاب لويس شيخو اليسوعي ، ولد بماردين سنة ١٨٥٩ . وتوفي ببيروت سنة ١٩٢٧ . كان قيم المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف ، ومدير مجلة المشرق . نشر والف كتباً كثيرة، منها مدرسية، ومنها تاريخية، ومنها ادبية ، ومنها دينية، ومنها جدلية . نشر كتابه الاداب العربية في القرن التاسع عشر سنة ١٩١٠ م . واتبعه سنة ١٩٢٦ بآخر عنوانه الاداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين . (٢) ظهر الجزء الاول من تاريخ اداب اللغة العربية لزيدان سنة ١٩١١ م . واتمه اربعة اجزاء نشر الرابع منها سنة ١٩١٤ . وهي السنة التي توفي بها .

الى نهوض النقد الادبي، وارتفاع شأنه . فتبدلت اوجه النظر الى الشعر والشعراء، والتصنيف والمصنفين . ومضى زمن كان يقال فيه لكل قصيدة عصماء، ولكل كاتب نحرير . فهبط ادباء حالفتهم الشهرة الكاذبة ردحاً . ولم يثبت الا اصحاب الادب المتين .

بيد ان النقد لم يسلم من النقائص، فهو في الغالب اسير العاطفة ولاسيما مع الاحياء، تلطفه المراعاة اذا اعترضته الصداقة، ويعنف به التحامل اذا قاده الجفاء . ولو اقتصرت صناعته على الادباء دون غيرهم لهان الامر لان الاديب الصحيح مهما ساورته العاطفة لا تفسد عليه ذوقه، ولا تخدعه عن أدبه . ولكن هناك طائفة من المتأدبين، صادفوا من الصحف ظمأ الى المباحث الادبية لرواج سوقها واقبال المدارس في لبنان وسورية ومصر على تدريس الادب العربي . فانبروا، قبل ان ينضج ادبهم، وتستوسق لهم ملكة النقد، يروزون الكتاب والشعراء، ويحتكمون في اقوالهم، احتكاماً يخالطه السرف والعنت، بل اصبح كل كاتب، وحامل قلم يرى من تمام ثقافته، ان يجعل من نفسه ناقداً، يبدي رأيه في الادب، وان لم يكن صاحب نقد يعول على آرائه . فمنهم من يذهب به الغرور الى ان يتكلم على الادباء الاقدمين وهو لا يعرف عنهم الا ما التقطه التقاطاً من الافواه . او ان يدلّ على الشعر باحكامه، وهو غريب عنه لا ينظمه، ولا يرويه، ولا يحسن تلاوته وتذوق موسيقاه .

ومنهم من لا يفهم من النقد غير تطبيق القواعد المدرسية، كانها منزلة من السماء، فيجعل نفسه دونها، آلة متحركة لا ارادة لها . او ان يغير على اقوال الآخرين، فيتوسع فيها، وينتحلها غير متأثم .

ومنهم راغب في الشهرة لا يجدها الا في مهاجمة اديب مشهور في الاحياء، ليذكر اسمه بجانب اسمه . او شعوبي وقاح يتنقص الادب العربي، لا يجد فيه فضيلة تحمد، ويقدس الادب الغربي، فيرى ادنى شاعر عجمي ارفع من شعراء العرب كلهم . وهو لو درس ادب العرب درساً صحيحاً، لبدل من ارائه . ولكنه جهله فعاداه . والانسان عدو لما يجهل .

ومنهم من لا يطيب له النقد الا اذا اصاب من ينتقـده في عرضه، وذمه في اخلاقه، وهذا نقد متهافت مذموم لا يسلم صاحبه من ارتداد الشر اليه .

فهذه النقائص في النقد اشاعت الفوضى في الادب الحديث، وجعلته محموماً شديد الغليان، حائراً لا يهتدي الى الطريق السوي، شأن كل ادب جديد لا تستقر له حال الا بعد ان تكتمل ثقافة اصحابه، وتتفر لهم التربية الادبية الصحيحة. وهو، لا بد، واصل الى هذه الغاية ، لاطراد تقدم الثقافة، ونشاط الحياة الادبية . فهذه الحركة المتسعة محمودة العواقب، على ما فيها من فوضى وغليان ، لانها سائرة سيراً حثيثاً الى الامام، لا تصدها العوائق، وانما هي تتبع سنة النشوء والارتقاء .

سليمان البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥ م و ١٢٧٣ — ١٣٤٤ هـ

حياته

هو سليمان بن خطّار بن سلُّوم بن نادر البستاني، وامه مريم بنت الخوري جرجس البستاني . ولد في إبكَشْتين، قرية في الشوف من لبنان . فلما بلغ السابعة دخل المدرسة الوطنية في بيروت لصاحبها المعلم بطرس البستاني، ولزمها ثماني سنوات حتى تضلع من العربية والانكليزية والفرنسية . وحذق الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والجغرافية . وفاز بالشهادة النهائية . فاحترف التعليم، وكتب في الجنّة والجنان والجنينة، غير منقطع عن المطالعة، والتبحر في العلوم والآداب، والتزيد من اللغات . فطارت له شهرة، وهو في حدود العشرين، فدعي الى البصرة لانشاء مدرسة فيها . فشخص اليها، وتولى امر المدرسة سنة، ثم اتخذ بغداد له مقراً، وجُعل عضواً في المحكمة التجارية، ومديراً لبواخر عُمان والبصرة .

واقام في العراق ثماني سنوات، رحل في خلالها الى بادية العرب، وطوّف بالمواضع التي تغنى بها الشعر القديم، واطلع على احوال البدو وعاداتهم . ووصف رحلته هذه في كتاب لم يطبع بعد .

ثم آب الى بيروت، وسافر الى الاستانة، ثم الى مصر، ثم طرق الهند واطراف العجم، ثم قفل الى بغداد سنة ١٨٨٨ م فأصهر فيها الى انطون البغدادي، ثريّ من الكلدان، ومكث زهاء سنتين . ثم قصد الى الاستانة واقام بها سبع سنوات كان يتنقل في اثنائها بين الشرق والغرب . فحيناً بسورية ولبنان، وحيناً باوربة واميركة . وعاد الى مصر سنة ١٨٩٦، وساهم في تصنيف الجزئين العاشر والحادي عشر من

دائرة المعارف . ثم نشر الياذة هوميروس سنة ١٩٠٤ .

ولما نودي بالدستور سنة ١٩٠٨ رجع الى وطنه، فاختارته بيروت مبعوثاً عنها في المجلس العثماني، وانتخبه المجلس رئيساً ثانياً له سنة ١٩١٠ . وانتدبته حكومة السلطان الى اوربة غير مرة في مهمات رسمية . فقابل الملوك والرؤساء، وعظماء الدول، وفض المشاكل السياسية الخطيرة . فجعله الخليفة محمد رشاد عضواً في مجلس الاعيان، ثم عهد اليه في وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ . فلما استعرت الحرب العالمية، حاول ان يرد الحكومة عن خوض غمارها، اشفاقاً على مصير الدولة، فعاكسه الحزب العسكري، فاستقال من الوزارة، وسافر الى سويسرة سنة ١٩١٤، واقام بها خمس سنوات، يخدم مصالح دولته . ثم جاء مصر واتخذها مقاماً حتى سنة ١٩٢٤، فابحر الى نيويرك مستشفياً من ماء في عينيه، فاحتفى به المهاجرون، وعقدوا له حفلات التكريم . بيد ان الطب لم ينجع فيه، ففقد بصره، ثم سطت عليه يد المنون، فاخمدت ذلك النور المتألق في غرة حزيران سنة ١٩٢٥ . وحمل جثمانه الى الوطن في ٨ تموز . فكان له في نيويرك وداع فخم، مشى به المهاجرون والاميركيون في مقدمتهم رجال الحكومة . واستقبلته بيروت في ٦ آب فكان له مأتم وطني، لم تبق جمعية خيرية على اختلاف الاديان والنحل الا ساهمت فيه . ومشى بـه رجال الحكومة ومجلس النواب، ودار الانتداب . وعقدت حفلة التأبين مساء اليوم نفسه، في مدرسة الاحد الاميركية . وفي الغداة نقل الجثمان الى ابكشتين مسقط رأسه ودفن بها .

صفاته واخلاقه

عرف سليمان بشدة العزم، ومضاء الهمة، وحب الاسفار . وعرف بسعة الصدر، وحسن المعاشرة على هيبة ورزانة . وعرف باخلاصه الخدمة للدولة العثمانية، والولاء للامة العربية، والعصبية للوطن اللبناني . فلطالما عهدت اليه حكومة السلطان في الامور الخطيرة، فلاقت النجاح على يده . ولو وافقته على اتباع خطة الاعتزال في الحرب الكبرى، لما انهار عرش بني عثمان . ولطالما ساعد العرب، ودافع عن حقوقهم في المجلسين والوزارة . ولم ينس لبنانيته في جميع اطوار حياته . فقد كان لبنان قبلته، ومصطافه، ومرجع حنينه . وحاولت الحكومة العثمانية حمله على ان يسعى لاقناع اللبنانيين بترك حماية الدول الاجنبية، والاكتفاء ببني عثمان، على ان يكون هو حاكم الجبل، فرد طلبها وابى ان يساوم على وطنه .

وعرف باباء النفس، والزهد في المال والالقاب . فان المشاكل المالية التي فضّها لم تقوَ على اغرائه فيجمع منها ثروة كما جمع سواه . وكان منصبه في الوزارة يخوله حق التمتع بالالقاب الضخمة، ولكنه كان يرفضها كلما عرضت عليه .

وعرف بقوة الحفظ والاستظهار، حدث عن نفسه انه استظهر في صغره وهو في المدرسة نشيداً كاملاً، ونصف نشيد من ملحمة ملتُن في الفردوس الغابر، وقسماً غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكُت . وحفظ الفية ابن مالك كلها، وانشد منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان[1] . وقوة حافظته ساعدته على درس طائفة من اللغات .

---

(١) راجع مقدمة الالياذة ص ٤٠

علومه

حُقّ لسليمان ان يحمل لقب العالم كما حُق له ان يحمل لقب الاديب، فقد كان راسخ العلم بالتاريخ والجغرافية، والاقتصاد السياسي، بارعاً في الطبيعي والرياضيات. وكان متسع الآفاق في ادبه، لا يقصره على العربية وحدها بل يجمع اليه معها آداب الشعوب العجمية لطول باعه في معرفة اللغات.

وقلما وجد مثله عالم باللغات، يعرف منها ما يعرف، ويتقن منها ما يتقن. فقد كان يحسن العربية والسريانية، واليونانية، والفارسية، واللاتينية، والانكليزية، والفرنسية والايطالية، والتركية. وكان يلم بالعبرية، والالمانية، والروسية، والهندية. وكثيراً ما خطب في المجلس العثماني بعدة لغات ليفهم اقواله النواب على اختلاف عناصرهم وبلادهم.

آثاره

كادت حياة البستاني تتوزعها السياسة والاسفار، فقليلاً ما كان يستقر ويفرغ للتأليف. وصرف همه الى الاعمال العظيمة التي تتطلب العناء الشديد والوقت الطويل، كدائرة المعارف والالياذة، فحالت دون فيض انتاجه؛ فجاء نزراً بالاضافة الى توقد خاطره، وتبحره في العلوم، وتثقفه بمختلف الآداب. على انه ترك من الآثار الخالدة، ما ينطق بفضله وسعة مداركه. فله في الشعر نظم الالياذة[1] وقصائد ومقطعات

---

(١) ابتدأ البستاني بنظم الالياذة في اواخر سنة ١٨٨٧، وكان يومئذ في القاهرة، فصنع شيئاً منها، مستنداً الى الترجمات الفرنسية والانكليزية والايطالية. ثم آثر ان ينقلها عن اصلها اليوناني، فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى احكمها، فراجع ما كان ترجمه، ونقح ما فيه من الخلل. وكانت الالياذة ترافقه في اسفاره الكثيرة، فيشتغل بها على رؤوس الجبال، ومتون البواخر، وقطارات سكك الحديد، فجاءت وليدة اقطار العالم الاربعة. وكثيراً ما كانت الاسفار والمشاغل تضطره الى اهمالها فيطويها برهة، ثم يعود اليها، حتى انتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ وهو يصطاف في فنار باغجه من ضواحي الاستانة. ثم اهتم بوضع الشرح لها، فكان عمله شاقاً راجع من اجله كثيراً من الكتب العربية والعجمية في الشعر والادب والتاريخ. ويتضمن هذا الشرح نحو الف بيت لمائتي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم، واسلامي ومولّد، قالوا في مثل معاني الالياذة او حوادثها. ويشتمل على طائفة حسنة من اساطير العرب، وعاداتهم، واخلاقهم واداجهم في بداوتهم وحضارتهم. وكان انتهاؤه منه سنة ١٩٠٢. وطبعت الالياذة وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣، فحمل الكتاب الى لبنان فصاف وكتب معاجمه اللغوية والتاريخية. ولما عاد الى مصر اخذ في انشاء المقدمة. ونشرت الالياذة بمنظومها وشرحها ومقدمتها ومعاجمها وفهارسها سنة ١٩٠٤.

والالياذة تشتمل في الترجمة على نحو احد عشر الف بيت، وهي في الاصل اليوناني بين الستة عشر، والسبعة عشر الف بيت. لان البحور العربية ولاسيما الكثيرة الاجزاء تستوعب ابياتها من المعاني ما لا تستوعبه الابيات اليونانية. ومعلوم ان الاضطلاع بنظم القصائد الطويلة امثال الالياذة لا يستقيم لصاحبه الا اذا تحرر من عبودية الوزن الواحد، والقافية الواحدة. وهكذا صنع البستاني فانه جعل الاناشيد على طرق شتى، فمنها ما قطعه قصائد مختلفة. ومنها ما نظمه قصيدة واحدة دون ان يراعي القافية الواحدة. ووسع لنفسه في اتخاذ الموشحات والاراجيز

مختلفة اشهرها الداء والشفاء وهما قصيدة وموشحة نشرتا معاً، قالهما في سويسرة، نظم الاولى في اثناء مرضه سنة ١٩١٨ فوصف آلامه وصفاً دقيقاً، وحن الى وطنه لبنان. ونظم الثانية في شفائه سنة ١٩١٩ فوصف طبيعة سويسرة، ونافسها بطبيعة لبنان، وفيها حنين شديد الى الوطن .

وله في النثر مما طبع، مقدمة الالياذة، وسنتكلم عليها . والجزآن العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف، عاونه فيهما نجيب ونسيب ولدا المعلم بطرس البستاني . وله ابحاث جليلة في الاجزاء الاخرى . وكتاب عبرة وذكرى يبحث في الاحوال السياسية قبل الدستور العثماني وبعده . وطريقة الاختزال العربي دوّن مقتطفاً منها في الجزء التاسع من دائرة المعارف بعنوان « ستينوغرافيا » ، ثم نشرها على حدة . ومقالات في الصحف العربية والفرنجية .

وله من غير المطبوع، تاريخ العرب . ورحلاته . وذكريات .

ميزته

لا نحاول ان نحلل في هـذا البحث، ميزة البستاني من نواحي الشعر والعلوم والسياسة، بل نحن مقتصرون على ناحيته التاريخية الادبية في مقدمة الالياذة، وما كان له من أثر بليغ في صناعة النقد الحديث . ولهذا آثرنا ان نبني الكلام على ميزة المقدمة ومنزلتها، لا على ميزة صاحبها ومنزلته .

والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالمثنّى والمربّع والمثمّن ، وما اشبه . وحاول ما امكنه ان يراعي لكل ضرب مقاماً ، ولكل موضوع بحراً . وشعر الالياذة في الجملة رصين محكم النظم ، وربما ارتفع في مواطن الى اسمى درجات الجمال

اغراض المقدمة

تقع المقدمة في مائتي صفحة كبيرة مضمومة الى اشعار الالياذة، قسمها المؤلف خمسة اقسام او اربعة فصول وخاتمة . فالاول في اسم هوميروس ولقبه، ثم في نسبه ومولده وحياته وموته ومنزلته . والثاني في الالياذة وموضوعها ونظمها وتناقلها، وفي حفّاظ الشعر عند الامم عموماً وعند العرب خصوصاً . ثم في جمعها وكتابتها، والقول في سلامتها من التحريف . ثم في المذهب الوُلفي والرد عليه . ثم في سبب حياتها وخلودها . ثم في اغفال العرب نقلها الى لغتهم . والثالث في نقلها الى العربية، وحكاية ناقلها، والاوزان والضروب التي نظمت عليها . والرابع في الالياذة والشعر العربي، وهو اكبر الاقسام، تكلم فيه المؤلف على الشعر القديم واصله وسبب طموسه، وعكاظ وتأثيرها، والقرآن وفضله . ثم قابل لغة قريش بلغة الالياذة، وكيف عاشت الاولى وماتت الثانية . وبحث في اطوار الشعر العربي، او طبقات الشعراء في مختلف العصور، فحلل ميزة كل طبقة منهم منذ الجاهلية الى عهد المحدثين، واورد مختاراً من شعرهم . ثم المع الى مغامز الشعر العربي، ومناهج المولدين في ابواب الشعر وفنونه . وذكر علوم الادب التي تلازم الشعر كالعروض والبديع والبيان . وانتهى الى الكلام في شعر المحدثين او المتأخرين ؛ فبيّن جمودهم وتقليدهم ، واسباب الضعف والانحطاط في شعرهم . ثم بحث في الملاحم وضروب الشعر عند الفرنجة، وقابل ملاحم الاعاجم بملاحم العرب من الشعر الجاهلي، وجمهرة اشعار العرب . ثم نظر في جاهلية العرب وجاهلية اليونان، ثم في ملاحم المولدين، ثم في الحقيقة والمجاز، وما يتصل بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة، والبديهيات . وما يعدو عليها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر . وما يطرأ من التغير، وما يستحسن منها وما يستهجن بفعل الحضارة .

والقسم الخامس او الخاتمة، في اللغة العربية، واللغة اليونانية، واتساع لغة العرب وثروتها، وكثرة مترادفاتها، وتعدد المعاني للفظ الواحد، وفائدة ذلك وضرره .

واسباب ضعفها في تأدية المعاني المستحدثة، كالتعابير العلمية، والصناعية والسياسية . ثم في ما هو الداء والدواء، والنهضة الحديثة، ومستقبل اللغة والشعر .

وهذه الاقسام تشتمل في شتى اغراضها على طرق النقد الحديث، وما يتخلله من تحليل وتعليل وفلسفة واستنتاج . وتشهد بسعة مدارك البستاني، وتبسطه في آداب العرب واليونان . وبحسبك ان تعود الى رده على المذهب الولفي[1]، ثم الى كلامه في اغفال العرب نقل الالياذة، ثم الى بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان، لتتبين بعد غوره، ودقة نظره، وحسن تعليله، وبراعة استنتاجه .

والمذهب الولفي يريد ان يجعل الالياذة قصائد متفرقة لطائفة من الشعراء . فعرض البستاني لتفنيده محاولاً ان يثبت وحدة الناظم ووحدة المنظومة، فيدحض مزاعم ولف واصحابه . فاعتمد على طريقة تحليلية بارعة، أوصلته الى الغاية التي يسمو اليها . فتحرى اولاً نعوت اشخاص الالياذة واوصافهم فاتضح له انها واحدة في جميع الاناشيد، بحيث لا يمكن هذا الاتفاق الا لناظم واحد . ثم نظر في الاماكن الجغرافية التي ورد ذكرها في الملحمة، فرأى ان الناظم لا يناقض نفسه بكلمة مما وصف به هذه الاماكن . ثم تتبع اجزاء الالياذة، ودقق في ارتباطها وتماسكها، فتبين له : « ان ناظم النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير . فكأنما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجة بعد اخرى حتى تستقر في آخرها، وانت متبين كل ما وراءك[2] » . ثم بحث في فلسفتها وآدابها فاستنتج انها من روح شاعر واحد في اخلاقه وآداب نفسه . فاثبت بذلك كله وحدتها ووحدة الشاعر .

وكذلك في كلامه على اغفال العرب نقل الالياذة، فانه لم يقنع بتدوين الخبر المجرد شأن المؤرخ الساذج بل عمد الى تعليله وبيان أسبابه . فاذا هي الدين، واغلاق فهم اليونانية على العرب، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي .

ثم تلك النظرة الشاملة التي جمع بها جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، فقابل فيها

---

(١) ولف عالم الماني (١٧٥٧ - ١٨٢٤) ذهب الى انكار هوميروس زاعماً انه شخص وهمي خلقته مخيلة الشعراء ، وان الالياذة وسائر شعره قصائد متفرقة لشعراء كثيرين ضاعت اسماؤهم . (٢) مقدمة الالياذة ص ٥٤ .

المواقف التي قيل فيها الشعر الجاهلي بالمواقف التي قال فيها هوميروس الياذته، وعارض احوال الشعب العربي باحوال الشعب اليوناني، وبيّن كيف يتشابهان في اللباس، وطرق المعاش، والسذاجة الفطرية وغير ذلك .

ثم تكلم على الملاحم، وخلوّ الشعر العربي من قصيدة طويلة كالالياذة فقال ان العرب :

« لم يتخطّوا في شعرهم الى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون الى التوحيد ، وكان التسليم للاحكام العُلوية من سُنَنهم قبل الاسلام ، فلم يُوغلوا في التخيُّلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرّع البحث الواحد الى ابحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية . . . واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه، مع تلك الخشونة، من الانتظام والدُرْبة، رأيت انهم كانوا ايام حرب طِروادة اقرب شبهاً بالعرب في ايام الخلفاء الراشدين . ثم كانوا ايام هوميروس اي في زمن نظم الالياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا النزر اليسير . فلم يسع ابناء الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم ، وطرق معاشهم، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقالهم من حيّ الى حيّ، يجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يُطيلون المقام فلا يُشيدون المنازل الفسيحة الأركان . » اه

اسلوبها الانشائي

كتب البستاني مقدمته، باسلوب علمي، يتلاءم مع النقد الادبي، والفقه التاريخي. اسلوب، انشاؤه رصين عارٍ لا وشي فيه ولا صور خيالية. واذا عرض شيء من ذلك، فانه لأبعد من ان يأتي متكلفاً، وانما هو يجري مع الطبع المسماح في سياق تركيب الجمل. او هو من ذاك النوع الملهم يهبط به الوحي المجرد فيجعل منه سجعاً او جناساً او صورة دون ان يكون للكاتب يد متعمدة امر تنزيله.

اسلوب يسير هادئاً مترفقاً لا صوت له ولا قعقعة، ألا رقرقة خفية كجرس الماء في الجدول المستقيم المعبّد. اسلوب حافل بفلسفة النقد والتاريخ، وبالادلة العقلية والتعليلات المنطقية، ألا انه واضح كل الوضوح منسجم كل الانسجام، خالٍ من الغموض والالتباس، وتداخل الجمل التي تفصل ما قبلها من المعاني عما بعدها. فيه مرونة عجيبة تجعل الالفاظ لينة الجانب تقبل ادق الابحاث واعمقها، واعلقها بالعقل والمنطق، دون ان يبدو منها تصلب واشمئزاز. وقلما اتفقت هذه الخصائص لاصحاب العلوم لان الطلاوة والسهولة والوضوح لا تحالف الاساليب العقلية في الجملة. الا ان البستاني كان يجمع الى صفته العلمية صفة ادبية فجاء اسلوبه على ما فيه من بحث دقيق، وعمق مدلول، رائع الانشاء، مختار الالفاظ، رائق الديباجة كانها مرآة صافية تنم بجلاء عما ينعكس عليها من صور ورسوم.

ولانشائه بلاغة في تأدية المراد دون تطويل ولا ايجاز، كأن الالفاظ فصلت على مقادير المعاني لا زيادة فيها ولا نقصان. وان وجد مترادفات او جمل متعاقبة على المعنى الواحد، فقليلة نزرة تكاد لا تلمح. وليست من قبيل الحشو والتطويل وانما هي لزيادة التبليغ والتقرير. ودونك هذه القطعة على سبيل المثال، اقتطفناها من بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان قال:

« إن أقدمَ ما اتصل بنا من الشعر الجاهليّ الجَليّ مَثُولٌ مُعظَمُه في مثل المواقف

التي قال فيها هوميروس إلياذته فهنالك شياطين وجنيات تلقّن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الأعشى :

دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلًا ، وَدَعَوْا لَهُ جُهْنَّامَ ، جَدْعاً لِلْهَجِينِ الْمُذَمَّمِ

وجُهْنَّام تابعة عمرو بن قَطَن . ولكل من فحول شعراء الجاهلية جنية او شيطان يلقّنه الشعر . وهنالك ملوكٌ كبارٌ على قبائلَ صغار تتكاتف وتتحالف دفعاً لعار واخذاً لثار . فتثور حرب البَسوس بين بكر وتغلب وتتلاحم عبس وفزارة على أثر سباق داحس والغبراء . ويكادون يفنون بعضهم بعضاً كما كاد يَفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم . وهنالك ايام تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم ، فيشتهر أمرها ويَذيع ذكرها كيوم الكُلاب ويوم الجِفار ويوم النِسار . ويتغنى الشعراء بحديثها تَغني هوميروس بيوم القناطرة ، ويوم الإيتول والكُوريت وما اشبه ذلك مما يفوق الحصر .

واذا نظرت الى الاشخاص دُهشت لما يبدو لك من الشبه في الاحوال والاقوال . فمن بطل كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل ، يُغاظ مثله فيعتزل القتال فينكل العدو بقومه حتى يهُبّ من عُزلته فيفعل فعل آخيل في عودته . ومن خطيب كنَسْطور يقف واعظاً موقف قُسّ بن ساعدة فيرشد ويُرغب ويرهب . ومن اخوة واخوات وازواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وامهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستراه بالمقابلة في تعاليق الشرح . ولو اتسع لنا المقام لما عدمنا سبيلًا الى ابراز نظيرٍ لكلٍّ من رجال الالياذة ونسائها .

واذا حولت نظرك الى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت ، مع سبق اليونان في حلبة الحضارة ، مشاكلة باهرة في حالة المعيشة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرية الجاهلية : سراةٌ كأَكْيِل يتسابقون الى قِرى الاضياف كحاتم الطائي . ويبنون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق . وامراء كأخيل وفَطْرُقْل يأمرون وينهون ولديهم الخشم والجواري ؛ ومع هذا فهم بيدهم يتولون توزيع الزاد على الاضياف ، وينحرون الذبيحة بمداهم على نحو ما نحر الامير الكِندي ناقته للعذارى . وابناء ملوك كوَلد بريام لا تعيبهم مع غناهم رعاية المواشي وتربية الأنعام كما قال

خالد بن الوليد لِماهان الأرمني : « وامّا ما ذكرت من فَقرنا ورعينا الابل والشاء، فما منا من لم يرعَ، واكثرُنا رعاةٌ ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرعَ[1]. » وسبايا تشرى وتباع. وأسرى تقتل وتفتدى وتسرّح باحسان؛ الى غير ذلك مما لا نهاية له. وسترى منه جانباً غير يسير مفصّلًا بالمقابلة في مواضعه. » اه

(١) واقدي ١ : ١٥٦

منزلتها

كان لظهور مقدمة الالياذة أثر قوي في الادب العربي، فانها نقلت اليه اصول النقد الحديث بما فيها من الدرس والتحليل، وتحري الاسباب، ومقابلة الاداب، والاستنتاج. وكان النقد لا يعدو حدود المعاني وائتلافها مع الالفاظ، واوجه البيان والبديع، والمغالط اللغوية وتواطؤ الشعراء على الكلام، وسرقاتهم، وطبقاتهم. وهذا نقد ناقص لا يقنع به الادب العصري والثقافة الجديدة. فجاءت المقدمة متممة لهذا النقص؛ فسدت ثلمة فوها. في الادب، وادت الى الشعراء. والكتاب خدمة جلّى في ما تشتمل عليه من اساليب النقد الصحيح؛ كما في كلامها على هوميروس، وتوصلها بالتحري والمعارضة والتحليل، الى اثبات شخصيته وصحة اسمه، وان الالياذة لشاعر واحد لا لجماعة من الشعراء. او في تحليلها اطوار الشعر العربي؛ فانه على ايجازه كان نواة صالحة لما نشأ بعده من التحليلات والابحاث. او في مقابلتها الآداب العربية باداب اليونان، وبحثها في ضروب الشعر عند العرب والاعاجم، مما اعتمد عليه الادباء من بعد في كلامهم على الادب اليوناني، واغفال العباسيين نقله، وخلو الشعر العربي من الملاحم الطويلة، وغنى اللغة العربية بمترادفاتها، وفقرها في الاعراب عن المعاني الحضرية المستحدثة. وامتازت ابحاثها بالنزاهة والاخلاص المجرد للعلم، فكانت عنوان النقد العادل لا تميله العاطفة، ولا يغمزه التعصب. فتلقتها المقامات الأدبية بالنظر العالي، واقبل عليها الكتاب ينهلون من فيض معينها ويتذوقون ما فيها من ادب طريف، على ما بهم من ظمإٍ الى كل شيء جديد. ولم تقتصر مكانتها على الامصار العربية، بل جاوزتها الى اليونان، فعرف المجمع العلمي في [illegible] فاشار بترجمتها، وضمها الى إلياذة هوميروس. وحسبها منزلة ان تكون في الادب العربي فاتحة النقد الحديث.

— تم الكتاب —

اصلاح غلط*

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٣	قادس	وادي آش
٩٦	٢٢	بين والقوم	بين القوم
١٣٤	٢٣	ثقاة	ثقات
١٥٠	٣١	وانتشر	ثم
١٧٠	٣	دونا	دون
٣٠٣	٩	الوطنون	الوطنيون
٣٠٦	١٤	يديهم	ايديهم

* هذا ما وقعنا عليه من الخطإ في مراجعتنا الكتاب بعد طبعه .